المكتبة الجامعية

نهاية الكون في الفكر القرآني الفلسفي

(رؤية أبستيمولوجية - معرفية - مقارنة في نشأة الكون ونهايته)

الدكتور شُبّر الفقيه

دكتوراه في العلوم السياسية والفلسفة والأدب العربي

دار البحار
بيروت

محتويات الكتاب



الإهداء

إلى كل قطرة دم سالت على أرض العراق الحبيب

إلى روح من سكن في القلب ذكراهما

إلى روح من تركاني في غربتي أعد الأيام والليالي للقائهما

إلى روح أخوي الدكتور«ليث»

والمهندس «سيف»

اللذين قتلا بسيف الفتنة والطائفية قربان حبّ ووفاء واشتياق

شُبّر الفقيه



مقدمة البحث

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور وتبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد، فهذا بحث في موضوع الكون في القرآن الكريم الذي نسجت حوله أفكار العلماء للكشف عن أرجائه والتعرف على أسراره.

فنحن اليوم في عصر حوى المتناقضات، فكان زماناً معقداً تشابك فيه الإيمان والإلحاد، وانغمست البشرية في دوامة من المادية والشهوات، واتخذ العلم طريقاً للمكاسب الخاصة فأصبحت في جاهلية دونها الجاهلية الأولى، وعم الفساد والظلم وفرغت قلوب الناس من الإيمان الذي هو أساس كل شيء، إذ أن كل مادة من مواد الكون إذا دقق فيها العقل السليم وبحثها بحثاً وافياً وجد فيها القدرة الهائلة والتنظيم الحكيم والإبداع المدهش الذي لا يستطيع أن يحدثه مخلوق مهما كانت إمكانياته، بل إنه يقف أمام معظم ما فيها عاجزاً عن فهمها حق الفهم.

وقد تسرب إلى أذهان كثير من المثقفين بأن القرآن لا يحتوي على علم بالكائنات وعناصر الكون، لذلك انصرف جمهور المتعلمين من المسلمين عن مطالعة كتابهم العزيز وعن التدبر فيه لأنه في ظنهم ليس فيه من العلم الذي

تقفوا به ما يجذبهم إليه أو يحبب إليهم البحث فيه، وكانت نتيجة لذلك تضاءل العلم بروح القرآن وحقيقته حتى أصبح كثير منهم لا يعرف منه إلا اسمه ورسمه أو لا يفهم إلا القليل من أمره.

فوددنا أن ندخل في هذا الميدان لأبرز حقيقة القرآن وآياته العلمية المتفقة مع الفطرة، وأقدم رسالة علمية على قدر فهمنا في هذا الموضوع يبين فيها حديث القرآن عن آثار الله تعالى خالق كل شيء الذي هو أساس الحضارة والتقدم العلمي متوكلاً على الله معتمداً على أمهات المصادر والمراجع مستسهلاً الصعاب والعقبات التي لاقيتها خلال هذه الرحلة العلمية مستعرضاً الأفكار والنظريات المدونة حول الكون ابتداء من الحضارات الأولى إلى عصرنا الحاضر راجياً من الله العون والتوفيق لإنجاز هذا الجهد.



تمهيد

معنى الكون

الكون لغة، مصدر مأخوذ من الفعل الثلاثي معتل الوسط وهو (كان يكون كوناً) ويأتي مصدره أيضاً على التكوين والكينونة[١] وجمعه أكوان، وهو بمعنى الحدث[٢]، والكائنة: الحادثة، وكوّن الشيء أي ركبه بالتأليف بين أجزائه وكون الله الأشياء أي أخرجه من العدم إلى الوجود، ويقال كونه فتكون أي أحدثه فحدث[٣]، والتكوين: هو المعنى الذي يعبر عنه بالفعل والخلق والإيحاء والأحداث والاختراع والإبداع والإنبات وهذه الألفاظ متغايرة في التركيب متحدة في المصداق[٤]، ونقل المناوي[٥] في كتاب (التوفيق) أن

---

(١) تاج العروس الزبيدي المجلد التاسع ص٣٣٤ تأليف محمد مرتضى الزبيدي طبع سنة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م، دار ليبيا للنشر والتوزيع.

(٢) قاموس المحيط ج٤ ص٢٦٦. ولسان العرب لابن منظور ج١٣ ص٣٦٣، وأساس البلاغة للزمخشري الطبعة الثانية ١٩٧٢ ج٢ ص٣٢٣ مختار الصحاح ص٥٨٤.

(٣) المعجم الوسيط تأليف إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات طبع سنة ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م مطبعة مصر ج٢ ص٨١٢.

(٤) شرح العقائد النسفية لسعد الدين التفتازاني ص٨٣ صفة التكوين.

(٥) محمد عبد الرؤوف المناوي القاهري المولود سنة ٩٥٢هـ ـ ١٥٤٥م وتوفي سنة ١٠٣١هـ ـ ١٦٢٢م الإعلام ٦/ ٢٠٤.

الكون اسم لما حدث دفعة كانقلاب الماء من الهواء، لأن الصورة الكلية للماء كانت بالقوة فخرجت منها إلى الفعل، وإذا كان على التدريج فحركة[١].

الكون في الاصطلاح

أما تعريفه في اصطلاح أهل العلم فكثيرة نذكر بعضاً منها كالآتي:

١ ـ قال السيد شريف الجرجاني[٢] في الكون عند أهل التحقيق: «عبارة عن وجود العالم من حيث هو أنه حق، وإن كان مرادفاً للوجود المطلق عند أهل النظر»[٣].

٢ ـ وعرفه سعد الدين التفتازاني[٤] بقوله:

الكون «هو إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود»[٥].

٣ ـ وله عند علماء الفلك تعاريف عدة منها:

(أن الكون عبارة عن نظام يضم ألوف الملايين من المجرات وكل مجرة تحتوي على ألوف الملايين من النجوم)[٦].

---

(١) تاج العروس ٩/ ٣٣٤، وشرح التعريفات سيد شريف طبع في مطبعة أحمد كامل استانبول ١٣٢٧هـ ص١٢٦.

(٢) أبو الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني المعروف بـ (سيد شريف) المتوفي سنة؟؟؟؟

(٣) التعريفات سيد شريف ص١٢٦.

(٤) مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني المتوفى سنة ٨٩١هـ.

(٥) شرح العقائد النسفية ص١١٦.

(٦) قضية الخلق بين الماديين والمثاليين، عبد الرسول مهدي عبدة، الطبعة الأولى ١٩٧٩م ص٧٩.

ويضاهي هذا التعريف تعريف علم الهيئة عند ابن سينا[١] إذ يقول: «وهو علم يعرف به حال أجزاء العالم في أشكالها وأوضاع بعضها عند بعض ومقاديرها وأبعاد ما بينها وحال الحركات التي للأفلاك والتي للكواكب، وتقدير الكرات والقطوع والدوائر التي بها تتم الحركات[٢]. وعرفه الدكتور علي الأمير بقوله: الكون «هو الفراغ وما يحتويه هذا الفراغ الموجود خارج كرتنا الأرضية[٣].

ولكن هذا التعريف غير جامع لجميع أجزاء الكون، لأن الأرض جزء من هذا الكون وهي داخل في هذا الفراغ بما فيه من مجرات وكواكب، ومن بين هذه الكواكب الأرض التي خصصت لحياة الكائنات، وكذلك لا يشمل الكون غير المنظور.

وعرفه الدكتور أنور السنهوتي بأنه «الخلق المشهود ذو الوجود الخارجي الذي يدركه الإنسان ويوجه إليه قلبه وعقله في هذه السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والكواكب، وهذه الكائنات المختلفة التي تدب على الأرض والتي تخلق في أجواء الفضاء، وهذه الظواهر الكونية من الليل والنهار والرعد والبرق والمطر، والأحوال والأطوار ذات الوجود الحقيقي، وذات الآثار الواقعية[٤].

---

(١) فيلسوف إسلامي توفي ٤٢٨هـ ـ ١٠٣٧م.

(٢) علم الفلك وتاريخه عند العرب في القرون الوسطى تأليف السنبو كرلونلينو طبع سنة ١٩١١م بمدينة روما ص٢٧.

(٣) الكون العميق تأليف د. علي الأمير طبع سنة ١٩٨٦ الطبعة الأولى ـ بغداد ص١٤.

(٤) مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالأحساء العدد الثالث السنة الثالثة سنة ١٤٠٣هـ ـ ١٤٠٤هـ ص٤٥. مقالة د. محمد الأنور السنهوتي.

وعلى ضوء ذلك يمكن أن نعرف الكون تعريفاً جامعاً مانعاً وبكل ما فيه من منظورة وغير المنظورة بأنه: «هو ما أحدثه الله وإنشاءه من العدم وقصد إيجاده على هذا النحو المعين بمحض إرادته».

فقول التعريف (أحدثه الله وأنشأه من العدم)، قيد يبطل قول من يدعي بازلية الكون ويحدد أيضاً بداية للكون، أو أنه خلق نفسه بنفسه.

وقوله (قصد إيجاده) قيد يخرج القول بالصدفة أو نتيجة تطورات طبيعية مجهولة.

وقوله (بمحض إرادته) أي لم يجب على الله تعالى إيجاد الموجودات، بل يوجده حسب إرادته.

مقصودنا من الكون

المقصود من الكون: ما خلقه الله من الأشياء المنظورة وهو عالم محس منشىء له واقعية في الخارج، ولهذه الأشياء صفات وكيفيات وأحاسيس تتأثر بها حواسنا ويصور لنا إدراكنا الحسي في الذهن فكرة عنها، وإن كانت تلك الأشياء تبدو لأذهاننا على غير ما هي عليه في الواقع، لأنها تتحول سريعة وتتغير وإن تراءت لحسنا كأعيان ثابتة ساكنة كما ذهب إلى ذلك أبو الفيض المنوفي[١].

وكذلك ما وراء هذه الظواهر الكونية المحسوسة من عللقريبة غير منظورة، كالقوة والطاقة والقوانين، التي ندركها بعقولنا، ثم ندرك بأن لنا ذاتاً مستبطنة تدرك الأشياء وأن في الخارج موضوعاً يدرك، ولهذا حكم بأن للوجود

(١) كتاب الوجود تأليف محمود أبو الفيض المتوفي مطبعة الحجازي القاهرة ١٣٦٦ ـ ١٩٤٧م ص١٣.

باطناً معقولاً كما أن له ظاهراً محسوساً[١].

وكذلك يدرك أن وراء هذا الكون الموجد الأول لجميع الأشياء.

فالكون المنظور في القرآن الكريم من أرضه وما عليه من جبال ووديان وبحار وأشجار وحيوانات، وسمائه وما فيها من نجوم وكواكب وشموس وأقمار وذرات وغيرها، وما بينهما من المخلوقات من مطر وسحاب وطيور صافات، هو موضع التأمل والبحث فيه، بالتجربة واتباع البرهان والدليل العلمي للوصول إلى الحقيقة التي يحاول الإنسان الإخبار بها، ذلك لأن هذه الأدلة المنظورة تحيط بالإنسان من كل جانب يتعامل معها بالتجربة والتسخير لحياته وسد احتياجاته ويشاهد التغيرات والأعراض الآتية على أجزاء الكون، وكذلك يدرك الإنسان وجود قوة خفية داخل المادة المنظورة تعطي فاعلية وحيوية لها، فلولاها لما كان لوجودها تلك الأهمية التي نلامسها مع هذه القوة الخفية، وكذلك يدرك ذوو الفطرة السليمة والعقول المنطلقة من هذه الفطرة أن وراء ذلك خالقاً أوجد هذه الأشياء على هذا النظام المدهش البديع الذي حير العلماء أن يبوحوا به إلا القول بأن له خالقاً أوجد هذه الأشياء على الوجه الذي نراه، ولنجعل من هذا الكون المنظور دليلاً مشهوداً محسوساً على وجود من أعد هذا الكون ويدير شؤونه من غير أن يكون للإنسان يد في تغيير شيء منه، ومفنداً آراء المخالفين والنظريات التي لا تقف أمام البرهان العلمي والمنطقي منذ العصور القديمة إلى وقتنا الحاضر، لينضم حقيقة العلم إلى حقيقة الدين ويناديان ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾[٢].

---

(١) ينظر المصدر نفسه.

(٢) لقمان: ١١.

أهمية البحث

إن لموضوع الكون أهمية كبيرة لدى الباحثين عن أسراره والكشف عن قدرة خالقه ووحدانيته، وإثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ لغير المؤمنين به، مستعيناً بالعقل والعلم والآيات الكونية، لأن الكون خلق الله الذي يشمل كل شيء في الوجود في السموات والأرض وما بينهما، غير الله سبحانه وتعالى، وما نعلمه في هذا الكون الفسيح وما كشفه الله تعالى لنا إلى وقتنا الحاضر، ما هو إلا ذرة من ذرات هذا العالم الذي لا يدرك مداه إلا الله سبحانه الذي أحاط بكل شيء علماً في أسرار الوجود، ولقد حاول البشر وبكل الوسائل أن يدركوا حقيقته أو يكشفوا عن بعض ما يحتويه من أسرار ابتداء من الحضارات الأولى إلى الآن، فإنهم لما يزالون حيارى أمام قدرة الله سبحانه.

فالقرآن الكريم يحتوي على أكثر من (٧٥٠) آية كونية فيها حقائق علمية موجزة غاية في الأصالة والموضوعية، وإن الإعجاز العلمي للقرآن وقد شمل أهم الظواهر العلمية في القرن العشرين بالنسبة إلى الطبيعة الجوية والفلكية وغزو الفضاء وغير ذلك عمّا كان الإنسان يجهلها قبل نزول القرآن وبعده بزمن طويل.

وأن الحديث عن الكون في القرآن الكريم في أسلوب علمي رائع يوقظ عقل الإنسان برفق ويسر، ويخاطب كل البشر على اختلاف عقولهم وزمانهم، يقتضي ألا يخاطب الناس عنه بما يفكرون فيكون ذلك حجاباً بينهم وبين قبول دعوته وألا يوافق الناس على باطل معتقداتهم الكونية في عصر نزول القرآن فيكون ذلك حائلاً دون قبول دعوته في عصور العلم المتقدمة[١] حتى يتضح

---

(١) الكون والإعجاز العلمي للقرآن د. منصور حسن البني ص٦ دار الفكر العربي.

إعجاز القرآن لكل إنسان لتلزمه حجة الله تعالى إن أبى الإيمان بالله تعالى ولتظهر معجزته الخالدة في كل زمان ومكان والتي ستظل ثابتاً دون تغيير إلى قيام الساعة كما يقول تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[(١)]، ولا ريب في أن العلم والقرآن مرتبطان ارتباطاً مصيرياً متماثلان في الغاية متحدان في الهدف، لأن مصدرهما واحد وهو الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون.

ولو تأملنا في عقائد الأمم السابقة لعصر نزول القرآن الكريم وبعده بزمن لوجدنا أنهم تأثروا بفلسفات قديمة وأساطير باطلة وعقائد وثنية روجها الكهنة لتشويه الحقائق وتضليل الناس عن دين الأنبياء والمرسلين، غير أن الفلاسفة حاولوا التوفيق بين الفلسفة والدين أو الشريعة والحكمة لتأييد الحقائق الدينية عن طريق فلسفة العقيدة وإقامتها على أسس عقلية، وإثبات أن ملجأ به الشرع لا يتعارض مع ما اهتدى إليه العقل، بيد أن محاولاتهم في هذا الصدد لم يقدر لها النجاح، بل قادهم إلى انحرافات والوقوع في أخطاء جسيمة التي كانت سبباً في الحكم عليهم بالزيغ والضلال من جانب بعض علماء الإسلام[(٢)]، وهذا ما دفع الإمام الغزالي إلى أن يصنف كتابه (تهافت الفلاسفة) في نقض مذاهب الفلسفة وكشف عوارها، والتنديد بما انطوت عليه من أخطاء.

والسبب في ذلك أن هناك جفوة لا يمكن تجاهلها بين منهج الفلسفة ومنهج الدين والعقيدة وبين أسلوبهما، وبين الحقائق الإيمانية والصحيحة وتلك التصورات البشرية السقيمة التي تتضمنها الفلسفات الإنسانية، كما أن هناك مفارقة كبيرة بين الطبيعة الكلية للتصور القرآني التي تخاطب الكينونة البشرية

---

(١) سورة الروم: ٣٠.

(٢) مجلة كلية الشريعة والعلوم الإسلامية بالأحساء ص٣٩١.

جملة بكل مقوماتها وطاقاتها، وطبيعة التصور الفلسفي التي تخاطب الفكر البشري وحده خطاباً بارداً مصبوباً في قالب المنطق الذهني الجاف[١]، ومن هنا لا بد أن نعرف أن التصور الإسلامي الصحيح لا يمكن أن يؤخذ عن أولئك المفكرين الذين يطلق عليهم وصف فلاسفة الإسلام، لأنهم لم يبرؤوا من التأثر بالفلسفة اليونانية والفلسفات البابلية والفارسية القديمة وهي فلسفات غريبة عن روح الإسلام، وللكشف عن هذه الفلسفات الدخيلة وتمييز الصحيح من السقيم جاء اختيار الموضوع نتيجة التفكير في دعاوى الذين يحاربون الدين ويجادلون في الله بغير علم، وهم يصبغون أقوالهم الباطلة بالفلسفات القديمة الداخلة في العصر الحديث، والنظريات الخاطئة التي تراجع عنها أصحابها، وهم يتحمسون لها ويزيقونها بالعبارات الجذابة دون أن يعرفوا حقيقتها، ليكون هذا الجهد المتواضع رداً علمياً قرآنياً عليهم وإبطالاً لنظرياتهم.

وكذلك نرى أن الكون أثر من آثار الله وفعله وأجلى دليل على عظمته وقدرته جل وعلا ويرتكز هذا الموضوع ويقوم على الأسس التالية:

١ ـ البحث عن مظاهر قدرة الله ووحدانيته في خلق الكون على هذا النظام الدقيق، وعن آياته في الآفاق والأنفس والثمرات وإنزال المطر ونشوء السحاب وحدوث الرياح وإحياء الأرض بعد موتها، واختلاف الأجناس والأنواع وغير ذلك[٢].

٢ ـ كشف الطريق إلى حقيقة الوجود، والكشف عن غشاوة أعين

---

(١) خصائص التصور الإسلامي سيد قطب ص١٠ ـ ١١ ومجلة كلية السريعة بالأحساء ص٣٩١.

(٢) الظواهر الجغرافية تأليف د. عبد الحليم عبد الرحمن خضر سلسلة العلم والإيمان رقم (١) دار السعودية للنشر والتوزيع. ص١٠.

المنكرين للبعث والحساب.

٣ ـ إثبات أن القرآن منزل من عند الله، وأن منهجه يرسُم الطريق لمنهجية البحث العلمي الباحث عن أسرار الكون[١].

٤ ـ إثبات أن الله تجري إرادته في الكون وفق القانون الإلهي العام للكون، وإثبات التوافقية بين منهج القرآن الكريم ومنهج البحث العلمي الصحيح، لأن الكون عمل الله وخلقه والقرآن كلامه يتحدث في آيات كثيرة منه عن خلقه فلا تعارض بين قوله وفعله.

٥ ـ سبق القرآن الكريم كل ما وصلت إليه المدارس الغربية من نظريات واتجاهات وتطبيقات واعترف بذلك كثير من العلماء، وهذا السبق جاء في زمن لم تكن المكتشفات العلمية الحديثة معروفة أو في بيئة لم ينتشر فيها العلم بعد.

٦ ـ إظهار أن القرآن يخاطب العقول[٢] ويحثها على البحث والنظر حتى يصل إلى النتيجة والحقيقة فيتضح له الحق، ليكون حجة عليه إذا قلد في عرض الآراء التي تخالف الواقع، ويقول تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ﴾[٣].

٧ ـ يكون القرآن الكريم حجة على المنكرين له ولخالق الكون لأنه بعدما كشف العلم الحديث الكثير من الحقائق العلمية والكونية التي جاءت موافقة للقرآن الكريم ومصدقة إياه لم يعد هنا سبيل للإنكار، إذ أن البرهان قد

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الإسلام في عصر العلم تأليف د. محمد أحمد الغمراوي الطبعة الأولى ١٣٩٣ ـ ١٩٧٧م مطبعة السعادة ـ القاهرة ص٣٦.

(٣) العنكبوت: ٢٠.

ثبت، والحقيقة قد ظهرت، ومعجزة القرآن قد تحققت على أيديهم أنفسهم، فيكون التجديد العلمي بمثابة تجديد للرسالة الإسلامية، كأنما رسول الله قائم في كل عصر يدعو الناس إلى دين الله ويريهم دليلاً على صدقه آية جديدة تتطابق ما بين العلم الحديث والقرآن الكريم[١] مصداقاً لقوله تعالى:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾[٢].

هدف البحث

يهدف البحث إلى عرض الأفكار والعقائد حول الكون في الحضارات القديمة ومقارنتها بحقائق القرآن الثابتة التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان وبيان خلق الكون والغاية التي خلق من أجلها عناصر الكون، ونظرة القرآن إليه، وكذلك بيان العقائد المكونة حول الكون في الحضارة المادية في العصر الحديث ومقارنتها بحقائق القرآن المفندة لكل نظرياتهم الخاطئة، وإظهاراً لحقيقته بنتيجة مؤيدة بشهادة العلم الحديث في أوساط العلماء والباحثين.

خطة البحث

تناولت خطة البحث لموضوع هذه الرسالة مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة.

١ ـ المقدمة وتشتمل:

أ ـ معنى الكون.

---

(١) العلم الحديث حجة للإنسان أم عليه، القسم الأول الأول تأليف د. عبد الله عبد الرحيم الحياوي ص٥، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م دار الثقافة ـ قطر الدوحة.

(٢) سورة النمل: ٩٣.

ب ـ المقصود منه.

ج ـ أهمية الموضوع.

د ـ هدف البحث.

هـ ـ خطة البحث.

٢ ـ الباب التمهيدي: الكون في الحضارات القديمة ويحتوي على سبعة فصول:

أ ـ الفصل الأول: نظرة المصريين القدامى إلى الكون.

ب ـ الفصل الثاني: الكون في منظور سكان وادي الرافدين القدامى.

جـ ـ الفصل الثالث: الكون في منصور اليونانيين.

د ـ الفصل الرابع: الكون في منظور الحضارة الفارسية.

هـ ـ الفصل الخامس: النظام الذي بنى على تلك الأفكار.

و ـ الفصل السادس: الكون في التوراة والإنجيل.

ز ـ الفصل السابع: خالق الكون في التوراة.

٣ ـ الباب الأول: الكون في القرآن الكريم، ويشتمل على ثمانية فصول:

أ ـ الفصل الأول: بداية الكون وفيه مسائل:

أولاً ـ المسألة الأولى: مراحل خلق الكون.

ثانياً ـ المسألة الثانية: عدد السموات والأرض.

ب ـ الفصل الثاني: الغاية من ذكر الكون وفيه مباحث.

أولاً ـ المبحث الأول: الغاية التي ذكرها القرآن.

ثانياً ـ المبحث الثاني: وحدة نظام الكون وربط الإنسان به.

ثالثاً ـ المبحث الثالث: دلالة الكون على الخالق.

جـ ـ الفصل الثالث: نهاية الكون.

د ـ الفصل الرابع: نظرة القرآن إلى الكون وفيه مبحثان:

أولاً ـ مخلوقية الكون/ مادية الكون.

ثانياً ـ المبحث الثاني: الكون ونشوء الحياة وفيه مطلبان:

المطلب الأول: إعداد الأرض للحياة.

المطلب الثاني: الحياة على الكواكب الأخرى.

هـ ـ الفصل الخامس: خالق الكون في القرآن الكريم.

و ـ الفصل السادس: وصف الكون في القرآن الكريم.

ز ـ الفصل السابع: الحضارة التي نشأت من القرآن الكريم.

ح ـ الفصل الثامن: المقارنة بين حضارة القرآن والحضارة القديمة.

٤ ـ الباب الثاني: الكون في الحضارة الحديثة ويشتمل على ستة فصول:

أ ـ الفصل الأول: الكون والمصادفة.

ب ـ الفصل الثاني: نظرة الماديين إلى الكون.

نهاية الكون في الفكر القرآني الفلسفي ٢٧

جـ ـ الفصل الثالث: نظرة المثاليين إلى الكون.

د ـ الفصل الرابع: خالق الكون في الحضارة الحديثة.

هـ ـ الفصل الخامس: الحضارة التي بنيت على تلك الأفكار.

و ـ الفصل السادس: المقارنة بين الحضارة الحديثة والقرآن الكريم.



الباب التمهيدي

الكون في الحضارة القديمة

ويشتمل على فصول:

١ ـ الفصل الأول: نظرة المصريين القدامى إلى الكون.

٢ ـ الفصل الثاني: نظرة سكان وادي الرافدين.

٣ ـ الفصل الثالث: نظرة اليونان إلى الكون.

٤ ـ الفصل الرابع: نظرة الفرس إلى الكون.

٥ ـ الفصل الخامس: النظام الذي بني على تلك الأفكار.

٦ ـ الفصل السادس: الكون في التوراة.

٧ ـ الفصل السابع: خالق الكون في التوراة.

الفصل الأول

نظرة المصريين القدامى إلى الكون

ما دمنا نتحدث عن الكون في الحضارة القديمة لا بد من إعطاء تعريف للحضارة، وهي: (نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي والعمراني وتتألف من أربعة عناصر:

الموارد الاقتصادية، النظم السياسية، التقاليد الخلقية، متابعة العلوم والفنون)[١]. وذهب بعض العلماء إلى تعريفات أخرى نذكر منها:ـ

١ ـ أنها أحكام القوانين والعبادات.

٢ ـ أنها خلاصة الأدب والعقل والرفاهية[٢].

واختلفَ مفهوم الحضارة بين الأقوام المنتشرة في أرجاء الأرض المعمورة حسب بيئتهم وما يحيط بهم من مستلزمات الحياة مما أدى إلى اختلاف نظرتهم إلى الكون.

ففي مصر فكر قدماء المصريين في الكون وما يحيط بهم من الظواهر

---

(١) ينظر كتاب حضارة مصر والشرق القديم، أحمد زرقانه وآخرون، يطلب من دار المصر للطباعة.

(٢) المصدر نفسه.

الطبيعية وخرجوا من هذا التفكير بنوع من العبادات، نمت وتطورت على مر العصور، حتى أصبحت من عوامل تأسيس الحكم الملكي في المصر المتحد[١].

فكانت آراؤهم عن الكون كآراء غيرهم من الأمم لا سيما عن السموات وأجرامها التي كانت لها علاقة كبيرة بمعتقداتهم الدينية[٢].

وكانوا يعتقدون أن بداية الخلق هي السماء، وقد ظلت هي والنيل أكبر أربابه إلى آخر أيامهم، ولم تكن الأجرام السماوية العجيبة في اعتقادهم مجرد أجرام، بل كانوا يعتقدون أنها الصور الخارجية لأرواح عظيمة لإله ذات إرادات توجه حركاتها المختلفة المعقدة[٣].

وقد تتباين آراؤهم حول تحديد شكل السماء والأرض كما تتباين حول خلقهما نجملها كما يأتي:

أ ـ ذهب بعضهم إلى أن السماء بكل ما فيها بقرة عظيمة تطلع في بطنها النجوم، والأرض تحت أقدامها[٤]. أو أنها كامرأة تنحني على الأرض بذراعيها ويسندها (شو) إله الهواء بكلتا يديه[٥]، وكذلك يرون أن الأرض بكل ما فيها

---

(١) المصدر نفسه ص١٦.

(٢) ديانة قدماء المصريين تأليف استندرف الألماني تعريب سليم حسن الطبعة الأولى سنة ١٩٢٣، مطبعة المعارف مصر ص٢٧.

(٣) قصة الحضارة تأليف ول ديورالد ج٢ ص١٥٦.

(٤) المصدر نفسه ص١٥٦، وينظر كتاب (الله) عباس محمود العقاد طبع سنة ١٩٤٧ دار المعارف بمصر ص٦٠.

(٥) ينظر (الله) عباس محمود العقاد ص٦٠.

مركز الكون وأن السماء فوقها كسقف مرفوع مستو[١].

ب ـ وذهب آخرون منهم إلى أن السماء منحنية بعض الانحناء وأنها مزينة بمصابيح القدرة، ولما تعذر عليهم فهم الكيفية التي تقف بها السماء مرفوعة في الهواء تخيلوا لها أربعة أعمدة تستند عليها ـ كاستناد سقف بيوتهم على أساطين في جذوع الأشجار ـ في أركان الأرض الأربعة، ولذلك كانوا يخشون سقوطها عقب الحوادث[٢].

وصنع المصريون تمثالاً منحوتاً على هيئة إنسان على أساس تصورهم لعناصر الكون من شمس وقمر وكواكب وغير ذلك، ويكون الملك في غالب الأحيان يمثل هذا العنصر الكوني الذي جعلوه آلهاً مادياً كما لوحظ ذلك في نقوشهم وأناشديهم.

بدء خلق الكون:

ذهب قدماء المصريين حول خلق الكون وبدء تكوينه مذاهب شتى نذكر بعضاً منها على وجه الاختصار كالآتي:ـ

١ ـ كانوا يعتقدون أن العالم وجد بطبيعته[٣] أي بدون تأثير للإله في إيجاده وقد يؤخذ ذلك من الأنشودة المصرية القديمة التي كانوا ينشدونها لـ(اتوم رع) أي: إله الشمس، تقول الأنشودة:

---

(١) الحضارة القديمة أحمد كمال ص٧.

(٢) المصدر نفسه، وينظر ديانة قدماء المصريين ص٢٧.

(٣) أي بطريقة التولد الذاتي على هيئة ـ المادة البدائية ـ كما يقول (أوزيريس) ـ أحد الآلهة ـ لقد نشأت بنشوء تدحرجات أي طورت نفسي من المادة الأولى التي صنعتها بيدي. الديانة الفرعونية.

«أنت الذي خلقت جميع الآلهة والإنسان ونظمت جميع الأشياء»[١]، وأن هذه الأشياء لم تخلق إلا من مادة لها سابقة وجود وهي جسم عظيم من الماء يدعى (نو) إله الماء يشتمل على خلايا الحياة من ذكر وأنثى ومن هذا الماء فطرت (رع) الشمس الخالقة التي تولد منها الهواء والجو (شو وتفنوت) ويشمل هذا الماء كذلك إله الأرض (جب) وإله الهواء (نوت) متعانقين ـ أي أن السماء والأرض في بدء الأمر كانتا شيئاً واحداً، وفصل بينهما شو، فحمل السماء على يديه إلى الطبقات العلوية[٢]، كما جاء في نصوص الأهرام (١١٠١)، (ذراعا شو تحت السماء لكي يحملها)[٣]، أما الأرض فقد برزت من الماء، وتصوروا أن مكاناً عالياً من الأرض كان أول ما ظهر على سطح ذلك الخضم القديم الذي يسمونه (نون) كما تنحسر مياه فيضان النيل فتظهر أكمات صغيرة، وكان هذا المكان بمثابة بدء العالم، فهو التل الموغل في القدم، وفوق هذا التل ظهرت المعالم الأولى للحياة إذ سكنت الضفادع والثعابين، وهي من الكائنات التي تتفق مع ما يغمر هذا المكان من ظلام ورطوبة، وظهر شيء آخر فوق هذا التل وهو بيضة طائر مائي خرجت منها أوزة استحال بخروجها الظلام الدامس إلى نهار ساطع، فهي الشمس كما أشرنا من قبل التي طارت سائحة فوق العالم[٤] فالشمس في اعتقادهم الإله الذي يفيض على العالم الحياة ويصفونه في أناشيدهم بالإله الأزلي الخالد، فقد جاء في أنشودتهم (إنه سيد جميع الآلهة الأزلي الواحد الخالق لكل شيء، والسيد المسيطر الذي لم يكن

---

(١) الأدب والدين عند قدماء المصريين تأليف أنطون ذكرى ص٧٠.

(٢) ديانة قدماء المصريين، ص٢٩.

(٣) ما قبل الفلسفة، تأليف فرانكفورت ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، ص٦١.

(٤) ديانة مصر القديمة تأليف أدولف أرمان ترجمة عبد المنعم أبو بكر ص٧٢ ـ ٧٣.

قبله شيء، بل هو موجود قبل كل شيء وهو قرص الشمس الذي يحيى جميع البشر بظهوره)[١]، ففي هذا المكان وفوق الأكمة الطينية، خلق الإله ـ الشمس ـ كما يعتقدونه جميع الكائنات الأخرى[٢].

ومما يبدو من عقيدتهم حول خلق الكون، أن المبدأ الأول الذي تكون منه الكون هو الماء الأزلي الذي احتوى على عاملي الذكر والأنثى وبرز إله الشمس بنفسه فولد منه إله الأرض وإله السماء، وأنهما كانا شيئاً واحداً في بادىء الأمر ثم فصل بينهما فأصبحت السماء فوقاً والأرض تحتاً، وأن الشمس تسبح في سفينة فوق ظهر (نوت) ومعها الآلهة، وكانت هذه العقيدة الوثنية قد هيمنت على حضارة مصر القديمة ونظروا إلى عناصر الكون نظرة تقديس، وأن الشمس رمز محسوس للإله الواحد الأحد المتفرد بالخلق في الأرض والسماء[٣].

وقد أوضح هذا الأمر (جون ولسن) في كتابه الوسوم (الحضارة) إذ يقول: (أن أتوم كان الكل في نفسه، فلهذا خلق الآلهة الآخرين من نفسه، وظهروا في الوجود عندما كان يذكر أعضاء جسمه، حيث إنه نطق باسم لم يكن قد نطق به من قبل كان هذا الاسم في حد ذاته عملاً من أعمال الخلق[٤].

ولدى المصريين فكرة أخرى حول الخلق وهي الخاصة بالكلمة، (في

---

(١) الأدب والدين أنطون ذكرى ص٦٧.

(٢) الديانة الفرعونية أفكار المصريين القدماء عن الحياة الأخرى تأليف: السير ولسن بدج ترجمة يوسف سامي طبعة أولى ص٦٣.

(٣) عباس محمود العقاد: الله ص٦١.

(٤) جون ولسون: الحضارة المصرية ترجمة أحمد فنحري مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٨٥، ص١١٧.

البداية كانت الكلمة) إذ شعر روح الماء بالرغبة في الفاعلية الخلاقة ونطق بالكملة، فقفزت الكلمة فوراً إلى الكينونة على الهيئة التي سبق لها أن تشكلت في عقل الروح قبل أن ينطق بالكملة التي أثمرت المخلوقات وكان فعل الخلق الثاني تكوين جرثومة أو بيضة، ومنها انبثق إله الشمس على شكل شعاعة تجسدت القدرة الفائقة للروح المقدس[١].

يقول المؤرخ الكبير برستيد: (أن عقيدة فتاح[٢]، هي أساس مذهب الخلق بالكلمة عند الإغريق الأقدمين، فلا حاجة بالخالق إلى أداة للخلق، غير (أن يشاء ويأمر) فإذا بما شاء موجود كما شاء)[٣].

ومما يبدو من نظرة المصريين إلى الكون أن هناك وحدة بين الخالق والمخلوق، والمادة الأزلية مؤثرة في حياة الإنسان وأن عامل الخوف موجود عند المصريين وخاصة الفلاحين منهم وكانوا يعبدون الرياح، والرعد، والبرق توقياً من شرهم ورأوا أن هناك صراعاً بين إله النور وإله الظلام والليل والنهار قبل توحيد شطري مصر (الصعيد ودلتا)، وكان ذلك من أهم مظاهر الصراع بين عناصر الكون، الأرض والسماء، فأصبحت الشمس رمزاً للحياة والنور، والظلام رمزاً للموت والشر، ولهذا تعلقت أخيلة الشعراء بالشمس وبدأوا يتغنون بها.

ويفرض سؤال نفسه حول عقيدة التوحيد لدى المصريين هل عرف المصريون القدامى عقيدة التوحيد.

---

(١) الديانة الفرعونية ص٦٤.

(٢) أحد الآلهة عند المصريين.

(٣) عباس محمود العقاد: الله. ص٦٢.

لم يعرف المصريون حتى التوحيد الإقليمي، بل كان لكل إقليم إله ولكل مدينة إله يمثل مظهراً من مظاهر الطبيعة[١]، وقد دل القرآن الكريم على أن المصريين كانوا وثنيين، وأما ما يشير إلى الوحدانية في أناشيدهم إنما يقصدون بذلك الإله شمس، والبرهان على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾[٢]، والدليل الثاني على وثنية المصريين، نقوشها البارزة، وصور معابدها وآثارها، وكان شأنهم شأن جميع الشعوب المتحضرة في حينه، وعرف عنهم الوحدة السياسية ولم يعرف عنهم الوحدة الدينية. ولكل إله الطبيعة الكونية لدى المصريين القدماء مكانة تزيد وتنتقص حسب الظروف والبيئة المحيطة بهم.



(١) مقارنات الأديان/ الديانات القديمة تأليف محمد أبو زهرة ص٧.

(٢) يوسف: ٣٧.

الفصل الثاني

الكون في منظور سكان وادي الرافدين

فكر سكان العراق الأقدمون السومريون منهم والبابليون والآشوريون بقضية أصل الوجود والأشياء، كما فكر غيرهم من البشر بها في جميع الأزمان، وكانت قضية الوجود من أصل الآلهة وخلق العالم والإنسان، وعالم الحيوان والنبات تنتظم تحت موضوع اللاهوت بوجه عام، فنشأ عن كهنتهم وأصحاب الرأي والمعرفة منهم مذاهب وعقائد مختلفة حول أصل الوجود، وسجلوا هذه الآراء بهيئة ملاحم وأساطير من الآداب الدينية ودونوها على ألواح الطين. إلا أن كثيراً من هذه الألواح البابلية والسومرية ضاعت ولم تصل إلينا كاملة، وما عثر عليها في قسم منها خرم، وتتلخص قصة الخلق عند البابليين حول أصل الوجود في التركيز على المادة الأولية والأساسية للكون وفيما يلي نتناول عقائدهم وآراءهم حول الكون.

فالكون عند سكان العراق القدامى هو كل ما في الوجود، بل وكل ما يمكن أن يعد شيئاً ذاكيان كالبشر والحيوانات والجمادات والظواهر الطبيعية، وكذلك الأفكار المجردة ـ كالعدالة والاستقامة وغيرهما[١]، وكانوا ينظرون إلى

(١) ما قبل الفلسفة تأليف فرانكفورت ترجمة جبرا إبراهيم جبرا يطلب من مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر ص١٥٨.

الكون كلاً متماسكاً، ورمزوا بـ(ان an ـ وكي ki) السماء والأرض ويمكن تجزئته بموجب الفكر السومري إلى جزأين:

١ ـ الجزء السماوي: ويتكون من سماء وفضاء فوقها، ويعني (an) في السومرية (العلى) حيث تسكن الآلهة السماوية.

٢ ـ الجزء الأرضي: حيث تعيش آلهة العالم الأسفل، وكما هي مستقر الأموات[١].

ولم يعرف عن تصورات هؤلاء علماً منظماً للكون يتكلم عن مشاكل الكون الأساسية لدى سكان ما بين النهرين حتى النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد وعندئذ يظهر في أسطورة ضخمة تدعى (أيمونا ايلش) أي (عندما كان في الأعالي)، ومحتويات الأسطورة تكاد تكون في جزأين، يعالج الجزء الأول منها أصل معالم الكون الرئيسية، ويروي الثاني كيفية تأسيس نظام العالم الحالي، فالحوادث في قسم الأسطورة الثانية يشار إليها في حوادث القسم الأول وتتداخل أحياناً بينهما[٢].

تستهل الأسطورة بوصف الكون عندما كان في بدء تكوينه وتقول:

عندما في الأعالي لم يكن للسماء أي ذكر

ولم يخطر بالبال اسم لليابسة تحتها

وعندما لم يكن إلا (ابسو) والدهما

---

(١) من ألواح سومر إلى التوراة تأليف د. فاضل عبد الواحد الطبعة الأولى سنة ١٩٧٩ دار الشؤون الثقافية بغداد ص .

(٢) ما قبل الفلسفة ص٢٠١.

وقمو وتعامت وهي التي ولدتهم جميعاً

يمزجون أموالهم معاً

عندما لم يكن هناك مستنقع ولا جزيرة ولم

يكن قد ظهر أي إله.

ولا سمي إله باسمه، ولا عين له أي مصير

عندئذ تكون الآلهة فيهم. (أي في ابسو وممو وتعامت)[١].

يرى في هذا الوصف أحدث مرحلة من مراحل الكون وهو بعد فوضى من الماء، وكانت هذه المادة الكونية تتألف من ثلاثة عناصر متداخلة:

أ ـ ابسو ـ ويمثل المياه العذبة

ب ـ وتعامت ـ ويمثل مياه البحر المالحة

جـ ـ ممو ـ ويمثل السحب والضباب.

وقد امتزجت هذه الأنواع الثلاثة من الماء في كتلة كبيرة لا حدود لها، ولم تكن قد وجدت فكرة السماء فوق يابسة مستقراً أسفلها، إنما الكل ماء خال عن مستنقع وجزيرة حتى ولا الآلهة، ـ كما يعتقدون ـ والدلالة على خلق السماء والأرض في المعتقدات السومرية، تلك المقدمة التي وردت في قصيدة سومرية تحت عنوان: جلجامش وانكيد والعالم الآخر[٢]، تتألف من الأسطر الخمسة الآتية:

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) من ألواح سومر تأليف صموئيل كريمر ص١٦٠.

بعد أن أبعدت السماء عن الأرض

وبعد أن فصلت الأرض عن السماء

وبعد أن عين اسم الإنسان (خلق الإنسان)

وبعد أن أخذ السماء آن (إله السماء)

وبعد أن أخذ الأرض (انليل إله الهواء)

يبدو من هذه الأبيات الخمسة أن السماء والأرض في بدء خلقهما شيء واحد ملتصقة لا انفصال بينهما، تكونت كتلتهما من الماء.

تقول القصة البابلية حول بدء الخلق:

«في البدء لم تخلق سماء ولا أرض، ولم يكن سوى العماء تمثله المياه الأولى التي تولدت منها الآلهة وجميع الأشياء»[١].

فالماء هو العنصر الأول للخلق في الفكر البابلي سواء أكان هذا الماء مصدر الفعل والحركة أم مصدر الأشياء الجديدة.

ومن هذا يتضح لنا بعد خلق السموات والأرض التصورات الآتية عن الكون:

١ ـ في زمن ما كانت السماء والأرض متحدتين أي شيئاً واحداً.

٢ ـ كان بعض الآلهة موجوداً قبل انفصال السماء عن الأرض.

٣ ـ وبعد انفصالهما كان الإله (آن) إله السماء هو الذي أخذ السماء

---

(١) مجلة سومر م٥ ج١ ١٩٤٩ ص٤.

والإله (أنليل) هو الذي أخذ الأرض[١].

ولكن هناك أموراً لم تذكر ضمن هذه الأبيات ولم يشر إلى القضايا الآتية:

أ ـ هل تصوروا السماء والأرض بأنهما خلقتا؟ وإن كان الأمر كذلك فمن خلقهما؟.

ب ـ ماذا كانت هيئة السماء والأرض في تصور السومريين؟.

جـ ـ من فصل السماء عن الأرض؟

فالجواب على هذه الأسئلة كما اكتشفت في ألواح سومرية كما يأتي:

أ ـ في لوح يعدد الآلهة السومرية ويصف الإله المسمى (نمو) بأنه الأم التي ولدت السماء والأرض، لذلك تصور السومريون أن من مياه البحر الأزلية ولد جبل كوني يمثل السماء والأرض متحدتين[٢].

وقد يسفر ذلك بأنه كان في البدء (مياه البحر) الإله (نمو Nemo) ولكن لم يذكر أي شيء عن أصله أو مولده في النصوص السماوية السومرية، والأرجح أن السومريين تصوروا أن المياه هذه كانت أزلية[٣].

ب ـ وفي أسطورة عنوانها (الماشية والغلة) التي تصف الإلهين الموكلين بالماشية والغلة اللذين أرسلا من السماء ليحلا البركة والرفاهية بين البشر تبدأ بالسطرين الآتيين:

---

(١) الأساطير السومرية تأليف صموئيل كريمر ترجمة يوسف داود عبد القهار ص٦٤.

(٢) من ألواح سومر تأليف كريمر ترجمة طه باقر ص١٦١.

(٣) من ألواح سومر إلى التوراة ص٢٤٦.

في جبل السماء والأرض

ولّد الإله(آن) إله السماء آلهة الأنانوكي[١].

ولو رجعنا إلى السطر الأول من أسطورة (الماشية والغلة) فإنه يبدو أن القوم تصوروا الأرض والسماء المتحدتين على هيئة (جبل) قاعدته قعر الأرض وقمته أعلى السماء.

وفي قصيدة تصف خلف (الفأس) جاء في مقدمتها النص الآتي:

أنليل الذي أخرج بذور البلاد من الأرض

أراد أن يبعد السماء عن الأرض

وأراد أن يبعد الأرض عن السماء

يبدو من هذه الأبيات أن الإله (انليل ـ الهواء) فصل السماء عن الأرض بعد أن كانا متحدتين، واختص أبوه الإله (آن) بالسماء وحملها انليل وأخذ أمهُ الأرضَ، وهيأ اتحاد انليل مع أمة الأرض لتنظيم الكون، والحياة عليها ـ الإنسان والحيوان والنبات وأسس المدينة[٢].

وقصة التكوين هذه تتفق تماماً مع قصة الخليقة البابلية التي نشأت بعد السومريين، وتأثرت بمعتقداتهم، إذ تذكر القصة أنه لم يكن سوى المياه الأزلية (ابسو) المياه العذبة المذكر، و(تيافة) المياه المالحة المؤنث، ومن امتزاجهما ولد الجيل الأول من الآلهة ثم الثاني ثم الثالث[٣]. والماء في أسطورة الخليقة

---

(١) المصدرين السابقين نفسهما.

(٢) من ألواح سومر كريمر ص١٦٣.

(٣) من ألواح سومر إلى التوراة ص٢٤٦.

البابلية أصل الوجود، وأن السماء والأرض تكونتا نتيجة لعملية انشطار جسد (تيامة) الماء المالحة حيث قصدها الإله (مردوخ) فقطع رأسها ثم قسم جسمها قسمين، جعل النصف الأعلى منه سماء، ومن نصفه الأسفل منه أرضاً ونظم في السماء بروجها ومناطقها ومواضع الآلهة، وبروج الكواكب، ووقت الأوقات والفصول[١]، وقد اتفقت هذه القصة مع أسطورة مصر القديمة في أن أصل الكون في البدء كان ماء أزلياً وتكوّن منه الوجود، وأن السماء والأرض كانتا كتلة واحدة وفصلهما إله الهواء.

أما تصور البابليين والسومريين عن الأجرام النيرة، فإنهم عدوا القمر إلهاً، ويعرف باسمين (سين) و(ننا) ابن الإله الهواء (انليل) وأنه هو الجرم المشرق الشبيه بالهواء، وتكون بطريقة ما من الجو، وأن الشمس هي الإله أيضاً المسمى (آوتو) الإله (الزهرة) واسمها (أنانا) وأنهما ولدي الإله القمر، ويحتمل أنهم تصوروا هذين الجرمين النيرين بأنهما خلقا من القمر بعد أن صنع هذا الجرم بدوره من الجو ويصدق هذا التصور والاعتقاد على بقية الكواكب والنجوم التي توصف وصفاً شعوياً بأنهما:

من الكبار الذين يسيرون حول، القمر كالثيران الوحشية

والصغار المنتشرين حول القمر كالحبوب[٢].

---

(١) مجلة سومر م٥ ج١ ص٤.

(٢) من ألواح سومر ص١٦٣.

خلق الإنسان

من الموضوعات التي تناولتها السومرية والبابلية على حد سواء قصة خلق الإنسان، إذ نفهم من أسطورة سومرية يعود زمن تدوينها إلى الألف الثالث ق.م، محتواها:

(أن الآلهة أصابها الجوع بعد أن تكاثرت وزاد عددها، وأن الإله (نمو) الأم لكل الآلهة جاءت إلى ابنها (انكى) إله المياه، وطلبت منه أن يخلق عبداً للآلهة ينتج لها طعاماً، وكان جواب أنكى: أن الأمر ممكن، وأن عليها أن تأخذ شيئاً من الطين (في وسط مياه العميق) وتخلق منه الإنسان، وأن الإله أنكى أقامت دعوة للآلهة للاحتفال على ما يبدو بخلق الإنسان، وأن الآلهة احتاجت إلى الخبز واللبن حتى بعد أن تم خلق (لخار) إله الماشية، و(أشنان) إله الحنطة، وأنها خلقت الإنسان ليهتم بزرائب الماشية ولتتمكن هي من التنعم بمزيد من الأكل والشراب.

وفي قصة الخليقة البابلية وقصة الطوفان لـ(اتراخاسيس) أنه جيء بعد ذلك بالإله (وي ـ ايلا). أحد الآلهة لدى البابليين، فذبح أمام الآلهة، فمزج الإله (ننتو) دمه ولحمه بالطين وخلقت منه الإنسان، وتقول القصة:

وذبحوا في مجلسهم (وي ـ ايلا) الذي كانت له[1]

ذات[2] ـ ومع لحمه ودمه

مزجت (ننتو) الطين

ثم استمعوا إلى الطبل لما تبقى من الوقت

فكانت روح من لحم الإله

---

(١) أو الإله المذهب (كنكو) وقدموه للإله (ايا) فاهدر دمه، وخلق الإنسان من دمه والتراب ليعبدها.

(٢) سقط النص من القصة.

ونودي بالإنسان الحي رمزاً لها[١]

وخلاصة ما جاء في خلق الإنسان عند السومريين والبابليين:

أ ـ أن الإنسان خلق من طين أو من طين ودم حسب المآثر البابلية

ب ـ أن الإنسان خلق لغاية أن يعبد الآلهة ويقيم معابدها ويقدم لها القرابين ويخصها بالنذور.

٣ ـ وأنه خلق من أجل أن يكدح في الأرض ويريح الآلهة من عناء العمل وليقدم لها الطعام[٢].

وأما تصور دولة آكد والإغريق فيما بعد، فإنهم على نفس المعتقدات السائدة عند السومريين والبابليين، وأخذوا من ظواهر الطبيعة إلهاً ثم صارت آلهة الإغريق فيما بعد[٣].

ومما يجلو من عقيدة سكان وادي الرافدين القدامى أنهم جعلوا عناصر الطبيعة إلهاً وأنهم يشبهون البشر في أعضائهم وميولهم وجعلوا من الملوك نواباً عن الآلهة ونسبوا إليهم صفات البشر الروحية والمادية، وهذا ما يعرف بمبدأ التشبيه، ولكن الآلهة تمتاز عن البشر بميزة أنها تتصف بالخلود، وبيدها أقدار الكون وهي في السماء وتعبد في الأرض، وتخلق الأشياء حسب رغبتها، كما جعلوا أحد الملوك إله الهواء أي رمزاً عن الهواء الطبيعي حسب اعتقادهم، فنشأت عن هذه المعتقدات المقيدة الوثنية وكثرة الآلهة.

---

(١) من ألواح سومر إلى التوراة ص٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٢) ينظر من ألواح سومر إلى التوراة ص٢٤٩.

(٣) حضارة بابل وآشور تأليف د. غوستاف لوبون ترجمة محمود خيرت الطبعة الأولى ١٩٤٧، المطبعة المصرية ص٩٢.

الفصل الثالث

الكون في منظور اليونانيين

بدأ فلاسفة اليونان ينظرون إلى الكون نظرات ساذجة حائرة، فيها ومضات من نور الحق في ظلمة من الإبهام والغموض والتناقض والشك والسفسطة، ونقلوا عن أسلافهم أخباراً وثنية مادية مستندة على أخيلة الشعراء والأساطير الشعبية التي تقدمت على النظريات الفلسفية إلى الوجود بزمن بعيد، وتلك القصائد عرضت لكثير من المشاكل الكونية، ثم حاولت حلها بطريقتها الخيالية الساذجة فتكلمت عن نشأة العالم ومنشئه، فقررت أنه الآلهة القادرون، واشتملت تلك الأشعار القديمة على وصف لما يحيط بهم من عناصر الأرض، وتصوير للكواكب ومراكزها والأفلاك ومواقعها. وأسسوا على ذلك التراث الشعري نظرياتهم بعد أن أدخلوا عليه شيئاً من التحوير عند التحري عنه، مثال ذلك (تاليس)[١]، قد أسس نظريته في مبدأ الكون على تلك العقيدة القديمة الواردة في أناشيد الشعراء الكلدانيين، من أن الماء هو الجوهر الأول للكون بتمامه، وقد حام من بعده تلاميذه حول هذه الدائرة.

---

(١) تاليس أحد فلاسفة المدرسة المالطية ولد سنة ٦٤٠ق.م وقيل ٦٢٤ ق.م وتوفي سنة ٥٤٠ق.ق أو ٥٤٦ق.م. وينظر كتاب (الفلسفة اليونانية في عصورها الأولى تأليف د. متي كريم مطبعة الإرشاد بغداد ١٩٦٥ ص٣٧.

فلم يغيروا فيها إلا قليلاً، إذ استبدل بعضهم الماء بالهواء واستعاض عنه الآخر بالماء وهكذا[١].

أصل الكون عندهم:

أن حكماء اليونان ورثوا فكرة المصريين القدماء في نشأة العالم والمبدأ الأول الذي تكون منه الكون، فيرى طاليس أن الماء أصل الوجود[٢]، كما بينا، وهو المادة الأولى التي صدرت عنها الكائنات وإليها تعود، لأن الماء قابل لكل صورة ومنه أبدع الجواهر كلها من السماء والأرض وما بينهما، وهو علة كل موجود وعلة كل مركب من العنصر الجسماني. وقال: إن من جمود الماء تكونت الأرض ومن انحلاله تكون الهواء، ومن صفوة الهواء تكونت النار، ومن الدخان والأبخرة تكونت السماء، ومن الاشتغال الحاصل من الأثير تكونت الكواكب، فدارت حول المركز، والذي حمله على هذا المذهب كما يفرض أرسطو فرضاً قد يقترب من الحقيقة، نشأته على شاطيء البحر[٣] ويرى تلميذه (أناكسيما ندر[٤]: أن الأصل الذي تكون منه الكون هو (المبهم أو اللامتناهي[٥]، وقد ظل هذا اللامتناهي خفي الدلالة إلى عهد أرسطو، ورجح

---

(١) الفلسفة الإغريقية تأليف د. محمد غلاب الطبعة الثانية مطبعة لجنة البيان العربي مصر ج١ ص٢٧.

(٢) قصة الفلسفة اليونانية تأليف أحمد أمين وزكي نجيب محمود الطبعة الثانية ١٩٣٨ مطبعة دار الكتب.

(٣) الملل والنحل الشهرستاني الطبعة الثانية تحقيق محمد سيد كيلاني طبع سنة ١٣٩٥، ١٩٧٥ دار المعرفة بيروت لبنان ج٢ ص٦٣.

(٤) أناكسيماندو (٦١٠ ـ ٥٤٦ ق.م).

(٥) الفلسفة الإغريقية ص٤٠. وينظر الفلسفة اليونانية في عصورها الأولى ص٣١.

أنه كان يقصد به الهواء، وهو وحده جدير بهذا الوصف، وقد اختلفوا من بعده في تأويل هذا اللامتناهي، فذهب بعضهم إلى أن المراد به هو الفراغ الذي لا يتناهى، والذي منه نشأ كل شيء واحتوى كل شيء من الموجودات المحددة[١]. وقد جاء في كتاب قصة الفلسفة اليونانية نقلاً عن أناكسيماندر «أنه أصل الكون مادة لا شكل لها ولا نهاية ولا حدود»[٢]، وحول تكوين السموات والأرض قال: (أناكسيماندر) أن الأرض كانت سائلاً ثم أخذت تتجمد شيئاً فشيئاً، ومن خلال ذلك كانت تنصب فوق الأرض حرارة لافحة يتبخر من سائلها بخار يتصاعد، ويكون طبقات الهواء، فهذه الحرارة عندما التقت ببرودة الأرض كونت الكائنات الحية[٣].

ولكن انكسمين[٤]. يرى أن الهواء أكثر من الماء مرونة وقابلية للتحول، لأنه يبرد فيصير ماء، ويسخن فيصير بخاراً، ثم يزداد تخللاً فيصير هواء[٥]، فزعم أنه لو زاد تخللة لصار ناراً، وكون شموساً وأقماراً، وأن تكثف صار سحاباً ثم ماء، وإن زاد تكثفه انقلب أتربة وأحجاراً، ورأى أنه لازم للحياة فعده أصل الكائنات ويرى فيثاغورس أن العدد أصل الكون، وكل شيء من عناصر الكون هي القانون والنظام والموسيقى، وعنصر هذه الثلاثة جميعاً هو العدد[٦].

---

(١) المصدر نفسه ص٤١.

(٢) قصة الفلسفة اليونانية أحمد أمين ص٢٣.

(٣) المصدر نفسه ص٢٣، ٢٤.

(٤) فيلسوف يوناني ولد ٥٨٥ ق.م وتوفي ٥٢٨ق.م. ينظر كتاب الفلسفة اليونانية في عصورها.

(٥) قصة الإيمان نديم الجسر، ص٢٩.

(٦) الفلسفة الإغريقية، ص٦١.

ويرى هيرقليطس[١]. أن النار هي أصل الكون تحولت إلى هواء ثم تحولت الهواء إلى الماء، والماء إلى اليابس، وقال إن العالم في تغير دائم، ولا يستقر لحظة واحدة، فيكون الشيء موجوداً وغير موجود في أن واحد، والاتحاد بينهما هو الصيرورة التي هي حقيقة الوجود[٢]. لكن امبدوقلس[٣] يرى أن كل ما في الوجود مكون من العناصر الأربعة (النار والهواء والماء والتراب) وهذه العناصر عنده متساوية في الجوهرية الأزلية، والأبدية، فلم ينشأ أحدها عن الثاني. أما الوجود والعدم، فلا حقيقة لهما عنده[٤].

أما السوفسطائيون قالوا إن الطبيعة حاصلة في ذاتها، وأنه لا مدبر لها، ولا عقل يحل فيها ولكن أفلاطون[٥] رد على هؤلاء مؤكداً ضرورة القول بوجود إله صانع، حائزاً بذاته على العلم والتأمل[٦].

ويقرر أفلاطون في النهاية، أن ما يتراءى لنا في السماء من نظم الأفلاك والكواكب يكفي للتدليل على أنها يجب أن تكون صادرة عن عقل إلهي ويؤكد أن الحكماء متفقون على أن العقل هو (ملك) هذا الكون وسيد هذه الأرض، فهو علة وجود عناصر الموجودات الرئيسية وهو الصانع المنظم لكل شيء، ويرتب السنوات والشهور والفصول وأن أركان العالم الطبيعي عنده ثلاثة:

---

(١) ولد سنة ٥٣٥ ق.م وتوفي سنة ٤٧٥ق.م. ينظر الفلسفة اليونانية ص٤٣.

(٢) قصة الإيمان ص٣٣.

(٣) امبدوقليس (٤٩٠ ق.م.ـ ٤٣٠ق.م) الفلسفة اليونانية ص٥٢.

(٤) المصدر نفسه ص٣٣، والفلسفة الإغريقية ص١٠٠.

(٥) أفلاطون (٤٥٩ ـ ٣٣٧ ق.م).

(٦) تاريخ الفكر الفلسفي الفلسفة اليونانية تأليف محمد علي أبوريان، الطبعة الخامسة دار الجامعة المصرية ١٩٧٤م ج١ ص٢١٨.

المادة، المثل. ثم الصانع، وقال: إن المادة خليط من المادة والمكان، وهذه المادة تشبه الشمع الرخو التي تتشكل بحسب ما ينطبع عليها من صور تحاكي المثل الأزلية الثابتة[١].

ويرى أن العالم هو العماء، وفي حالة اضطراب وفوضى، أي عماء بدون نظام، وأما الصانع فهو مصدر النظام الذي يسبغه على المادة المضطربة، فهو يتناول المادة الرخوة بالتنظيم بعد أن تكون قد تعدلت من تلقاء نفسها[٢]، وأن العناصر تؤلف على شكل ما يشبه العلة الصُورية التي يربطها الصانع بالعلل الإلهية.

أما الأجرام السماوية كالشمس والقمر والكواكب، فإن الصانع بعد أن ركبها من النار جعلها مستديرة الشكل مشتعلة بطبيعتها ووضعها في الأفلاك المعدة لها جعل منها نفساً تحركها[٣]، أما الزمن عند أفلاطون فحادث أبدعه الإله بعد أن صنع العالم من مادة أزلية قديمة قدم الإله نفسه، والمادة والإله خارجان عن نطاق الزمن، وبعده وجد الزمن[٤]، وجعل الألوهية بما تهبه من حياة لكل شيء تتخلل في كل شيء حتى الأرض والجماد والكواكب، ولكل منها نفس حية ومن هذه الكواكب صنع الصانع الآلهة الثانوية أو الوسطى لكي تساعده في صنع بقية أجزاء العالم على شاكلته وبما تراه من صور في عالم

---

(١) المصدر نفسه ص٢٢١.

(٢) إلى بطريقة التولد الذاتي دون تدخل قدرة الإله في تكوينه.

(٣) المصدر نفسه ص٢٢٤ وما بعدها.

(٤) فكرة الألوهية عند أفلاطون تأليف مصطفى حسن النشار الطبعة الأولى ١٩٨٤، الناشر دار التنوير للطباعة والنشر بيروت لبنان ص١٩٩.

المثل[١].

ويرى أرسطو[٢] زعيم الماديين أن هناك مادة أزلية قديمة في حالة هيولى، هي علة كل شيء في الوجود[٣]، وقد زعم أن مادته ليست محتاجة لمقوم أو مدبر، إلا أن يدفعها أول مرة، ثم يتركها تدبر نفسها، فالإله عنده معطل بلا عمل سوى أنه يدفع دورة الكائنات أول مرة، وتنتهي مهمته عند هذا الحد، ثم تستمر تلك المادة مضافاً إليها الصورة فتخلق وتصنف أجناس الكائنات وأنواعها[٤].

بيد أن هذا الرأي لا يأتلف مع الحقيقة والواقع، لأن ذلك معناه اثنينية العلة فتكون علة هذا الوجود اثنين لا واحد، وهذا باطل لأمور:

أ ـ لا يجوز أن تتعدد العلل بلا ضرورة، فالعلة الأولى أخلق وأجدر بالوجود.

ب ـ انتفاء الإثنينية تبعاً لسقوط المادة.

ج ـ تعاون سائر قوى الوجود واتحادها وتضامنها على إنتاج نتائج متوحدة لا اثنينية فيها، فلو كان هناك اثنينية لانقسم الوجود في مبادئه وغاياته على نفسه.

وتضاربت نظمه، فالإثنينية عند أرسطو وإثنينية أفلاطون في نظرية المثل

---

(١) المصدر نفسه ص٢١٩. والفلسفة الإغريقية ص٢٥٢.

(٢) أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م).

(٣) كتاب الوجود تأليف السيد محمود أبو الفيض المتوفي طبع سنة ١٩٤٧. ص٦٠ ـ ٦١.

(٤) المصدر نفسه ص٦١.

وغيرهما باطل، لأنها تفرض وجود حقيقتين مستقلتين كعلتين للوجود، الإله المعطل والمادة الخالقة كما عند أرسطو، وهذا الإله والمثل عند أفلاطون[١].

فالكون عند اليونانيين نشأ من مادة أزلية قديمة وجعلوا هذه المادة إلهاً ومبدأ للوجود، وكذلك جعلوا من عناصر الطبيعة إلهاً وخالقاً، ثم انتقلت هذه الأفكار المتولدة لدى مفكري اليونانيين حول العالم وخالقه إلى الحضارة الحديثة بثوب جديد وسيأتي الكلام عليها فيما بعد إن شاء الله، ويتفق موضوع خلق الإنسان مع حضارة مصر القديمة، وحضارة وأدى الرافدين من أن الإله (زوس) خلق الإنسان من رماد جسد (تيثان) بعد أن غضب عليه وأحرقه، لأنه تمرد عليه وكان مكوناً من عنصري الخير والشر[٢].

صورة الكون عند اليونان:

إن صورة الكون عند قدماء اليونان صورة أسطورية كما كانت لدى الأمم القديمة الأخرى، ثم تطورت هذه الصورة عندهم بمرور الزمن، وذلك بربط الحقائق الفلكية بالتصورات الفلسفية، فقد لاحظ أناكسيمندر حركة الشمس والقمر وقال:

(إن هناك أنابيب شمسية وأخرى قمرية تتحرك في القبة الفلكية والخسوف والكسوف يحدثان إذا ما أغلقت فتحات في جوانب هذه الأنابيب)[٣] وتصور الشمس بأنها تمر تحت الأرض. واعتقد الفيثاغوريون أن

---

(١) المصدر نفسه ص٦٣.

(٢) الفلسفة الإغريقية ص٥٥.

(٣) بدائع السماء رحلة مع العلم في رحاب الكون تأليف جيرالد هوكنز ترجمة د. عبد الرحيم بدر طبع سنة ١٩٦٧، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر بيروت ص٧٢.

الأرض كرة، والقبة الفلكية ثابتة والأرض تدور مرة كل أربع وعشرين ساعة، وظهر الأرض يواجه النار المركزية دائماً[١]، ولدى أناكساغوراس[٢] تصور عن نشوء الأجرام الكونية فذهب إلى أن الكون (كان كتلة مختلطة بدون انتظام بهيئة فوضى) وأصبح مركز هذه الكتلة يدور بشكل دوامة اتسعت حتى شمل الكتلة كلها، فانفصل الهواء والسحاب والماء والتراب والأحجار عن بعضها بفعل الدوران، بحيث بقيت الأجسام الثقيلة قرب المركز، وبسبب عنف الدوران استطاع الآثير تحطيم الصخور وقذفها متقدة بعيداً عن الأرض فأصبحت نجوماً[٣]، وذهب أرسطو ٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م إلى أن الأشياء تسقط دائماً تجاه نقطة مشتركة هي مركز الأرض، ولهذا فإنها تتكدس بالقرب من المركز مكونة كرة[٤]، ويحيط بالأرض غلاف الهواء وغلاف النار، فالتراب والماء يتحركان نحو مركز الكون أي نحو الأسفل، والهواء والنار يبتعدان عن المركز، إلا أن كرة القمر يوقفهما،والنار أخف من الهواء ولهذا يبقى الهواء حائماً فوق الأرض وترتفع النار إلى أعلى[٥].

وذهب بطليموس (٨٥ ـ ١٦٥م) إلى أن دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس ممكناً، إلا أنه رفض هذه الحركات بدوافع فيزياوية، وكان الكون عنده محدوداً بكرة النجوم الثابتة.

---

(١) المصدر نفسه ص٧٥.

(٢) أناكساغوراس (٤٨٨ ـ ٤٢٨)ق.م وقيل ولد سنة ٥٠٠ق.م ينظر كتاب الفلسفة اليونانية في عصورها الأولى.

(٣) صورة الكون تأليف مطلب محمد عبد اللطيف منشورات وزارة الثقافة والإعلام ١٩٧٩ ص٢٥.

(٤) بدائع السماء، ص٧٧.

(٥) صورة الكون، ص٢٨.

الفصل الرابع

الكون في منظور الحضارة الفارسية

تأثر الفرس في اعتقادهم حول الكون بالديانات القديمة في مصر وبابل واليونان واتصل تاريخهم باليهود عندما كانوا في بابل، وأثبتوا أصلين اثنين مدبرين قديمين يقتسمان الخير والشر والنفع والضر، يسمون أحدهما النور والآخر الظلام، وبالفارسية (يزدان وأهرمن) ولهم مذاهب حول ذلك، ومسائل المجوس كلها تدور على قاعدتين أحدهما: سبب امتزاج النور بالظلمة.

والثانية: سبب خلاص النور من الظلمة.

ويعتقدون أن النور ـ يزدان ـ أزلي قديم، وأهرمن محدث مخلوق، وقالوا: في سبب خلق اهرمن ـ أن يزدان فكر في نفسه أنه لو كان لي منازع كيف يكون، وهذه الفكرة كانت رديئة غير مناسبة لطبيعة النور فحدث الظلام من هذه الفكرة، وسمي (أهرمن) وكان مطبوعاً على الشر والفساد فخرج على النور[١].

(١) الملل والنحل ـ الشهرستاني تحقيق محمد سعيد كيلان الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان ج١ ص٢٣٣.

ويعتقد الفرس أن أهرمن ويزدان ـ هرمز ـ مولدان لإله قديم اسمه (زروان) فشك في شيء فحدث أهرمن من هذا الشيء، وحدث هرمز من العلم فكانا جميعاً في بطن واحدة، وكان هرمز أقرب من باب الخروج، فنذر السيادة على الأرض والسماء لأسبقهما إلى الظهور فاحتال اهرمن وشق بطن أمه وخرج قبله وأخذ الدنيا، وعز على رزوان أن ينقض عهده فقرر تحديد موعد لهذه السيادة على أن ينتهي بعد تسعة آلاف سنة، يصبح الحكم لهرمز خالداً بدون انتهاء، وينتهي إليه الشر ويسود الخير والضياء[1]، وزعموا أن مملكة النور ومملكة الظلام كانتا قبل الخليقة منفصلتين، وأن هرمز طفق في مملكته يخلق عناصر الخير والرحمة، وأهرمن غافل عنه في قراره السحيق، فلما نظر ذات يوم ليستطلع خبر أخيه، وجد أن الخير ينتشر فلا يترك ملاذاً له، فثار وثار معه خلائق الظلام وهي الشر والفساد، وران هذا البلاء على الكون إلى زمن. زرادشت فكان البشير بابتداء زمان وانتهاء زمان[2].

أما بشأن خلق الكون عند الفرس، فيرى في رواية الخليقة عند زردشت: أن هرمز خلق الدنيا في ستة أدوار، فبدأ يخلق السماء ثم خلق الماء، ثم الأرض، ثم خلق النبات، ثم خلق الحيوان وأخيراً خلق الإنسان[3]، وأن المجوس يفرقون بين خالق الطيبات وخالق الخبائث، فالأشياء النافعة من خلق

(١) الألوهية وفكر العصر تأليف حامد عوض الله، مركز الثقافي الجامعي القاهرة ـ سلسلة الدراسات العلمية ص٢٣ ـ ٢٤.

وينظر كتاب إبليس ـ عباس محمود العقاد ص٧٩.

(٢) الله كتاب في العقيدة عباس محمود العقاد دار المعارف بمصر ١٩٤٧.

ص٨٨، وقصة الأدب في العالم تأليف أحمد أمين وزكي نجيب محمود ج١ ص٦٩.

(٣) العقاد، الله، ص٩١.

الإله هرمز، والأحياء الضارة من خلق إله الشر[١]، فالشمس في عقيدة الفرس تمثل روح (اهور امزدا)[٢] في صورة يستطيع الناس إدراكها لما امتازت به من صفات تشبه صفات المبدأ الأول، إذ هي كائن مشرق يفيض الخير على جميع الكائنات ويبعث فيها الدفء والنشاط[٣] وكان الفرس يعبدون الشمس لأنها مبدأ النور والحرارة، ومصدر الفكر والحياة[٤].

وقال زردشت: (النور والظلمة أصلان متضادان وهما مبدأ موجودات العالم وحصلت التراكيب من امتزاجهما، وحصلت الصور من التراكيب المختلفة، والباري تعالى خالق النور والظلمة)[٥].

أن العالم في الكتب الفارسية تسوده فكرة الثنائية، فالوجود مزيج من عنصري الخير والشر وهما مبدآن موجودان منذ الأزل، وكان الإله آهورامزدا مشرقاً بنوره ومن كلمته الإلهية خلق العالم بما فيه[٦]، ونص زردشت. أن للعالم قوة إلهية هي المدبرة لجميع ما في العالم، والإله عند زردشت عبارة عن مجموعة السموات والأفلاك، وأهورامزدا في رأيه يكتسي بقبة السماء الزرقاء وجسده هو النور والشمس والقمر هما عيناه وناظراه[٧]، ولكن هناك نصوص

---

(١) قصة الأدب في العالم ص٦٩.

(٢) هو إله الخير (هرمز).

(٣) الله: العقاد ص٩٥ ـ ٩٦، والأديان دراسة مقارنة تأليف رشدي محمد عليان ص١٢٦.

(٤) تاريخ الفلسفة من أقدم عصورها إلى الآن تأليف حنا أسعد فهمي المطبعة اليوسفية مصر ص١٢.

(٥) الملل والنحل ج١ ص٢٣٧.

(٦) قصة الحضارة الفارسية تأليف ول دورانت عربه إلى العربية د. إبراهيم أمين الشواربي طبع سنة ١٩٤٧ مطبعة السعادة بمصر ص٤٢ وتاريخ الفلسفة من أقدم عصورها إلى الآن ص١٢.

(٧) قصة الحضارة الفارسية ص٤٢.

في كتابه(زنداوستا) تدل على التوحيد، ولكن اختلطت عقيدة التوحيد هذه بعبارة عناصر الطبيعة، واتخذ الفرس منها ومن عناصر الكون آلهة لهم، ومما يتعلق بخلق الإنسان يشترك مع المعتقدات البابلية والمصرية من أنه خلق من دم الإله، إذ خلق رجلاً يقال له كيومرث وحيوان يقال له ثور فقتلهما فنبت من مسقط ذلك الرجل (ريباس) وخرج من أصل ريباس رجل يسمى ميشه، وامرأة تسمى ميشانة، وهما أبو البشر، ونبت من مسقط الثور: الأنعام وسائر الحيوانات[١].

أما حضارة الهند فلا تحيد عن هذه الحضارات المذكورة في المبدأ الوثني وإحلال مبدأ الخير والشر وجعل الطبيعة وعناصرها إلهاً، وكان البرهمية الهندية يرون أن الكائن قبل الوجود في فضاء لا نهائي فصاح بشوق ورغبة، فبقوة شوقه وإرادته خلق العالم وحفظ لنفسه اسم برهمة الخالق، ثم وجد الإله (سيوه) المخرب فيه تجف الأوراق وتحل الشيخوخة محل الشباب، وتبتلع البحر مياه النهر تفنى أيام السنة وتنقضي[٢].



(١) الملل والنحل ج١ ص٢٣٤.

(٢) تاريخ الفلسفة من قدم عصورها إلى الآن، ص٩.

الفصل الخامس

النظام الذي بنى على تلك الأفكار

إن المتتبع لأفكار الإنسان في الحضارات الأولى يجدها أفكاراً وثنية في شتى أنحاء العالم، كما في مصر ووادي الرافدين واليونان والصين والهند وفارس وغيرها، وهي تقوم على تعاليم أسطورية عن العالم وعن الحركة العامة في الكون.

فالصياد الذي كان يجوب القفار، والبحار أو البدوي الذي كان يسكن الصحارى، والمدني الذي يعيش في المدن والقرى أو على سواحل الأنهار والبحار قديماً كانوا وثنيين فالوثنية الأولى كانت تعتبر أطول فترة في التاريخ، فهي ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ، ولا تزال رواسبها باقية إلى اليوم هنا وهناك في بعض أرجاء المعمورة.

غير أن الإنسان في العصور القديمة استطاع أن يربط بين حركته العامة في الوجود وبين مظاهر الكون، والتي كان يتعبدها رهبة منها أو رغبة فيها ويركن بالتالي لقدره وحاضره ومستقبله في عالمه، واستطاع أن يدخل في ميزان الأشياء ومعقوليتها فعرف الحياة والجدل في السراء والضراء، وأن وقائع تجارب الإنسان الطويلة القديمة والمتعددة في هذه الوثنية دلت على مجموعة من الأفكار عن العالم، مثل مجموعة الطقوس التي صار الإنسان يخضع لها

حياته العامة في الوجود وكذلك الخبرات العلمية التي اكتسبها الإنسان من أجل تأمين احتياجاتهم وسد متطلبات بقائهم وفيما يلي نوضح دعامة النظام الحضاري في العصور القديمة:

لقد قامت الحضارة البابلية على دعامتين واقعيتين هما:

الديانة المتجددة والتشريع الشعبي، إذ رفعت تعاليم الكهنوت البابلي ولا سيما قصيدة الخلق البابلية، الإله (مردوخ) إلى مصاف الآلهة الكبرى السومرية (آنو وأنليل، وشمس) كما جاء قانون حمورابي يربط فئات الشعب نفسها بالنظام والقانون، وارتبطت المجادلات الشعبية بواقع الحياة[١]، ويرى العراقي القديم أن أصل النظام الكوني في صراع دائم بين مبدأين هما: القوة الدافعة للحركة، والقوة الدافعة للسكون، وفي هذا الصراع يتحقق النصر الأول على السكون، للسلطة فقط، ثم يتحقق النصر الثاني وهو الحاسم للسلطة مرفقة بالقوة، وهذا يعكس في نظرهم تطوراً تاريخياً من التنظيم الاجتماعي البدائي الذي لا يملك إلا العرف والسلطة دون دعمهما بالقوة لضمان العمل الجماعي من قبل الجماعة لتنظيم الدولة الحقيقية التي يتمتع بها الحاكم بالسلطة والقوة لتأمين الأمن الذي لا بد منه[٢]، وبناء على علاقة نظام الكون بنظام الحكم في المجتمع السومري جعلوا نظام الحكم شديد الصلة بالدين مما دفع أهل كل مدينة أن يختاروا لهم ملكاً أو كاهناً يستقلون به، وكذلك تعلموا من مبدأ الصراع بين قوة الحركة المتمثلة في النهار والسكون المتمثلة في الليل الاشتغال بالتجارة حتى نمت بين مدنهم مما جعل الانفصال بين هذه المدن أمراً متعذراً فنشأت منها جميعاً إمبراطورية استطاعت فيها شخصية قوية أن تخضع المدن

---

(١) برهات تاريخية تأليف عدنان بن ذريل طبع سنة ١٩٧٣ دمشق، ص٢٣.

(٢) ما قبل الفلسفة ص٢٠٤.

والملوك لسلطانها، وأن تؤلف من هذه المدن وحدة سياسية واقتصادية.

اعتقد السومريون والبابليون أن الملك نائب عن الإله ينفذ أمره وحكمه ويمثله في سلطانه ويحيط به جو من العنف شبيه بما كان يحيط الملوك في عصر النهضة الأوروبية[١].

وقد اكتسب القانون في المجتمع السومري والبابلي صفة قدسية يعزى عادة إلى الإله (شمس) إله العدالة، وكان الناس يجدون في ظله ما ينظم قضاياهم إذ كان يهديهم إلى الحق والصواب، قال المشرع حمورابي في آخر قانونه: (في قلبي حملت أرض سومر وأكده وبحكمتي قيدتهم حتى لا يظلم الأقوياء الضعفاء، وحتى ينال العدالة اليتيم والأرملة فليأت كل إنسان مظلوم أمام صورتي، وليقرأ النقش الذي على أثري وليلق بإله إلى كلماتي الخطيرة، ولعل أثري هذا يكون هادئاً له في قضيته ولعله يفهم منه حاله)[٢].

وقد كان البابليون حين جدد وادياتهم أقاموها على الأسس القديمة وجعلوا الآلهة القديمة تعترف بـ(مردوخ)، وأصبح هو كل السلطة الإلهية المهيمن على الحياة والمقرر لكل مصير، كما أصبح (نابو) ولده إله القدر وحامل الألواح الذي سوف يقاسمه عمله، وقد تفتحت طاقات البابليين على الحياة والواقع، وراح يستفيد من فرص الأمن والسيادة فيحقق حضارة كانت من أسمى حضارات العالم القديم.

أما حضارة مصر القديمة فقد أنشأت على أساس العقيدة السائدة في وادي النيل، باعتبار أن الملك هو الإله الذي ينفذ حكم السماء، وهو المسيطر

---

(١) قصة الحضارة ول ديورانت ج٢ ص٢٦.

(٢) البرهات التاريخية ص٢٤.

على شؤون البلاد، والحاكم المطلق لرعيته، وكانت حكومة هذا الوادي من أحسن الحكومات نظاماً وأطورها حياة في التاريخ بالنسبة إلى الحكومات الأخرى آنذاك، فحدث بين سكان وادي النيل على مر العصور أنواع شتى من النظم والتقاليد التي دعت إلى تنظيم المجتمع ونشر سيادة القانون وتنظيم العلاقات وبث الأمن بين الأفراد والحد من نشاط الجريمة، كالقتل والسرقة واقتراف أي عمل إجرامي آخر[١].

وكان الملك يعد أساس البناء الذي يدعم كيان بلده وشعبه ويحرص على رفاها كحرصه على العدالة بين أفراد الشعب، وجعل الملك قصره مركزاً لإدارات الشعب وحكام الأقاليم وأن حكام الأقاليم كانوا يشرفون على الزراعة وجمع الضرائب وتحقيق العدالة نيابة عن الملك وكان الوزير رئيساً لأشغال الملك، ورئيس إدارات الأموال والسلاح، كما كان رئيس القضاء الأعلى، وقد كانت السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية موزعة بين الملك ووزيره، وكان الوزير هو الكاهن الأول في الدولة، كما كان حاكم المقاطعة هو كاهنها فيها.

لقد كان الكهنوت المصري القديم حتى آخر العصور الفرعونية عاملاً مسؤولاً عن واقع الدولة نفسها، وذلك بفعل المناصب الوزارية والإدارية الكبرى التي أنيطت به، فضلاً عن أعماله الدينية والتربوية[٢].

وهكذا يظهر أن سكان مصر كبقية سكان الحضارات القديمة بنوا نظامهم على أساس العقيدة الوثنية التي ينفذها الملك نيابة عن الآلهة، ويربطون واقعهم بواقع الكون وأحداثه ويسعون لتحقيق العدالة في مجتمعهم.

---

(١) ديانة مصر القديمة ص١٧٧.

(٢) برهات تاريخية ص١٦.

أما حضارة اليونان التي تأثرت بحضارتي وادي الرافدين ووادي النيل، فقد تعود إلى أساس عقيدتهم الوثنية التي تأسست عليها ديانتهم ورغم أن أكثر ملوك اليونان ينتسبون إلى الآلهة زيوس أو أبو زيدون أبو هرقل أو غيره ليدعموا مراكزهم في المجتمع إلا أن واقع الحياة سرعان ما كان يتكشف عن النقيض، ويدفع الشعب إلى أن يتشكك في جدوى هذه الخرافات وقيمتها في الحكم والعدالة.

واستفاد اليونانيون من خبرات الأمم والشعوب المجاورة لهم حيث أصبحت عامل القفز والتوثب والصراع للوصول إلى ركب الحضارة العالمي آنذاك[١].

إلا أن الواقع الإنساني في بلاد اليونان كان يسند تجربته الوجودية الواقعية إلى حركات إصلاحية مدنية واجتماعية وسياسية أكثر مما يعيدها إلى حركات دينية يكرس فيها تعليماً من تعاليم الكهنوت كما كان في مصر وبابل وسومر، وقد بذلت محاولات عدة لتنظيم الكهنوت أو تدعيم مشاركته في الحياة، إلا أنه لم تسفر عن نتيجة، فقد راحت المجالس والمؤسسات الشعبية تنافسه سلطته على النفوس وسيطرته عليها، وتقدم الحلول المناسبة للتغلب على مشاكل الحياة والحركة العامة للوجود ومتطلباتها، وسنوا لذلك تشريعات إلا أن الحاكم لا يتقيد كثيراً بهذه التشريعات، مما أدى إلى اندلاع ثورات شعبية وانقلابات يحاول من يجاورونهم التدخل في هذه الثورات لصالح أصدقائهم والماشين في ركابهم والتخلص من جورهم.

وكل ما ينتج عن هذه الحضارة الوثنية من معتقدات وعادات هو التحرر

---

(١) المصدر نفسه، ص١٧.

من حكم الكهنوتي وتنظيم الحياة وضمان حقوقها وخاضت الإرادة الشعبية من أجل حقوقها أشق الصراعات حتى ظهرت الإرادة الشعبية للنور وبرزت جوانب من حقوقها كانت فيما مضى فارقة في الحكم اللاهوتي والوثني القديم[١].

ولا يختلف نظام الحكم في حضارتي فارس والهند عن سابقيهما إذ كان الملك ينفذ حكم الإله، وكان كل ما فعله يعد حقاً يضحى من أجله وتم بناء تلك الحضارة على أساس تمدد الآلهة والوثنية التي دامت حقباً من الزمن مما يبدو فيما مضى أن الحضارات القديمة اتفقت من حيث المبدأ والقانون، وإن اختلفت من حيث التطبيق، فكلها وثنية، وأن الملك ينفذ حكم الإله، وله حق التصرف وحده دون منازع.



(١) المصدر نفسه، ص١٣٤.

الفصل السادس

الكون في التوراة والإنجيل

الكون[1] في التوراة:

التوراة أحد الكتب السماوية المنزلة قبل نزول القرآن الكريم أنزلها الله تعالى على سيدنا موسى عليه السلام ليهدي بني إسرائيل إلى الإيمان بالله عز وجل وينقذهم من الوثنية ومن فرعون وعمله، ويرشدهم بها إلى معرفته جل وعلا وتوحيده وعبادته.

لقد تناولت التوراة قصة خلق الكون والإنسان ابتداء من بدء الخليقة إلى أن أخذ شكله النهائي، ولم يكن الحديث عن الكون حديث النشأة وجديد العهد عند بني إسرائيل، بل كان قدماء المصريين والبابليين وغيرهم ممن سبقهم، لهم تصورات وكتابات مدونة على رقيم الطين والجريد وسجلوا أفكاراً متباينة حول الكون ونشأته وعدد السموات والأرض يقول ابن الأجدابي[2]: «تصور أهل بابل في القديم السماء سبع سموات طباقاً بعضها فوق بعض،

---

(١) المصدر السابق، ص١٣٣.

(٢) إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله الأجدابي نسبه إلى أجدابية توفي نحو ٤٧٠هـ - ١٠٧٧م. الإعلام ١/ ٢٥.

وجعلوا في كل طبقة منها أحد الكواكب السيارة، وجعلوا كل كوكب في سمائه كأنه الرب الساكن فيها، وقد شاع هذا الرأي في بابل وانتشر عند الأمم الأخرى القديمة كاليونان والسريان وغيرهم، وكذلك أخذ به العرب في جاهليتهم نقلاً عن أهل بابل»[١].

بيد أن التوراة صححت للبابليين واليونانيين المفاهيم الخاطئة التي ورثوها عن الحضارات السابقة، ولكن بقيت روايات التوراة حقباً طويلة بعد وفاة موسى عليه السلام تتناقل تعاليمها مشافهة، دون أن تدون في كتاب خاص، واستغرق تدوينها بعد ذلك قروناً عديدة، إذ أن العلماء مجمعون على أن أقدم ما كتب من أسفار التوراة هما القصتان المتشابهتان المنفصلة إحداهما عن الأخرى في سفر التكوين، تتحدث إحداهما عن الخالق باسم (يهوة) والأخرى تتحدث عنه باسم (الوهيم) ويعتقد العلماء أن القصص الخاصة بـ(يهوة) كتبت في مدينة (يهوذا/ قدس) وأن القصص، الخاصة بـ(الوهيم) كتب في مدينة (افرايم/ نابلس) ولما عاد العبرانيون إلى أورشليم من موطن سبيهم في بابل، كتبوا قصة خلال حقبة من الزمن تتعلق بالدنيا، وما لبثوا أن أحدثوا فيها من التعديلات ما يجعلها تلائم فكرتهم في الوحدانية، وتؤيد فكرة العطلة في اليوم السابع من أيام الأسبوع، تقول التوراة «لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع لذلك بارك رب يوم السبت وقدسه»[٢]، ومن يقرأ نصوص التوراة يتضح له ما حرفه الكهنة من

---

(١) كتاب الأزمنة والأنواب، تأليف أبي إسحاق إبراهيم بن إسماعيل المعروف بابن الأجدابي المتوفى نحو سنة ٤٧٠هـ ـ ١٠٧٧م حققه د. عزة حسن، ص١١.

(٢) سفر الخروج ٢٠ :١١.

نصوصها وما أدخلوا فيها ما يتلائم مع ما ورثوه واخترعوه من الطقوس وما يخدم سياستهم، فلو طالعنا سفر التكوين من بين أسفار التوراة واخترنا منه قصة خلق الكون نجد أنها سردت قصتين تختلف إحداهما عن الأخرى كما بينا حول المادة التي جبل الله منها الخليقة[١]، ففي القصة الأولى نجد الماء هو العنصر الأول تقول التوراة: «وروح الله يرف على وجه السماء»[٢]، وقد قال بذلك المصريون والكلدانيون والفينيقيون والهنود والإغريق وغيرهم، وتقول أيضاً «وقال الله لتفض المياه زحافات ذات نفس حية وليطر طير فوق الأرض وعلى هذا وجه جلد السماء فخلق الله التنانين العظام وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذي جناح كجنسه[٣]، أي أن الله خلق كل شيء حي من الماء.

أما القصة الثانية فتذكر أن الله خلق كل شيء حي من الطين تقول التوراة: «وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء»[٤]، ولو قارنا بين القصتين لوجدنا الخلاف ظاهراً بينهما فيما يتصل بالترتيب الذي اتخذه الله في خلق الكون خلال ستة أيام كما يلي:ـ

---

(١) اليهودية في العقيدة والتاريخ تأليف عصام الدين حفني ناصف طبع سنة ١٩٧٧، دار العالم الجديد القاهرة، ص١٤٤ ـ ١٤٥.

(٢) سفر التكوين ١ ـ ٢.

(٣) سفر التكوين ١: ٢٠ ـ ٢١.

(٤) سفر التكوين ٢: ١٩.

القصة الأولى: كتبها الكهنة بعد السبي البابلي بعد موسى عليه السلام بسبعة قرون.	القصة الثانية: وهي أقدم عهداً من الأولى بثلاثة قرون.
١ ـ خلق السموات والأرض والنور والظلمة.	خلق السموات والأرض.
٢ ـ خلق الجلد وجعل بعض المياه فوقه وبعض المياه تحته.	كان ينبثق من الأرض ضباب يسقي أديمها.
٣ ـ اجتمعت المياه التي تحت الجلد في البحار فظهرت اليابسة ونبتت الأعشاب والأشجار المثمرة.	خلق من التراب إنساناً أسماء آدم.
٤ ـ خلق الشمس والقمر والنجوم وخلق الزحافات (يقصد الأسماك) والطيور والتنانين (يقصد الحيتان).	غرس جنة في عدن شرقاً وأسكن آدم فيها خلق حيوانات البرية والطيور.

ويبدو من هذه المقارنة بين القصتين تحريف التوراة على أيدي الكهنة وتزعم قصة الخلق الموسوية أن الخالق كان قبل يعيش بلا خليقة وفي يوم الأحد من سنة ٤٠٠٤ق.م عنّ له أن يخلق الكون فاستحدثه من العدم، دأب يعمل في ذلك ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع[١]، وكانوا يتوهمون أن الظلمة شكل من أشكال المادة، ولذا قالوا في قصة الضربات البشعة التي أنحى

(١) اليهودية في العقيدة والتاريخ ص١٤٨.

بها موسى على مصر أن الظلام قد اشتدت حلكته في مصر بأمر موسى (حتى يلمس الظلام)[١]، ولقد أخطأ وافي ترتيب الخلق فذهبوا إلى أن الأرض خلق في اليوم الأول في حين أن أمها الشمس لم تخلق إلا في اليوم الرابع، وجعلوا أديم الأرض يكسي بالخضرة في اليوم الثالث فأخرجت الأرض عشباً وبقلاً، وجعلوا ترتيب خلق الحيوانات تباين ترتيب رتبها وفصائلها، فقد خلقت الحيتان قبل خلق الثديات تقول التوراة «فخلق الله التنانين العظام ـ أي الحيتان وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه. . . . »[٢].

وجعلوا الوحوش تأكل العشب تقول التوراة «ولكل حيوان الأرض وكل طير السماء وكل دبابة على الأرض فيها نفس حية أعطيت كل عشب أخضر طعاماً»[٣]، وفيما يلي نطالع التوراة وسنقتصر على قصة الخلق فيها دون الخوض في تفاصيل التوراة حول الكون اكتفاء بها عن المسائل الأخرى.

نصوص التوراة حول خلق الكون:

خصص سفر التكوين من أسفار التوراة الخمسة الأولى للحديث عن قصة تاريخ العالم منذ تكوين السموات والأرض حتى استقرار أولاد يعقوب على أرض مصر، ونكرس القول حول خلق الكون فقط تقول التوراة:

«في البدء خلق الله السموات والأرض وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه»[٤]، لقد أشارت التوراة

---

(١) سفر الخروج ١٠:٢١.

(٢) سفر التكوين ١:٢٤.

(٣) سفر التكوين ١:٣٠.

(٤) سفر التكوين الإصحاح الأول آية ١ ـ ٢.

إلى بداية خلق الله السموات والأرض إذ لم تكن شيء على الأرض ولم تخلق الشمس والقمر، وكان غارقاً في الظلمات، وقبل خلق السموات والأرض كان ماء وروح الله يرف على وجه الماء ولكن لم تشر التوراة إلى مرحلة ما قبل الماء بل أشارت إلى خلق النور تقول التوراة:

«ليكن نور فكان نور ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً»[١].

إن الضوء الذي يقطع الكون هو نتيجة ردود أفعال معقدة تحدث في النجوم ولكن حسب قول التوراة لم تكن قد تشكلت بعد في هذه المرحلة، حيث أن أنوار السموات لا تذكر في سفر التكوين إلا في الفقرة (١٤) باعتبارها ما خلق الله في اليوم الرابع ليفصل بين الليل والنهار ولينير الأرض، وذلك صحيح، ولكن من غير المنطقي أن تذكر النتيجة الفعلية أي النور في اليوم الأول على حين تذكر وسيلة إنتاج هذا النور أي المنيرة في اليوم الرابع، يضاف إلى ذلك أن وضع الليل والنهار في اليوم الأول هو أمر مجازي صرف، فالليل والنهار بكونهما عنصرين ليوم غير معقولين إلا بعد وجود الأرض دورانها تحت ضوء نجمها الخاص[٢].

وتشير الفقرات من (٦) إلى (٨) إلى تكوين السماوات والأرض من المياه تقول التوراة: «ليكن حلدفي في وسط المياه وليكن فاصلاً بين مياه ومياه فعل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد وكان

---

(١) سفر التكوين الإصحاح الأول ٣ ـ ٥.

(٢) الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة موريس بوكاي ص٤١.

ذلك ودعا الله الجلد سماء وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً».

لقد أشارت التوراة في هذه الآيات إلى خلق السماء وتقسيم المياه إلى طبقتين بواسطة الجلد الذي سيجعل المياه تنصب على الأرض عند الطوفان وعند نزول المطر[١] وسمي الجلد الذي فصل بين المياهين سماء، وتم ذلك أي خلق السماء في اليوم الثاني من الأيام الستة التي خلق الله فيها الكون ولكن تقسيم المياه إلى كتلتين غير مقبولة علمياً، ثم تستمر رواية التوراة لتتحدث عن ترتيب توزيع الأرض إلى الماء واليابس وقالت: «لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة وكان ذلك ودعا الله اليابسة أرضاً ومجتمع المياه دعاه بحاراً ورأى الله ذلك أنه حسن. وقال الله لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً[٢] وشجراً ذا ثمر يعمل تمراً كجنسه بزر، فيه على الأرض وكان ذلك فأخرجت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً كجنسه وشجراً يعمل ثمراً بزره فيه كجنسه ورأى الله ذلك أنه حسن وكان مساء وكان صباح يوماً ثالثاً[٣].

إن تكوين القارات وظهور اليابسة حدثت في مرحلة من تاريخ الأرض حيث كانت مغطاة بالمياه، بعد خلق السماء أمر ممكن ولكن ظهور النباتات عن طريق التناسل قبل ظهور الشمس أمر غير ممكن في هذه المرحلة، لأن تعاقب الشمس على الأرض وإعطائها الأشعة اللازمة هي التي تعطي دورة الحياة للعالم النباتي، وأن الشمس لم تذكر خلقها في التوراة إلا في اليوم الرابع كما تقول التوراة.

---

(١) الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص٤٢.

(٢) النص على هذا الوجه.

(٣) سفر التكوين الإصحاح الأول ٩ ـ ١٣.

«لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين وتكون أنواراً في جلد السماء لتنير على الأرض وكان كذلك فعمل الله النورين العظيمين النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل، والنجوم جعلها الله في جلد السماء لتنير على الأرض ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة ورأى الله ذلك أنه حسن وكان صباح وكان مساء يوماً رابعاً»[١].

يفهم من هذا النص أن الشمس والقمر خلقهما الله للدلالة على الأوقات ومعرفة الأيام والسنين، ولتكونا منورين للأرض على التعاقب وخصت الشمس بالنهار والقمر بالليل، ولتكون الشمس فاصلة بين الليل والنهار والنور والظلمة، فالنور الذي في الآية الأولى أمر مجازي وإلا لتضارب النعمان وتبطل الفقرة ١٤ الفقرة ٣، ثم تتحدث التوراة عن خلق الحياة على الأرض بكل ما فيها من الماء، تقول «قال الله: لتفض المياه زحافات ذات نفس حية وليطر طير فوق الأرض على وجه جلد السماء، فخلق الله التنانين ـ الحيتان العظام في المحيطات ـ وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذي جناح كجنسه ورأى الله ذلك أنه حسن وباركها قائلاً أثمري واملأي المياه في البحار وليكثر الطير على الأرض وكان مساء وكان صباح يوماً خامساً»[٢].

وتدل التوراة أن خلق الزحافات والطيور من الماء بعد أن أمره الله تعالى بذلك ثم خلق الله الحيتان وكل ذوات الأنفس الحية من الحيوانات كل حسب جنسه، ولا شك في أن الماء أصل الحياة إلا أن التوراة لم توفق في كيفية

---

(١) سفر التكوين الإصحاح الأول ١٤ ـ ١٩.

(٢) سفر التكوين ١: ٢٠ ـ ٢٣.

التعبير وإسناد الخلق إلى خالق الماء والترتيب في الخلق، ومن ناحية أخرى يقول سفر التكوين بظهور عالم الحيوان أولاً وابتداء من حيوانات البحر والطيور، ولكن لا يشير إلى الحيوانات الأرضية إلا في اليوم السادس بعد ظهور الطيور، وإذن فبيان ظهور الحيوانات الأرضية إلا في اليوم السادس بعد ظهور الطيور، وإذن فبيان ظهور الحيوانات الأرضية والطيور على الوجه المذكور غير مقبول تقول التوراة:

«وقال الله «لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها بهائم ودبابات ووحوش كجنسها، وكان كذلك فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها وجميع دبابات الأرض كأجناسها ورأى الله ذلك أنه حسن، وقال الله لنعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض، فخلق الله الإنسان على صورته على صورة الله خلقه ذكراً وأنثى خلقهم، وباركهم الله وقال الله أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض واخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض» وقال الله (إني قد أعطيتكم كل بقل يبزر بزراً على وجه كل الأرض وكل شجر فيه ثمر شجر يبزر بزراً لكم يكون طعاماً، ولكل حيوان الأرض وكل طير السماء وكل دابة على الأرض فيها نفس حية أعطيت كل عشب أخضر طعاماً وكان ذلك ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً وكان مساء وكان صباح يوماً سادساً»[١].

وفي وصف تمام الخلق لقد عدد الكاتب كل المخلوقات الحية غير

---

(١) سفر التكوين ١: ٢٤ ـ ٣١.

المذكورة سابقاً ويشير إلى الأقوات المختلفة والموضوعة تحت تصرف الإنسان والحيوان، وختمت التوراة رواية الخلق بالفقرات الثلاثة الأولى من الإصحاح الثاني إذ تقول:

«فأكملت السموات والأرض وكل جندها وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل وبارك الله في اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً هذه مبادىء السموات والأرض حين خلقت».

تتطلب هذه الآيات الثلاثة المتعلقة باليوم السابع هذه التعليقات:

١ ـ قولها الجند: تعني حشد الكائنات المخلوقة[١]. أما كلمة (استراح) تعني ترجمة الكلمة شباط العبرية التي تعني هذا المعنى على وجه الدقة ومن هذا المعنى جاء يوم الراحة عند اليهود (يوم السبت).

٢ ـ إن الراحة التي يفترض أن الله قد أخذها بعد أن عمل ستة أيام هي أسطورة مأخوذة من النص الكهنوتي الذي كتبه الكهنة. . وهم الوريثون الروحيون لحزقيال النبي المنفي مع قومه إلى بابل في القرن السادس ق.م، وأن هؤلاء الكهنة قد أعادوا روايتي الخلق اليهوية والألوهية، وأعادوا صياغتها على مشيئتهم وحسب اهتماماتهم الخاصة التي كتب الأب (ديفو) عنها قائلاً: (إن طابعها التشريعي كان جوهرياً)[٢].

أما النص اليهوي الذي يسبق النص الكهنوتي بعده قرون لا يشير إلى

---

(١) الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص٤٤.

(٢) الظاهرة القرآنية والعقل تأليف علاء الدين المدرس الطبعة الأولى ١٩٨٦م. مطبعة العاني بغداد ص١٠٢.

راحة الله الذي تعب في عمله طيلة الأسبوع، بل يدخلها الكاتب الكهنوتي في روايته أنه يقسم روايته إلى أيام بالمعنى الدقيق لأيام الأسبوع، ويضع محور الرواية على راحة السبت التي يعللها أمام المؤمنين مؤكداً أن الله هو أول من احترمها.

٣ ـ أن إدراج مراحل الخلق المتعاقبة في إطار أسبوع هذا الإدراج الذي أراده الكاتب الكهنوتي بهدف الحث على الطاعة الدينية لا يقبل الدفاع من وجهة النظر العلمية فمعروف تماماً في أيامنا أن شكل الكون والأرض قد تم على مراحل تمتد على فترات زمنية شديدة الطول يصعب تحديدها على وجه الدقة. وحتى إذا كانت الرواية تنتهي مساء اليوم السادس فهي لا تحتوي على إشارة إلى اليوم السابع، يوم الراحة الذي استراح الله فيه، وقد أبطل القرآن الكريم هذا الزعم الذي نسب التعب إلى الله تعالى أثناء عمله في الأيام الستة الأولى، حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾[1].

٤ ـ معنى الأيام: لا تعد الأيام أياماً بالمعنى الحقيقي، وذلك لاختلاف الزمان طولاً وقصراً من مكان لآخر، حسب دورة الكواكب حول نفسها وحول الشمس وبعدها عنها، فأيام المريخ غير أيام الأرض وأيام كوكب المرأة السلسلة غير أيام في كوكب المجموعة الشمسية فإن النص الكهنوتي يظل غير مقبول، لأن تعاقب الأحداث فيه يناقض المعلومات العلمية الصحيحة، وهكذا إذن تبدو الرواية الكهنوتية للخلق بناء خيالياً مبتكراً.

أما فيما يتعلق باختلاف روايات التوراة في الزاوية الكهنوتية والرواية

---

(١) سورة ق: ٣٨.

اليهوية في نصوص كتب عهد القديم يدل دلالة واضحة على تحريف نصوصها وتغير ما فيها حسب ما أراده كتاب التوراة لتحقيق رغباتهم والتستر على الحقيقة المبينة في الكتاب المنزل على سيدنا موسى عليه السلام.

وهناك نصوص أخرى في التوراة تتحدث عن الأجرام السماوية والشمس والقمر والزمان وظلمة الليل وغير ذلك وهذه النصوص في سفر أيوب ٣٨: ١ ـ ١٢، وسفر مزامير ٩٠: ٤ و١٠٣ = ٢٥ و١٠٤: ١٩ ـ ٢٣.

وفي سفر أشعيا الإصحاح ١٢: ٨ ذكر نشر السماء والأرض ويقول: أنا صنعت الأرض وخلقت البشر عليها يداي نشرتا السماوات والأرض وأنا آمرت جميع جندها لأنه هكذا قال الرب خالق السماوات الله جابل الأرض صانعها الذي أقرها ولم يخلقها للخواء بل للعمران جبلها إني أنا الرب وليس آخر ويقول سفر ٤٨: ١٣ (يدي أمست الأرض ويميني نشرت السموات وأنا أدعوهن فيقفن معاً).

استنتاج

١ ـ يوجد تشابه بين قصة الخليقة البابلية (انيوما ايليش) وبين ما جاء في التوراة حول الموضوع في سفر التكوين، فالعماء[1] مظلم من الماء فصل إلى سماء وأرض، وكان هذا العماء في القصة البابلية المادة الأولى وأصل الأشياء.

٢ ـ تكون المادة أزلية أي أنها وجدت منذ الأزل، فتولد من هذه المادة جميع الأشياء والموجودات، لكن التوراة تشير إلى وجود الخالق قبل وجود المادة وأن الله موجود منذ الأزل، غير أن القصة البابلية يستنتج منها وجود

---

(١) العماء شيء غامض غير محدود ولا معين تختلط فيه جميع الأشياء ونشأت منه جميع الأشياء.

المادة والخالق في وقت واحد.

٣ ـ تتفق القصة البابلية والتوراة في خلق السماء حيث خلق مردوخ من نصف جسم تيامه[١]، السماء ومن نصفه الثاني الأرض بهيئة قبة، وورد في سفر التكوين أن الأرض أول ما خلقت كانت طافية في الماء وفي اليوم الثالث أمر الله أن تجتمع المياه جميعاً في موضوع واحد فظهرت اليابسة[٢].

٤ ـ إن فكرة الخلق عند اليهودية والمسيحية حسب كتبهم وآراء مفسريهم تدل على أن السماء والأرض وجدتا من الماء وليس الماء هنا ماء بمعناه الأرضي، بل كان شيئاً آخر وهو ما كان عرش الله عليها حين الإيجاد، فالنصوص في سفر أشعيا تعني إيجاد الماء من العدم، غير أنه لم يذكر فكرة الزمان[٣].

الكون في الإنجيل:

ـ لم يتحدث الإنجيل عن موضوع الكون مثل حديث التوراة له سوى فقرات قليلة في بعض الأناجيل، ونود أن نذكر بعض الفقرات من (إنجيل يوحنا) الإصحاح ١:١ ـ ٥ «في البدء كانت الكلمة والكلمة كانت عند الله وكان كلمة الله هذا كان في البدء عند الله وكل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان، فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه. وكان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتياً إلى العالم كان

---

(١) أحد آلهة بابل.

(٢) مجلة سومر م٥ ج١ ص٦ ـ ٧.

(٣) مجلة عالم الفكر الكويت سبتمبر ١٩٧٧. الزمن في الفكر الديني والفلسفي القديم د. حسام الألوسي ص١٢١.

في العالم، وكون العالم به ولم يعرفه العالم».

وجاء في رسالة بطرس الرسول الثانية الإصحاح ٣ : ٥.

«إن السموات كانت منذ القديم، والأرض بكلمة الله قائمة من الماء وبالماء، وأما السموات والأرض الكائنة الآن فهي مخزونة بتلك الكلمة عينها». وجاء ذكر الزمان في الإنجيل إذ تقول الفقرة الثامنة من الإصحاح الثالث في رسالة بطرس الرسول «وإن يوماً واحداً عند الرب كألف سنة وألف سنة كيوم واحد».



الفصل السابع

خالق الكون في التوراة

كان بنو إسرائيل عند ظهورهم على مسرح التاريخ بدوا رحلاً يخافون شياطين الهواء، ويعبدون الصخور والماشية والضأن وأرواح الكهوف والجبال، ولم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والحمل، ذلك أن موسى عليه السلام لم يستطع منع أتباعه من عبادة العجل الذهبي وظلوا زمناً طويلاً يتخذون هذا الحيوان القوي آكل العشب رمزاً لإلههم(١)، وفي تاريخ اليهود الباكر شواهد كثيرة تدل على أنهم عبدوا الأفعى ومن هذه الشواهد صورة الأفعى التي وجدت في أقدم آثارهم، ومنها الأفعى النحاسي الذي عبدها اليهود في الهيكل إلى أيام حزقيال حوالي ٧٢٠ق.م وكان بعض اليهود يعبدون (بعل) الذي كان يرمز إليه بحجارة مخروطية قائمة كثيرة الشبه (بلنجا) إله الهندوس، وذلك لأن في رأيهم الجوهر الذكر في التناسل وزوج الأرض الذي يخصبها. كما أن آثار عبادة الآلهة الكثيرة البدائية قد بقيت في عبادة الملائكة والقديسين وفي الأصنام الصغيرة المتنقلة التي كانوا يتخذونها آلهة لبيوتهم. وقد صوروا الله تعالى في صورة مجسمة، ووصفوه بصفات لا تليق بذات الباري عز وجل، من ضعف ونقص وكذب وغفلة كما يروي سفر التكوين عن قصة شجرة المعرفة الإصحاح

---

(١) قصة الحضارة ج٢ ص٣٨٨.

الثالث الآية الثامنة وما بعدها: (أن الله لما نهى آدم وحواء عن أكل شجرة المعرفة أراد أن يمنعها من مشاركته أهم صفة من صفاته وهي المعرفة وإبقائها جاهلين، فلما أغرتهما الحية وهي أكثر الحيوانات حيلة كما تقول التوراة الإصحاح الثالث الآية الأولى، أو الشيطان وأكلا من شجرة المعرفة أدركا ما كانا يجهلانه من قبل، فعرفا أنهما مكشوفا السوأتين وأنه لا يليق أن يقابلا ربهما على هذه الصورة[١]، ولما قدم الإله نحوهما وسمعا صوت الرب الإله ماشياً عند هبوب النهار فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة، فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت؟ ـ كأنه إنسان يجهل مكانهما ولا يعلم أنهما أكلا من الشجرة ـ فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت، وأخذ الإله يستجوبها.

ويذكر سفر التكوين أينما في الإصحاح السادس آية ١ ـ ٧ أيضاً «أن لله تعالى أولاداً من الذكور قد فتنهم جمال بنات الآدميين اللائي كان عددهن قد كثر في الأرض، فاتخذوهن خليلات وولد لهم فيهن نسل وهم جبابرة الأرض الذين سكنوا الأرض من قبل الطوفان»[٢]. (إلا أن التوراة المنزلة على موسى عليه السلام بريئة من هذه الخرافات) وتقول التوراة أيضاً أن الإله ظهر عدة مرات على شكل إنسان لكل من سيدنا إبراهيم ويعقوب[٣]، وقال ليعقوب (اسمك يعقوب لا يرعى اسمك فيما بعد يعقوب بل يكون اسمك إسرائيل، فدعا اسمه إسرائيل). إن هذه التصورات الوثنية التي سجلت في التوراة حول

---

(١) تاريخ الديانتين اليهودية والمسيحية د. سعدون ساموك ص٥٣.

(٢) سفر التكوين الإصحاح ١٨ آية ١.

(٣) سفر التكوين الإصحاح ٣٥ آية ٩.

خالق الكون أخذت من المعتقدات القديمة في حضارة مصر وبابل بعد احتكاكهم بهم عن طريق التجارة والسبي البابلي، غير أن فكرة اتخاذ اليهود (الإله يهوة) إلهاً قومياً أكسبت الديانة اليهودية وحدة وبساطة كانتا سبباً في انتشالها من فوضى الشرك التي كانت تسود أرض الجزيرة(١).

ويبدو أن اليهود الفاتحين لأرض كنعان عمدوا إلى أحد آلهتهم باسم (ياه) أو (ياهو) فصاغوه في الصورة التي كانوا هم عليها، وجعلوا منه إلهاً صارماً ذا نزعة حربية، صعب المراس، كثيرة الغيرة للمعبودات المنافسة، وكان الإله الذي يتخذه الأنبياء لدعوة بني إسرائيل إلى مبدأ التوحيد السامي(٢)، واعتقد بنو إسرائيل إن هذا الإله لا يطالب الناس بأن يعتقدوا أنه عالم بكل شيء، وشاهد ذلك أنه يطلب إلى اليهود أن يميزوا بيوتهم بأن يرشوها بدماء الكبائش المضحاة لئلا يهلك أبناءهم مع من يهلكهم من أبناء المصريين، وكذلك لا يرون أنه معصوم من الخطأ وأشنع خطأ وقع فيه هو خلق الإنسان ولذلك تراه يندم بعد فوات الفرصة على خلق آدم، وعلى ارتضائه أن يكون (شاؤل) ملكاً، ولم يكن للأمم القديمة إله آدمي في كل شيء كإله اليهود هذا. وأن يهوة في بداية الأمر كان إلهاً للرعد يسكن الجبال، جعل كتاب التوراة إله الرعد إله الحرب يحارب من أجل شعبه ومن ذلك يقول موسى: (الرب رجل حرب) وكان الأنبياء يختارونه لأنه الإله القومي الذي تشخر الشعب فيه حكم بني إسرائيل في السراء والضراء فكان له من النصيب في الارتضاء به أكثر مما رضوا بغيره ويقول جوستاف لوبون:

«ولم يعبد بنو إسرائيل حتى دور الإشارة، وحتى عند أكثر أنبيائهم

---

(١) قصة الحضارة ج٢ ص٣٣٩.

(٢) اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ص٦٨.

توحيداً، إلهاً يمكن أن يكون رب الأمم الأخرى ولم يكن لإصلاحات الأنبياء غير صيغة محلية في كل حين، وكل ما كان يطلبه هؤلاء الأنبياء هو أن يسود في بني إسرائيل عبادة يهوة على حساب المعبودات الأجنبية، ففي فلسطين لم يفكر أحد في إله أزلي شامل قبل أشعيا وأرميا»[١]، وقد تأثر اليهود بالديانة البابلية وعبدوا آلهتهم عندما كانوا في المنفى، وأشهر آلهتهم (عشيرة) Ashira عبدها العبرانيون اعتباراً من احتلال أرض كنعان وحتى النفي إلى بابل عام ٥٧٦ق.م واسمها الآخر (اللاه أو اللاتو) وكان الإله الرئيسي لدى كنعاني (أوغاريت) في رأس الشمرا[٢]. والإله (عشتروت أناة Ashtarut Anat) الآتية من الإله (عشيرة) الكنعانية السابقة، وكانوا يعبدونه إلى جانب (اشتار Ashtar) نجمة الصبح واسم هذا الإله (أناه أو مناه)[٣]. فاليهود لم يتركوا عبادة الأصنام حتى في عصر الأنبياء، فجعلوا من الإله بشراً وفي صورة حيوان مقدس عندهم كما صوروا العجل وعبدوه في سيناء حين ذهب موسى إلى الجبل لتلقي الألواح، وعبدوا (تموز) ومولك إله النار وكان يمثل الصاعقة التي تحرق الحصاد وحرارة الشمس الضاربة التي تجعل السهول جدبية، وكان (مولك) إلهاً موهوباً فيجب تسكيته، أما بعل ـ إله الشمس ـ في معتقدات الحضارات القديمة على عكس مولك فينضج ثمار الأرض ويحمر القطف العطري بين خضرة الغصون[٤]..

---

(١) اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ص٦٩.

(٢) الثورة بين الوثنية والتوحيد ص٤٧ تأليف سهيل أديب الطبعة الأولى ١٤٠١ ـ ١٩٨١ دار النقاش، ص٤٧.

(٣) نفس المصدر ص٤٨.

(٤) اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ص٦٦.

فإذا آلت الأمر إلى البشر فسرعان ما يركن إلى هفوات النفس الأمارة بالسوء ويهيىء من الجو ما يتلاءم مع فكرته وما يخدم مصلحته كما فعله كتاب التوراة بالتوراة، وكانت النتيجة كما يقول د. فؤاد حسنين على: «وكانت النتيجة المحتومة لامتداد زمن التأليف وطول عصر الجمع إن خضعت بعض الأسفار لمؤثرات كثيرة عملت فيها زيادة وحذفاً، وإلى اليوم فالنزاع ما زال قائماً بين رجال اللاهوت حول سفري الجامعة ونشيد الإنشاد مثلاً هل هما من أسفار عهد القديم أم دخيلان عليه»[١].

ومما يبدو من عقيدة العبرانيين أنهم جسموا الإله وشبهوه بالإنسان المحتاج إلى سكنى إذ جعلوا السماء مسكناً للإله، وينزل ويسكن الجبال والضباب والرياح والزلازل، كما يزعم العهد القديم أن جبل صهيون وجبل باشان مسكن الآلهة ولا يزال يهوة يتجلى في عمود دخان وعمود النار اللذان كانا دليلين لبني إسرائيل في التيه مع صدورهما عن الريح التي تعبث بالصحراء ولما نشأت الوحدة السياسية أيام داود وسليمان وتركزت العبادة في الهيكل بأورشليم، وأخذ الدين يردد أصداء التاريخ والسياسة وأصبح يهوه إله اليهود الأوحد، ولم يخط اليهود خطوة نحو التوحيد غير هذه الخطوة، وهي أن لليهود إليها واحداً يعلو على آلهة غيرهم من البشر حتى كان زمن الأنبياء، وأن التوحيد في بني إسرائيل إلى يومنا هذا توحيد نسبي ناقص لأنهم كانوا يعبدون إلهاً قبلياً كما كان شأن الأمم القديمة من الصينيين والهند والفرس وغيرهم كثير، ولا يعترف طائفة بإله طائفة أخرى، ولن يكون لدى اليهود إله واحد للعالم كله حتى تربط أجزاء الأرض وتؤلف بينها وتجعلها وحدة اقتصادية

(١) الطبيعة في القرآن الكريم د. كاصد ياسر الزبيدي ص١١٢ نقلاً من التوراة عرض وتحليل تأليف د. فؤاد حسنين علي ص١٦.

وجمع الأمم كلها في دولة واحدة[١].

وبقيت عبادة يهوة قروناً كثيرة ديناً وعقيدة قوامة الخوف لا الحب على الرغم مما بذله سليمان عليه السلام من جهود لكي يجعل باللون والنغم عبادة هذا الإله الرهيب ولم يكن الأمن والنظام من الصفات التي سادت طويلاً بلاد اليهود، ما الحاجة إلى قذف الرعب في قلوب الشعب أو الثائرين من الأجانب الخاضعين لسلطانه فقد جعلت معظم الأديان البدائية عبادات قوامها الخوف والرعب.



(١) قصة الحضارة ج٢ ص٣٢٣.

الباب الأول

الكون المنظور في القرآن الكريم

ويشتمل على فصول:

١ ـ الفصل الأول: بداية الكون.

٢ ـ الفصل الثاني: الغاية من ذكر الكون وفيه مباحث:

أ ـ المبحث الأول: غاية ذكرها القرآن.

ب ـ المبحث الثاني: إقامة العدل الإلهي.

جـ ـ المبحث الثالث: الدلالة على الخالق.

٣ ـ الفصل الثالث: نهاية الكون.

٤ ـ الفصل الرابع: نظرة القرآن إلى الكون.

٥ ـ الفصل الخامس: خالق الكون في القرآن الكريم.

٦ ـ الفصل السادس: وصف الكون.

٧ ـ الفصل السابع: الحضارة الناشئة من القرآن الكريم.

٨ ـ الفصل الثامن: المقارنة بين حضارة القرآن والحضارة القديمة.

الفصل الأول

بداية الكون

في البدء. . . ليس بين العلماء من يستطي أن يبين متى بدأ الكون وكيف بدأ على وجه الدقة والتحديد لأن عليه أن يبدأ من الأوضاع السائدة الآن، ويرجع في البحث إلى الوراء دهوراً عدة تكون معرفته فيها ناقصة، وشأن العالم عندئذ شأن الطفل حين نطلب إليه أن يحدثنا عن كيفية ميلاده أو أن يصف لنا كيف حملته أمه[١].

لقد توصل العلماء في العصر الحديث خلال أبحاثهم ومشاهداتهم لمظاهر الكون إلى أن المادة كانت جامدة وساكنة في أول الأمر، وكانت في صورة غاز ساخن كثيف متماسك، وقد حدث انفجار شديد في هذه المادة قبل خمسة بلايين سنة على الأقل فبدأت المادة تتمدد وتتباعد أطرافها[٢].

---

(١) بدائع السماء رحلة مع العلم في رحاب الكون تأليف جيرالد هوكنز ترجمة د. عبد الرحيم بدر طبع سنة ١٩٦٧ بيروت المكتبة العصرية صيدا، ص١٧٧. وينظر بداية الكون من الأفلاك إلى البشر ص٣٦.

(٢) العلم الحديث حجة للإنسان أم عليه ص٢٤. وينظر التفسير العلمي للآيات الكونية، حنفي أحمد ص ٩١. نظرية نشوء الدم العظمي وبداية الكون من الأفلاك إلى البشر ص٥٣.

ولقد رأى عمانويل كانت[(١)]، الفيلسوف الألماني الشهير أنه كان في البدء غيمة ضخمة باردة مدومة من الغبار والغاز ويميل الفلكيون المعاصرون لهذا الرأي ويتحمسون له، لأن مراقبهم تبين لهم غيوماً سوداً من الغباريين النجوم، ويجب أن تكون على شبه شديد بالغيمة التي كان يعنيها كانت[(٢)].

ولقد فرض العالم الفلكي (جورج لليمتر) عام ١٩٣١ أن الكون كان في الأصل كتلة متماسكة عالية الكثافة (١٠٠ مليون طن لكل سنتمتر مكعب) وكانت هذه الكتلة ساخنة جداً تصل حرارتها إلى بلايين البلايين من الدرجات وقطرها حوالي ٢٠٠ مليون ميل وتسمى (البيضة الكونية) وأن هذه البيضة انفجرت انفجاراً هائلاً فتكونت بذلك نواة النجوم التي تبعثرت بسرعة عالية في جميع الاتجاهات وتجمعت مجاميع من النجوم بالجاذبية، فتكونت المجرات التي ما زالت تجري في الفضاء الكوني، وقد استغرقت هذه المراحل زمناً طويلاً يتراوح بين ٢٠ إلى ٦٠ بليون سنة[(٣)].

وفي عام ١٩٤٨ أعلن جامو[(٤)] عن قصة الكون الذي يبدأ بفضاء مملوء بالبروتونات التي انضمت إلى بعضها البعض بالجاذبية مكونة غازاً كثيفاً أو دخاناً ساخناً لدرجة أتاحت حدوث عمليات الاندماج النووي لمختلف العناصر بما في ذلك العناصر الثقيلة المشعة مع وفرة في الحديد والأوكسجين، وتحت تأثير الضغط الهائل لهذا الغاز الساخن المضغوط بدأ الكون ينفجر، وتكثفت سحب

---

(١) ولد في كنمبرج ببروسيا ١٧٢٤م وتوفي ١٨٠٤م.

(٢) بدائع السماء: ص١٧٨.

(٣) الكون والإعجاز العلمي في القرآن ص٣٢٤، وينظر بصائر جغرافية ص٦٠ وما بعدها.

(٤) أحد علماء الجغرافيا المتحدث عن نشوء الكون.

من هذا الدخان في أماكن متفرقة مكونة نجوماً منفردة ظلت تتناثر من أثر الانفجار. وعندما هبطت حرارتها تغلبت جاذبيتها المتبادلة فتجمعت على هيئة مجموعات تسمى المجرات ظلت أيضاً تتناثر وتتباعد دون أن تتوقف إلى الآن[١].

نستنتج فيما مضى أن الكون حادث وليس أزلياً، وقد جاء قانون الطاقة المتاحة ليثبت أنه من المستحيل أن يكون وجود الكون أزلياً[٢]، ويقرر هذا القانون بأن الحرارة تنتقل من الساخن إلى البارد ومن الحرارة الأعلى إلى الحرارة الأدنى حتى يتعادل المستويان فيتوقف التبادل الحراري، ولو كان الكون أزلياً بدون ابتداء لكان التبادل الحراري قد توقف في تلك الآباد الطويلة الماضية وللزم أن تكون الحياة قد توقفت قبل الآن بأزمان بعيدة[٣].

وبما أن الحياة قائمة الآن.. إذن فالوجود الحراري قائم وبذلك تكون العمليات الكيمياوية والطبيعية لتكوين المادة الكونية مستمرة وقائمة ويظهر من ذلك كله أن الكون ليس أزلياً، لأنه لو كان أزلياً لكان من اللازم أن يفقد طاقته منذ زمن بعيد كما قلنا ولانتهت تبعاً لذلك كل نماذج الحياة وبهذا الصدد يقول العالم الأمريكي (ادوارد لوثركسيل): «لقد أثبتت البحوث العلمية، دون قصد أن لهذا الكون بداية، فأثبتت تلقائياً وجود الإله، لأن كل شيء ذي بداية لا يمكن أن يبتدىء بذاته»[٤].

---

(١) الكون والإعجاز العلمي للقرآن ص٣٢٤ والتفسير العلمي للآيات الكونية ص٩٢.

(٢) الظواهر الجغرافية ص٦٨.

(٣) شهادة الكون تأليف عبد الودود رشيد محمد ص١٢٠ وينظر الظواهر الجغرافية ص٦٩.

(٤) الظواهر الجغرافية، ص٦٩.

ومن الدلائل الأخرى على أن الكون ليس أزلياً، العثور على المواد الإشعاعية كالراديوم واليورانيوم وغيرهما مما يدل على أن للكون بداية، فلو كان أزلياً لما وجدت هذه العناصر المشعة لأن انحلالها سيكون قد انتهى[١].

إن ظاهرة اتساع الكون وظاهرة النشاط الإشعاعي تدلان على أنهما تكونتا في اللحظة المعينة لبدء هذا الكون[٢]، ففي البدء خلقت المادة والطاقة من العدم بطريقة لا نستطيع إدراكها ولا يمكن أن نصل إلى كنهها عن طريق ما لدينا من العلم[٣].

ولو عدنا إلى القرآن الكريم لوجدنا أنه يشير إلى مادة الكون الأولية في آية من آياته وهي دخانية السماء، ووحدة السماء والأرض أولاً ثم فصل بينهما، وذكر في آيات أخرى فكرة الانفجار وتمدد الكون، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾[٤].

ويقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ﴾[٥].

فالآية الأولى تشير إلى وجود كتلة غازية ذات ذرات أو جزيئات (دخان)، فالدخان عموماً يتكون من قوام غازي تعلق به جزيئات دقيقة[٦].

---

(١) الكون والإعجاز العلمي للقرآن، ص٣٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٢٢.

(٣) الانفجار الكبير أوميد شمشك ص١٠٥.

(٤) فصلت: ١١.

(٥) الأنبياء: ٣٠.

(٦) الكون والإعجاز العلمي للقرآن ص٣٢٥.

والآية الثانية تشير إلى أن مادة السموات والأرض شيء واحد متماسك (رتق) فَفَصَلَ الله بينهما إذ قال (ففتقناهما).

ويقول المفسرون في تفسير هذه الآية: أن السموات والأرض كانتا شيئاً واحداً ملتصقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هي وأقر الأرض[١]، وهي ما تسمى لدى علماء الفلك بالسديم ويسميها القرآن الدخان[٢].

وقد سمى سبحانه وتعالى مادة السماء قبل تكوينها بالدخان، لأن الدخان يتكون عموماً من قوام غازي حيث تعلق به جزئيات دقيقة قد تنتمي إلى مواد صلبة أو تتحول إلى مواد سائلة مع درجة في الحرارة قد تقل أو تكثر[٣]، ولأن مادة السماء الأولية قبل خلقها كان لها من الصفات ما يشبه صفات الدخان العادي الذي يتصاعد من النيران أي أنها كانت مادة مظلمة بذاتها مفككة الأجزاء خفيفة ومنتشرة في الفضاء كما ينتشر السحاب، ساخنة إلى حد ما إذ الدخان لا يصدر إلا من أصل ناري ـ مظلمة داكنة ـ وأنها مثل الدخان العادي كانت حاوية لدقائق أنواع المادة الثلاثة من صلبة وسائلة وغازية[٤].

وقد ظهر مما تقدم أن العلم الحديث في هذا العرض جاء على وفق ما أشار إليه القرآن الكريم عن الوصل الذي نشأ فيه الأرض والسماء، كما استقر في كلمتهم على أن الكون له بداية مسبوقة بالعدم فوجد بعد أن لم يكن. وهذا يدعو تبعاً أن يكون له خالقاً خلقه من العدم.

---

(١) تفسير الرازي ج٢٢ ص١٦٢، وأضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن الشنقطي ج٤ ص٥٦٣.

(٢) تفسير المراغي ج١٢ ص٥.

(٣) الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص١٦٣.

(٤) التفسير العلمي للآيات الكونية ص٢١١.

ولكن عندما يذكر العدم لا يقصد به (العدم المطلق) فذلك غير ممكن، لأننا سنواجه هنا صفة العلم الإلهي المطلق المحيط بكل شيء، ولا يمكن تصور أي شيء خارج هذا العلم، بل كل شيء يخرج عن علمه تعالى، ومنه يكتسب وجوداً مادياً[١]، كان الله ولم يكن معه شيء، فأوجد مادة الكون.

وفيما يتعلق بوجود العرش على الماء، وأن الماء والعرش موجودان قبل السماء والأرض يقول أبو مسلم الأصفهاني[٢]، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[٣] «أنه تعالى لما خلق السموات والأرض جعل بناء السموات على الماء لأن كل بناء يسمى عرشاً كما قال تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[٤]، أي يبنون، وكذلك قال في وصف القرية ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[٥]، أي ان القرية خلت منهم مع سلامة بنائها وقيام سقوفها، وانما ذكر ذلك لانه اعجب في القدرة»[٦]، وقال صاحب تفسير المنار: «إن الذي دون هذا العرش من مادة هذا الخلق قبل تكوين السموات والأرض أو في أثنائه هو هذا الماء الذي أخبرنا عز وجل أنه جعله أصلاً لخلق جميع الأحياء»[٧]، ثم صدر الأمر الإلهي بالفضل بين مادة

---

(١) الانفجار الكبير ص١٠٣.

(٢) محمد بن بحر الأصفهاني (٢٥٤ ـ ٣٢٢هـ ـ ٨٦٨ ـ ٩٣٤م) الإعلام ج٦/ ٥٠.

(٣) هود: ٧.

(٤) النحل: ٦٨.

(٥) البقرة: ٢٥٩.

(٦) تفسير الرازي ج١٧، ص١٣.

(٧) تفسير المنار محمد رشيد رضا الطبعة الثانية ج١٢ ص١٧. وينظر تفسير المراغي أحمد مصطفى المراغي الطبعة الخامسة ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م ج٢ ص٥.

السموات والأرض، فصعد مادة السماء إلى مكانها وبقيت مادة الأرض في مكانها على الهيئة الأولى فكانت سماء واحدة وأرضاً واحدة، ففتق السماء سبع سموات، ومن الأرض سبع أرضين[١]، ولو بحثنا عن المادة الدخانية ـ السديمية ـ الأولى لوجدنا أنها لم تبق منها شيء، غير أننا نرى مادتها الأولية في صور أخرى وهي الكواكب والنجوم والأفلاك والمجرات[٢]. أي أن المادة الأصلية التي كانت في تلك السجابة هي هي التي نراها اليوم ما زالت موجودة حتى الآن في كل شيء وفي كل مكان[٣].

ونود أن نشير هنا إلى بعض المسائل المتعلقة بأطوار الخلق والإيجاد بإيجاز على الوجه الآتي:

المسألة الأولى:

مراحل خلق الكون:

من المعروف علمياً أن الكون أخذ شكله الحالي خلال أزمان وآماد طويلة سحيقة في القدم، لم يستطع العلم تحديد مدتها على وجه الدقة والضبط، والقرآن الكريم أشار إلى الفترة التي استغرقها خلق السموات والأرض في آيات عدة وهي تؤكد عظمة الله وقدرته في إيجاد الأشياء من العدم خلال الفترة التي يشاؤها ومما هو واضح أن الله تعالى لا يحتاج إلى فترة زمنية لإيجاد الأشياء، وإنما ذكر الزمن استئناساً للبشر في التصبر على أداء العمل وإتقانه

---

(١) تفسير ابن كثير، ج٣ ص١٧٧.

(٢) الظواهر الجغرافية ص٦٢.

(٣) بداية الكون من الأفلاك إلى البشر تأليف جون فايفر ترجمة د. محمد الشحات الناشر مؤسسة سجل العرب القاهرة. ص١٦.

على ما يبدو، وإن طال به الزمن، لأن الله تعالى إذا أراد أن يخلق شيئاً يقول له ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ حيث يقول: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2]، ولو تأملنا في مفهوم زمن خلق السموات والأرض لوجدنا أن الله تعالى يقول في بيان زمن الخلق: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[3]، وهنا آيات عدة بهذا المفهوم في سورة: يونس آية٣، والفرقان آية٥٩، والسجدة آية٣، وسورة ق آية٣٨، والحديد آية٤.

وقد اختلف العلماء في تحديد معنى اليوم المذكور في هذه الآيات نذكر منها:

١ ـ ذهب الزمخشري إلى أن المقصود باليوم[4]، ما هو معروف في أيام

---

(١) يس: ٨٢.

(٢) مريم: ٣٥.

(٣) الأعراف: ٥٤.

(٤) جاء في لسان العرب ج١٢ ص٦٤٩ أن اليوم لغة: معروف مقداره من طلوع الشمس إلى الغروب، وجاء بمعنى الوقت مطلقاً.

ومنه الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده ج١ ص٤٤٨ في موضوع الفتنة عن عبد الله بن مسعود.. قال رسول الله ﷺ ذلك أيام الهرج، قلت ومتى أيام الهرج؟ قال حين لا يأمن الرجل جليسه. ورواه أبو داود بلفظ (تلك أيام الهرج لا يأمن الرجل جليسه) الحديث في سنن أبي داود الفتن٢، وفي كتاب بذل المجهود في حل أبي داود ج١٧ ص١٦٠. لمؤلفه العلامة الشيخ خليل أحمد السهار نفوري المتوفى سنة ١٣٤٦هـ. وينظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج١٣ ص١٨ رقم الحديث ٧٠٦٤، والبخاري بشرح الرماني الفتن٥، رقم الحديث ٦٦٤٠ ج٢٤ ص١٥٢ الطبعة الثانية ١٤٠١هـ ـ ١٩٨٦م بيروت لبنان ولم يختص وقته بالنهار دون الليل.

الدنيا، وليس المقصود أيام الآخرة طوله ألف سنة وقال:

(وأما الداعي إلى هذا العدد أعني الستة دون سائر الأعداد فلا شك أنه داعي حكمة لعلمنا أنه لا يقدر تقديراً إلا بداعي حكمة، وإن كنا لا نطلع عليه ولا نهتدي إلى معرفته)[١].

٢ ـ ذهب مجاهد[٢] وغيره من العلماء إلى أن المقصود باليوم في هذه الآيات أيام الآخرة أو أيام الله المقدرة بمقدار يعلمه تعالى، وقد ورد في القرآن الكريم أن يوم الله ألف سنة من أيامنا قال تعالى:

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[٣].

٣ ـ يقول موريس بوكاي[٤]. إن اليوم يفسر بـ (الفترة أو المرحلة الزمنية وذلك لأن الكلمة اليوم ـ إذا كانت مفردة تنحو للدلالة على النهار أكثر منها للدلالة على فترة زمنية بين طلوع الشمس وغروبها في اليوم التالي، أما إذا كانت جمعاً فلا تعني فقط أيام أي وحدات تتكون كل منها من أربع وعشرين ساعة، بل تعني أيضاً دهراً طويلاً أو فترة زمنية غير محدودة وإن طالت[٥]. وأن من الواجب تصور تقسيم (مراحل) الخلق ليس إلى أيام بالمعنى الذي نفهم عادة بل إلى نوبات ولا شك أن العلم الحديث لم يسمح للناس بتقرير عدد المراحل المختلفة للعمليات المعقدة التي أدت إلى تشكل العالم هو ستة

---

(١) التفسير العلمي للقرآن د. هند شلبي ص٦٠ ـ ٦١، نقلاً عن تفسير الكشاف ج٣ ص٢٨٨.

(٢) مجاهد بن جبر (٢١ ـ ١٠٤هـ/ ٦٤٢ ـ ٧٢٢م تابعي مفسر.

(٣) الحج: ٤٧.

(٤) طبيب فركسي، عنى بالدراسات العلمية ومقابلتها بالكتب المقدسة.

(٥) الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص١٥٩.

مراحل، ولكنه أثبت بشكل قاطع أنها فترات زمنية طويلة جداً[١].

فالقرآن الكريم أشار إلى أن خلق الأرض تم في يومين، يقول تعالى: ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين﴾ أي أن الله تعالى خلق الأرض كمادة أولية متخلخلة في يومين ثم خلق فيها رواسي برزت إلى أعلاها، لتستقر الأرض، وقدر في هذه المادة أقوات الكائنات الحية من نباتات ومياه وكل ما يحتاجه الكائن الحي في يومين آخرين، فيكون المجموع أربعة أيام.

ثم ذكر الله تعالى في الآية نفسها خلق السموات ويقول:

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾[٢] أي أنه تعالى جعل من السماء سبع سموات بكل ما فيها من كواكب ونجوم وشموس وأقمار فأوجدها في يومين على ما هي عليه، فالمجموع ستة مراحل زمنية طويلة غير مقيدة يعلمها الله تعالى، وقد استشكل البعض عندما نظروا إلى مراحل الخلق الستة بالنسبة للأرض والسموات ووجدوا أنه سبحانه وتعالى أشار في آية إلى أن خلق الأرض كان في يومين، وفي آية أخرى أشار إلى أنه جعل الرواسي في الأرض وقدر أقواتها في أربعة أيام، وأشار في آية أخرى أنه خلق السموات في يومين فيكون المجموع ثمانية أيام لا ستة أيام كما أشار سبحانه في مراحل الخلق[٣].

والواقع ليس هناك أي إشكال، لأن الله تعالى بين هنا إتمام خلق الأرض

---

(١) المصدر نفسه ص١٥٩ ـ ١٦٠.

(٢) فصلت: ١١ ـ ١٢.

(٣) الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص١٦٠.

فقال: خلق الأرض في يومين، ثم يتم الحديث عن الخلق فيقول: فجعل فيها رواسي وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام، أي خلقت الأرض في يومين ثم أتممت خلقها في أربعة أيام، إذن فعمدة الخلق بالنسبة للأرض أربعة أيام وليست ستة، فكأن اليومين الأولين جزء من الأيام الأربعة ولذا نجد أن القرآن يسد الباب أمام الذين يريدون أن يشككوا في أمر القرآن وبدأ بقوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ليقول لنا من هم الذين سيجادلون في هذه الآية وينشرونها بالطريقة التي تهواها أنفسهم للإضلال في سبيل الله[١]؟

المسألة الثانية:

عدد السموات والأرض:

ذكر القرآن الكريم عدد السموات والأرض مقروناً برقم (٧) في عشرات من آياته إشارة إلى تعدد العوالم فلكياً، واستخدم رقم (٧) أربعاً وعشرين مرة[٢]، وكثيراً ما يعني التعدد، وفي القرآن يعود الرقم (٧) على السموات بمعناها الصرف سبع مرات، ويقول تعالى: «فسواهن سبع سموات» تامات الخلق والتكوين[٣]، وعبر القرآن عن السموات بالطرائق حيث قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾[٤]، وبالطباق[٥]، وقال:

---

(١) معجزة القرآن محمد متولي الشعراوي ص٦٧.

(٢) الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص١٦٣.

(٣) تفسير المراغي ج١ ص٧٦.

(٤) المؤمنون: ١٧.

(٥) الطباق: طبقة بعد طبقة.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ﴾[(١)]، وفي سورة نوح آية ١٥ ـ ١٦ جاء ذكر السماء بمعنى الطباق أيضاً وبمعنى الشداد، كقوله تعالى: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعًا شِدَادًا﴿١٢﴾﴾[(٢)]، هذه الآيات وغيرها تشير إلى أن السموات متعددة وأنها سبعة مصممة على شكل فلك مستدير مقفل على نفسه أي محدود بدليل قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴿٣٣﴾﴾[(٣)]، فالقطر الذي جمعه أقطار فإنها تعني الجوانب التي يتوصل منها إلى داخل الشيء نفسه، فإنها وردت كذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا﴾[(٤)]، فاستعمل هنا كلمة الدخول ـ وفي آية الرحمن كلمة النفاذ، فإن الدخول إنماي تصور في الشيء المفتوح بآية الذي لا يمتنع بنفسه عند الدخول فيه، وكلمة أقطار مضافة إلى السموات أو الأرض بمعنى الجوانب في غاية الدقة والفصاحة في الدلالة على مناط التحدي القائم لعالمي الإنس والجن على حد سواء[(٥)]، لأن قطر الدائرة: هو الخط المستقيم الذي يقسمها إلى نصفين متساويين، ونصف القطر هو المسافة الممتدة بخط مستقيم من أي نقطة على السطح إلى مركز الدائرة.

أما السماء في اللغة كل ما علا وارتفع فوق رؤوسنا ويطلق على السحاب وسقف البيت والغلاف الجوي للأرض، أما السماء بمعناها الاصطلاحي والشرعي: عبارة عن السقف المادي المحيط بكل ما في داخله من

---

(١) تبارك: ٣.

(٢) النبأ: ١٢.

(٣) الرحمن: ٣٣.

(٤) الأحزاب: ١٤.

(٥) الإعجاز القرآني، ص٢٣٩.

مجرات مع ما تحويه من الشموس والنجوم والكواكب[١] وهو ما تقترب منه نظرية النسبية. وإن حمل الألفاظ القرآنية على الحقائق الشرعية مقدم على حملها على الحقائق اللغوية، إلا إذا وجدت قرينة تستوجب حمله على الثاني دون الأول.

وقد أخبر الحق عن هذه الحقيقة على لسان الجن من أنهم كانوا يقتربون من السماء الدنيا ويسترقون السمع في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾[٣]، وأكد حديث الإسراء والمعراج أن للسماء سقفاً مادياً عندما أسرى برسول الله ﷺ[٤] واختلف العلماء في تفسير سبع سموات على أقوال:

١ ـ ذهب بعض العلماء إلى أن السموات السبع المذكورة في القرآن هي الكواكب السيارات السبع وإنما خصت بالذكر لأنها أعظمها وأكثرها وأن القرآن لم يذكرها في موضع واحد على سبيل الحصر فلا ينافي ذلك أنها أكثر من سبع[٥] إلا أن هذا الرأي لا يستقيم أمام البرهان العلمي لأن السيارات أكثر مما ذكر.

٢ ـ قال بعض علماء اللغة أن العرب تستعمل لفظ سبع وسبعين وسبعمائة للمبالغة فالعدد إذن غير مراد[٦]، إلا أن تأكيد الآية على سبع سموات

---

(١) الإعجاز القرآني، ص٢٤١.

(٢) الجن: ٩.

(٣) الجن: ٨.

(٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢ ـ ٣.

(٥) تفسير القاسمي تأليف صديق حسن القاسمي ج٢ ص٩١.

(٦) المصدر نفسه ٢/ ٩٢ ـ ٩٣.

في سورة (المؤمنون) لا يدع مجالاً للشك والتأويل حيث يقول تعالى ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾[١]، وأن العدد (٧) قليل لا يستعمل للمبالغة كما يستعمل (٧٠) فدلالته على الحصر أولى، حيث لا منافات بين عدد السموات وكثرة المجرات، التي خلقها الله محتوية على ملايين النجوم والكواكب المستديرة كالشمس والقمر والكواكب وكلها تسبح في أفلاكها بحركات دائرية كل في محيطه.

عدد الأرض:

أما عدد الأرض فقد اختلف العلماء في عددها، حيث يفهم من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[٢]، أن الأرض مثل السموات سبع، وفي توجيه السبع وردت الأقوال التالية:

١ ـ من العلماء من قال: أن الأرض مثل السموات في العدد، لأن الكيفية والصفة مختلفة بالمشاهدة، فتعين العدد (٢)، وأن الأرضين ملتصقة بعضها ببعض لا يفصل بينهن شيء[٣].

٢ ـ ومنهم من قال إنها سبعة أقاليم فصل بينهم المياه والمحيطات[٤]، وقال ابن كثير: «من حمل ذلك على سبعة أقاليم فقد أبعد النجعة[٥]، وأغرق

---

(١) المؤمنون: ٨٦.

(٢) الطلاق: ١٢.

(٣) العلم الحديث حجم للإنسان أم عليه ص٤١.

(٤) تفسير النسفي ج٢ سورة الأنعام آية (١)، ص٢.

(٥) النجعة: طلب الكلأ في موضعه، أي أبعد الطلب في موضعه.

في النزع وخالق القرآن والحديث بلا مستند»[١].

قال بعض المتكلمين: إن المثلية في العدد خاصة وأن السبع متجاورة وثبت في الصحيحين «مَنْ ظلَمَ قيْد شبرٍ في الأرْضِ طُوقَهُ من سَبْعِ أرضين»[٢] وجلاء في تفسير النيسابوري (مثلهن) أي في الخلق لا في العدد، وقيل سبع إلا أنه لم يفتق بعضها من بعض كالسماء وقد أفاد الدكتور محمود سراج الدين عفيفي، أن الدراسات الجيوفيزيائية أثبتت أن الأرض مكونة من:

١ ـ الغلاف الهوائي.

٢ ـ الغلاف المائي.

٣ ـ القشرة الأرضية.

٤ ـ طبقة من السلكيات الخفيفة والثقيلة.

٥ ـ طبقة من الأكاسيد والكبريتيدات.

٦ ـ وسائل من الحديد والنيكل.

٧ ـ نواة الأرض المكونة أيضاً من الحديد والنيكل[٣].

وعليه يمكن القول بأن الأرض سبع أرضين لكنها متلاصقة بعضها ببعض لا يفصل بينهما فاصل وذلك لوجوه:

أولاً: أن الله تعالى ذكر أنه خلق سبع سموات طباقاً وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ

---

(١) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٨٥.

(٢) رواه مسلم، ورواه البخاري في كتاب المظالم وكتاب بدء الخلق.

(٣) العلم الحديث حجة للإنسان أم عليه نقلاً عن قوانين الله وليست قوانين الطبيعة ص١١٥.

سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ ﴾[١]، أي طبقات ليست متلاصقة، أما الأرض فلم ترد فيها كلمة طباقاً.

ثانياً: أن الله تعالى ذكر الأرض في القرآن الكريم بلفظ المفرد، والسموات بلفظ الجمع في آيات كثيرة كما في آية ٢٩ من سورة البقرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ﴾، والآية الأولى من سورة الأنعام: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، وآية ٤ من سورة السجدة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، وآية ٦ من سورة طه ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ٦﴾، وآيات أخرى كثيرة يدل على أن الأرض وحدة متماسكة لا يفصل بين طبقاتها السبعة شيء، وأن السموات سبع سموات طباقاً مفصولة بعضها عن بعض كل سماء مستقلة بذاتها.

ثالثاً: أن قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ ﴾[٢] يدل على أن كل سماء مستقلة بذاتها منفصلة عن الأخرى بخلاف الأرض، أما قوله: «ثم استوى إلى السماء» بصيغة المفرد، فعندما كانت السماء مادة واحدة من الدخان، قبل أن تجعل سبع سموات.

رابعاً: يفهم من قول الرسول «مَنْ أَخَذَ شِبراً مِنَ الأرْضِ ظُلماً طوَّقَهُ الله إلى سَبْعِ أرضينَ»[٣]، أن الأرض سبع أرضين من حيث العدد، وأنها كتلة واحدة لا يفصل بينهما فاصل.

---

(١) الملك: ٣.

(٢) فصلت: ١٢.

(٣) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، وكتاب المظالم.

الفصل الثاني

غاية القرآن من ذكر بعض مظاهر الكون

المبحث الأول: الغاية التي ذكرها القرآن

أن الكون مركب في وجوده من أجزاء متعددة على نحو تنظيمي معين يستتبع غايات هامة للإنسان، وكل جزء من أجزائه يندفع إلى تحقيق غايات معينة بالتألف مع الأجزاء الأخرى، وكذلك مجموع الأجزاء تندفع إلى تحقيق غايات نوعية ضمن شروط دقيقة لو تخلف بعض منها بما تحقق تلك الغايات ولدب الفساد فيها[١].

فعندما ندقق النظر في أجزاء الكون في وضعه الحالي، والأنظمة العديدة المتداخلة مع بعضها البعض والموجودة في كل كائن من المخلوقات سنجد مدى روعة الدقة والتنظيم والتخطيط فيها، وكذلك في أجزاء أجسادنا، وفي الماء الذي نشربه وفي الطعام الذي نتناوله.. وفي الهواء الذي نستنشقه، وهذه

---

(١) ينظر كبرى التعيينات الكونية محمد سعيد رمضان السيوطي ط٥ دار الفكر بيروت ١٣٤٧هـ، ص٩٢.

الأمور تبرهن لنا بأن هذا الكون لم يخلق عبثاً، وأن وراءه خالقاً ومدبراً أوجد فيه هذا النظام البديع[١]، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾[٢].

فالحق الذي خلق الكون وأودع فيه أسراراً ونظماً كثيرة مهد السبيل لظهور الحياة فيه.

ويلفت القرآن الكريم نظر الإنسان في كثير من آياته إلى خلق الكون، وخلق كل شيء فيه بقدر وحكمة وناموس معين، وإلى أن الإنسان مخلوق قصداً وغير متروك سدى، خلقه الله ليكون خليقة في الأرض، ووهبه من الطاقات المكنونة ما يتمكن به من القيام بالأعباء والواجبات المفروضة عليه، وسخر له من القوانين الكونية ما يعينه على تحقيقه، ونسق بين تكوينه وتكوين هذا الكون ليملك العمل والإبداع والحياة[٣].

ومن النسق الكوني والتوازن في خلق الله تعالى نجد أن الله تعالى جمع بين عالم الغيب والشهادة وبين السماء والأرض في نظام الكون، وبين الدنيا والآخرة في نظام الدين، والروح والجسد في نظام الإنسان والعبادة والعمل في نظام الحياة وسلكها جميعاً في نظام موحد ليكون هذا سبيلاً إلى الله تعالى[٤].

ففي المشهد الكوني العظيم الذي ينطق بآيات القدرة المبدعة التي

---

(١) ينظر شهادة الكون ص١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢) الدخان: ٣٨ ـ ٣٩.

(٣) مجلة كلية الشريعة بالإحساء، ص٤٠٦.

(٤) دراسات إسلامية معاصرة تأليف أنور الجندي الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٢م من منشورات المكتبة العصرية صيدا بيروت ص٤٠.

تكشف عن دقة التنظيم والتقدير، والتي تكشف عن قدرة الخالق العليم وعمق هذا الجمال في تكوينه تبرز غاية التكوين وواجباته الموكولة إليه في أجزاء كل آية متعلقة بهذا الوجود من سمائه وأرضه وما فيهما.

ففي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾[١]، ندرك أن الغاية الأولى من خلق البروج زينة السماء كما يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ﴾[٢]، ويقول: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾[٣] فالزينة مقصودة للناظرين المفكرين والباحثين المعتبرين[٤]، ومع الزينة الحفظ والنقاء، يقول تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾﴾[٥] ويقول ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾ حتى لا ينالها ولا يدنسها الشياطين، ولا ينفث فيها من شرهم ورجسهم وغوايتهم، فالسماء رمز السمو والارتفاع فالشيطان مطرود عنها مطارد لا ينالها ولا يدنسها[٦]، لتبقى السماء بأهلها آمنة من شرهم، وقد أعد الله فيها حراسة مشددة، فمن حاول الصعود إلى السماء واسترق السمع يجد مع الزينة والحفظ الشهاب الراصد، فهذه غاية من غايات خلق البروج والكواكب العظام، ولأن يهتدي الإنسان بالنجوم في ظلمات البر والبحر وهو يمشي في مشارق الأرض للتجارة وكسب المال، ويقول تعالى: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾[٧]، قال قتادة: «إنَّما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء: لتكون زينة

---

(١) الحجر: ١٦.

(٢) الملك: ٥.

(٣) الصافات: ٦.

(٤) تفسير الواضح للحجاري ج١ ص٥٢٤.

(٥) الصافات: ٧.

(٦) في ظلال القرآن ج٤ ص١٣٣.

(٧) النحل: ١٦.

للسماء، ومعالم للطريق، ورجوماً للشياطين فمن قال غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به»[١].

فلو تأملنا في إرساء الجبال على الأرض في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾[٢]، لوجدنا أن الغاية الأساسية لخلقه.

١ ـ أنها تحافظ على توازن الأرض عن الميلان، وقال الكوفيون لئلا تميد بكم[٣]، حيث لم يذكر العلم ذلك ولم يتعرض لها من قبل، ولكن يعلل وجودها بقوله: «إنَّ جوف الأرض الملتهب يبرد فينكمش فتتقلص القشرة الأرضية من فوقه وتتجعد، وأصبحت الجبال أوتاد الأرض وتحافظ على الغلاف الجويّ للأرض إضافة إلى حفظ التوازن مع الجانب المائي»[٤].

٢ ـ إن منابع الأنهار غالباً تكون في الجبال إذ تتكون السحاب الثقال على مرتفعاتها وتتساقط الأمطار والثلوج وتختزن المياه في منابعها داخل الجبال، وبعد ذوبان الثلوج على مرتفعاتها وتعود مياهاً وتجري هيناً حتى تعود إلى البحر ثم تتبخر ثانية وتتساقط مطراً على قمم الجبال[٥].

جـ ـ لتكون علامات دالة على الطرق والسبل المؤدية إلى المدن والقرى المشيدة على الفجاج ليهتدي بها السالكون كما يهتدي بنجوم السماء في البر

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن تأليف محمد صديق خان ج٥ ص٢٢٧.

(٢) النحل: ١٥.

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن ج٥ ص٢٢٦.

(٤) في ظلال القرآن، ج٤ ص١٦٣.

(٥) في ظلال القرآن، ج٤ ص١٦٢.

والبحر، فيلتقي غاية النجوم والجبال مما خلقا لها للدلالة على عظمة الله تعالى.

أما الغاية من خلق الليل والنهار وتكوير أحدهما على الأخرى فلمعرفة المواسم وأوقات العبادة والتجارة، ويقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ الإسراء ١٢.

فالليل والنهار آيتان دالتان على أحكام نظام الله وقدرته فالليل سكون وهدوء والنهار حركة وحياة وإبصار بانتظام من أجل أن:

أ ـ أن تبتغوا في النهار رزقاً مما أعد الله للأحياء على الأرض إذ يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾[١].

فالرزق تابع للحركة والسعي والعمل، والليل للراحة والإخلاد إلى النوم ليعيد النشاط والقوة.

ب ـ ولتعلموا عدد الأشهر والسنين والحساب ومواقيت الصلاة والصوم والحج، فلو كان الليل والنهار لا يختلفان في شيء أبداً من حركة وسكون ونور وظلام وطول وقصر وبرد ودفء لما تيسر معرفة السنين وحسابها[٢].

ولو بحثنا عن الغاية في خلق البحار في القرآن الكريم لوجدنا أن القرآن يرشدنا إلى أن الحياة على هذه الأرض مربوطة بوجود الماء وتصفية الهواء ونقائه يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[٣] وسخر البحر ليركبه

---

(١) الملك: ١٥.

(٢) تفسير الواضح ج١.

(٣) الأنبياء: ٣٠.

الإنسان ويبتغي من رزقه، يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾[(١)].

يشير القرآن الكريم إلى أن الإنسان يحظى برعاية الله تعالى الذي سخر الخلائق الكونية الهائلة له، لينتفع بها على شتى الوجوه منها الإهداء إلى سر الناموس الإلهي الذي يحكمهما، والبحر أحد هذه الجبابرة الضخام التي سخرها الله للإنسان فهداه إلى شيء من سر تكوينها وخصائصها، وعرف منه عن هذه الفلك التي تمخر هذا الخلق الهائل، وهي تطفو على أمواجه الجبارة ولا تخشاها[(٢)]، (لتجري الفلك فيه بأمره) أي أن خالق الكون جعل خصائص الضغط الجوي، وسرعة الرياح، وجاذبية الأرض وسائر الخصائص الكونية الأخرى مساعدة على أن تسير الفلك على ظهره بأمره تعالى، (ولتبتغوا من فضله) كالصيد للطعام وللزينة[(٣)]، وكذلك التجارة والمعرفة والتجربة وسائر ما يبتغيه الإنسان من فضل الله[(٤)].

هذه الآيات وآيات أخرى ترشد الإنسان إلى التأمل في الغاية التي من أجلها خلق الله أجزاء الكون، وليطلع على أسراره وتبين للناس هذه الحقائق التي يؤيدها العلم الحديث، وهو يوجه قلبه بهذا القرآن إلى الارتباط بذلك، الأفق وإدراك ما بينه وبين الكون من وحدة في المصدر أو وحدة في الاتجاه إلى الله تعالى.

---

(١) الجاثية: ١٢، وكذلك آية ٦٦ من سورة الإسراء وآية ١٢ من سورة فاطر.

(٢) في ظلال القرآن، ج٥ ص٣٢٢٦.

(٣) بأن يخرج القواقع التي يتكون في جسمها اللؤلؤ نتيجة دخول جسم غريب فيها كحبة رمل، وكذلك النبات الحيواني التي يكون شعاعاً مرجانياً.

(٤) المصدر نفسه.

وحدة نظام الكون وربط الإنسان به

لقد أقام الله تعالى هذا الكون على قانون ونظام يحكمه ابتداء من خلقه إلى نهايته وأن هناك تناسقاً بين النواميس التي تحكم الكون كله بما فيه هذا المخلوق ـ الإنسان ـ وقواه وطاقاته كي لا يقع التصادم بين هذه القواميس وتلك، وحتى لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون الضخمة، وأراد الله أن يطلق يد الإنسان وأعطاه القدرة على استثمار الأرض وربطه بالكون وحثه على التفاعل معه بالفكر والتأمل الهاديين إلى الدليل على وجود الله ووحدانيته وسائر كمالاته، وليتخذ من قوى الكون المودعة فيه بواسطة الاكتشاف والاختراع ما به يقوى ويعز ويدافع عن الحق الذي ندبه الله بما خلق في هذا الكون من طيبات ينعم بها فيؤدي شكر خالقها.

وأن ظاهرة ربط الإنسان بالكون تتجلى بوضوح حتى فيما هو من قبيل العبادات العملية والأحكام الشرعية الدائمة بدوام الكون إلى أن تقوم الساعة ويرث الله الأرض، ومن عليها[(١)]، والاتصال بالكون ومظاهره في كل مجالات الحياة لينضم الإنسان إلى وحدة النظام الإلهي في الوجود، واتخذ القرآن من نظام الكون وإبداعه وإتقان صنعه، وتناسقه التام بين أجزائه برهاناً على وحدانية

---

(١) مجلة الهدى الإسلامي، تصدر عن جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية بالمملكة الليبية السنة السابعة العدد الثاني يونيو ١٩٦٨ مقالة الكون والإنسان في القرآن بقلم د. عبد الغني الراجحي ص

الله سبحانه وتعالى[١]، الذي جعل نزول القرآن منجماً تبعاً للحوادث والظروف من أجل أن يقرأه الرسول على الناس على مكث، ومن أجل سهولة الحفظ في الصدور وتعيه النفوس ويفهم معناه فهماً علمياً تطبيقياً، وليكون قانوناً ودستوراً يحكم به حسب ما أمر الله به[٢] ويقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾[٣].

وكذلك أن الإنسان في الحقيقة هو قمة الموجودات في هذا العالم، وهو بمثابة مرآة تتجلى فيها الكون كله[٤]، أي تتضح فيه الغاية التي خلق من أجله وهي معرفة الله تعالى التي هي من لوازم الإنسانية، وعبادته التي يدخل فيها مدلول الخلافة، إذ أن العبادة تتمثل في أمرين:

١ ـ استقرار معنى العبودية لله تعالى في النفس.

٢ ـ التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير والجوارح والحياة، والتجرد من كل شعور آخر ومن كل معنى غير معنى التعبد لله وبكل ذلك يتحقق معنى العبادة ويصبح العمل كالشعائر والشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله وغير ذلك، وكلها خضوع للناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله تعالى دون سواه، وتحقيق الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها[٥]، ومن يتدبر في خلق السموات والأرض وما فيهما من دقة ونظام

---

(١) المصدر نفسه ص٦٢.

(٢) ينظر تفسير الواضح ج١ ص٥٧٩.

(٣) النساء ١٠٥.

(٤) الإنسان والكون في الإسلام تأليف أبو الوفا الغنيمي التفتازاني طبع سنة ٧٥ ص٢٣.

(٥) ينظر في ظلال القرآن ج٦ ص٣٣٨٦.

وحكمة وتنسيق ملحوظ يتضح له عظمة الخالق الذي أعطى كل ذي حق حقه ولا يرى من تفاوت في خلقه، ويظهر القصد في إيجاده وانتقاء العبث في أي جانب من هذه الخلائق الهائلة[١].

وهكذا تبدو الغاية في هذا الكون الفسيح وفي الإنسان من أجلى مظاهرها أمام العقل المنصف الذي عرف حدوده وتخلى عن غروره، وما أجمل عبارة أينشتين:

«الشخص الذي يعتبر حياته وحياة غيره من المخلوقات عديمة المعنى ليس تعساً فحسب ولكنه غير مؤهل للحياة»[٢].

ويتحدث ابن القيم عن التوافق العجيب بين الكون والإنسان مبيناً: (إن كل ما في العالم من كائنات قد خلق على نحو يتوافق تماماً مع مصلحة الإنسان ومتطلبات حياته، بحيث لو خلقت هذه الكائنات على نحو آخر لفاتت الحكمة المقصودة من خلقها وإيجادها[٣].



(١) ينظر في ظلال القرآن ج٥ ص٣٢١٦.

(٢) الله يتجلى في عصر العلم ص١٤٥. وينظر الإنسان والكون في الإسلام ص٧٨.

(٣) مجلة كلية الشريعة في الأحساء، ص٤٣٠.

المبحث الثالث

دلالة الكون على الخالق

لو بحثنا عن الخالق عن طريق آثاره لوجدنا أن كل ذرة من ذرات هذا الكون ترشدنا إلى وجود خالق مدبر لهذا الكون، ويمتلك الإنسان من آلات، التفكير والبحث في هذا الكون الفسيح ما لا يملك غيره من الكائنات، ليبحث بواسطة هذه الآلات دقائق تكوينه وأجزائه، وليعلم أن هذا التناسق البديع بين عناصره لا يمكن أن تنشأ من تلقاء نفسها أو عن طريق الصدفة، بل من صنع إله حكيم عليم لا ندرك كنهه.

وكذلك إن العلوم البشرية التي تكونت قواعدها بحكم طبيعتها المادية أعجز من أن تبحث عن الله تعالى بطرقها المادية أو أن تدرك كنه ذاته تعالى، ولكن ملاحظة عجائب هذا الكون قد دعت كثيراً من علماء الفلك الأمناء إلى الاعتقاد بأنه لا بد أن يكون لهذا الكون الفسيح من مدبر لا نراه، ويقول (تشاد والش) أحد علماء الفلك: (إن ما يطلب إلى أي إنسان سواء أكان مؤمناً أم ملحداً هو أن يبين لنا كيف تستطيع المصادفة أن تخلق هذا الكون).

ويقول توماس ميللر عالم من علماء الطبيعة (إن ما يستطيع أن يدركه العقل البشري الفاني عن الله لا بد أن يكون نتيجة خبرة ومعرفة بالله والخبرة لا

بد أن تأتي أولاً، والمعرفة تأتي بعد الخبرة وتكون مجرد تفسير لها[١]. فإن الدوافع الداخلية التي تدعو البشر إلى الإيمان بالله متنوعة وكثيرة لا يحصيها حصر ولا عد، ولكنها قوية في دلالتها على الخالق مؤدية إلى الإيمان به.

ولو نظرنا في نظام الكون المتطور لوجدنا أن هناك قصداً معيناً أو غاية وراءه قائم على أساس الحكمة، وهو واضح من اختلال الليل والنهار وتعاقب الشمس والقمر وحدوث فصول السنة، واختلاف الألسن والألوان دليل للعالمين بشؤون الكون وقوانين الحياة على وجود الله تعالى وراء هذا الكون.

لقد حث القرآن الكريم الإنسان على التفكر والنظر في آثار خلق الله المنظورة[٢] من السموات والأرض بمعانيها اللغوية والاصطلاحية[٣]، ليكون ذلك النظر سلماً للوصول إلى وجود الخالق الذي أمر الإنسان بالتفكير والنظر وقال: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[٤]، وقال: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾[٥]، لأن النظر والتدبر في أجزاء الأرض والسماء يزيل رواسب الشك في قلب الباحث عن الحقيقة وتجلو له حقيقة عدم التفاوت بين خلق الله تعالى ويقول تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾[٦].

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص٦١ مقالة برفنج وليام نوبلوتشي أستاذ العلوم الطبيعية في أمريكا ـ عنوان المقالة (المادية وحدها لا تكفي).

(٢) سواء كان النظر بالعين المجردة أو بواسطة الأجهزة الخاصة لذلك.

(٣) أي ما يطلق عليه اسم السماء في اللغة على كل ما علاك من السحاب والغلاف الجوي والكواكب والمجرات، وفي الاصطلاح: هو الجرم الذي يسبح في داخله الأجرام السماوية المتماسكة.

(٤) يونس: ١٠١.

(٥) العنكبوت: ٢٠.

(٦) الملك: ٣ ـ ٤.

غير أن كثيراً من علماء هذا العصر لا يبصرون أجلى الآيات المجاورة لهم ولا يعرفون أسرارها بل يعرضون عنها دون التدبر في محتوياتها يقول تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴿١٠٥﴾﴾[(١)]، أي فكثير من الآيات في السموات والأرض وما فيهما يمرون عليها مرور الحيوان لا يلتفتون إليها ولا يؤمنون بها مع كون هذه الآيات علامات مضيئة دالة على قدرة مصممة وفاطره[(٢)].

(ومما يلاحظ بوضوح في منهج التربية القرآني كثرة توجيه الإدراك البشري إلى ما في الكون وما في الأنفس من أمارات وآيات، وتوجيه هذا الإدراك إلى مصاحبة صنعة الله في الأنفس والآفاق، ذلك أن هذه المصاحبة فوق أنها تنبه الإدراك البشري إلى معرفة الصانع من صنعته، وإجلاله بإدراك عظمته من عظمة صنعه، وحبه بإدراك عظمة أنعمه فهي في الوقت ذاته تطبع الإدراك الإنساني بخصائص تلك الصنعة من دقة وتناسق وانتظام لا خلل فيه ولا تصادم ولا تفاوت[(٣)]، ومن ثم يكثر التوجه إلى هذه الظاهرة في الكون والمكنونة في النفس لتلقي المعرفة من كتاب الله المفتوح كتلقي المعرفة من كتاب الله المقروء في تناسق وتوازن يجمع بين مصادر المعرفة كلها في غير تصادم ولا تعارض وفي غير تأليه ولا تحقير[(٤)]، إذ أن القرآن يرشدنا إلى الله في أطوار خلقنا ونشأته الأولى ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴿٦٢﴾﴾[(٥)]،

---

(١) يوسف: ١٠٥.

(٢) تفسير الواضح ج١ ص٤٩٤.

(٣) خصائص التصور الإسلامي ص١٦٦ ـ ١٦٧.

(٤) المصدر نفسه، ص١٦٧.

(٥) الواقعة: ٦٢.

ويجعلنا أمام امتحان وأسرار يتوقف أمام أسئلة الحس الظاهري بل يحتاج إلى أعمال الفكر والتعمق في حل رموزه، فإن ذلك التفكير يوصل الإنسان إلى الإذعان والإقرار بوجود الله.

يلفت أنظار الناس إلى الأرض وإرساء الجبال لها يتعلق بهما حياة الإنسان وفيها قراره وسكناه ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴿٢٠﴾﴾[١]، ويقول ابن كثير: (من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة مما قد ذرا فيها من صنوف النبات والحيوان والجبال والقفار والأنهار والبحار واختلاف السنة الناس وألوانهم، وما جبلوا من الإرادات والقوى وما بينهم من التفاوت في العقول والفهم والحركات والسعادة والشقاء وما في تركيبهم من الحكم في كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه، وكل ذلك مع كل ما في هذا الكون ينطق بلسان الحال أنه من صنع إله خالق)[٢].

ولو ذهبنا إلى عالم الحشرات فقد يكفينا أن نفحص خلية النحل لكي تستولي علينا روعة الدقة والكمال والتشابه العجيب بين عيونها، وكل خلية من ملايين الخلايا الموجودة في سائر أنحاء العالم مصممة بصورة هندسية وبدقة رائعة وتناسب العمل الذي خلقت من أجله إلى أقصى الحدود[٣]. وأن إحدى أنواع العناكب المائية تصنع لنفسها عشاً على شكل منطاد (بالوان) من خيوط بيت العنكبوت وتعلقه بشيء ما تحت الماء ثم تمسك ببراعة فقاعة هواء في شعر تحت جسمها وتحملها إلى الماء ثم تطلقها تحت العش، ثم تكرر هذه العملية حتى ينتفخ العش وعندئذ تلد صغارها وتربيها آمنة عليها من هبوب

---

(١) الذاريات: ٢٠.

(٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٣٥.

(٣) الله يتجلى في عصر العلم، ص١١٢.

الهواء، فها هنا نجد طريقة النسج بما يشمله من هندسة وتركيب وملاحة جوية[(١)].

وكذلك الفراشة إذا حملها الريح من خلال نافذة إلى علية بيتك فإنها لا تلبث أن ترسل إشارة خفية، وقد يكون الذكر على مسافة بعيدة ولكنه يتلقى تلك الإشارة ويجاوبها مهما أحدثت أنت من رائحة بعملك لتضليلها، ترى هل لتلك المخلوقة من محطة إذاعة، وهل لذكر الفراشة جهاز راديو عقلي فضلاً عن السلك اللاقط للصوت. (ايريال) أتراها تهز الأثير فهو يتلقى الاهتزاز[(٢)]؟، الجندبة (النطيط) الأمريكية تحك ساقيها وجناحيها معاً فيسمع صريرها هذا في الليلة الساكنة على مسافة نصف ميل، إنها تهز بها ستمائة طن من الهواء وتنادي رفيقها. والفراشة التي تعمل في عالم آخر من عوالم الطبيعة وفي سكوت ظاهر تنادي أيضاً مثل ذلك النداء المجاب[(٣)]، وما خلق الله في جسم بعض الكائنات من خلايا ذات قدرة على تصليح وتعويض ما يفقده من عضو والتئام الجرح نتيجة اصطدامه بجسم صلب، كل ذلك وغيره مما لا يحصى مرآه يتجلى فيها الدلالة على وجود الخالق تبارك وتعالى ومدير هذا الكون وموجهه ولا ندرك كنه الباري وكماله مهما اطلعنا على أسرار الكون، ويقول تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾[(٤)]، فكل إشارة في الآفاق والأنفس واختلاف الأجناس والأنواع والأكوان والأعراض والثمرات دليل على كمال القدرة والحكمة وجلال عظمته.

---

(١) العلم يدعو للإيمان كريسير موريسون، ص١١٩.

(٢) المصدر نفسه ص١٢١ـ ١٢٢.

(٣) المصدر نفسه ص١٢٢.

(٤) الحج: ٧٦.

الفصل الثالث

نهاية الكون

يوجد في النظام الكوني توازن بين الأجرام السماوية، وبين عدد البروتونات وعدد الإلكترونات، فلو اختل هذا التوازن بشكل ضئيل جداً، لاختل النظام المشاهد حالياً فيه رأساً على عقب[1].

وعلى هذا هل تتوقع حوادث كونية تُغيِّرُ من مسار هذا الكون وتغير نظامه؟. إن الذي يعين الجواب على هذا السؤال هو عاقبة التوسع الكوني، فإن كان التوسع الكوني بمقدار يزيد على سرعة الإفلات فإن التوسع سوف يستمر دون توقف، وهذا ما يسمى (الكون المفتوح).

أما إذا كان توسع الكون بمقدار يقل عن سرعة الإفلات من قوة الجاذبية، فإن التوسع سيقل تدريجياً، وتبدأ المجرات بالتقهقر والتراجع للتجمع في نقطة واحدة كما كان في بداية الأمر[2]، ـ وهذا ما يسمى (بالكون المغلق) ـ يقول تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾[3].

---

(١) شهادة الكون، ص١٢٨.

(٢) ينظر الانفجار الكبير ص٨٤ وشهادة الكون ص١٢٨.

(٣) الأنبياء: ١٠٤.

ويتضمن الكون المغلق قناعاً مشتركاً بين جميع أجزاء الكون ولا بد أن ينتهي في يوم من الأيام، لأن سرعة اتساع الكون ستتباطأ تدريجياً. ففي القرآن الكريم سور كثيرة حافلة بمشاهد هذا الانقلاب الكوني الرهيب الذي يتعرض له الوجود حين يأتي هذا اليوم الموعود، فينحل عقد نظام الكون وتتناثر أجزاؤه بعد انفلاتها من قيد قوانين الكون وينتهي إلى أجله المحتوم، وتختل روابطه وتنعدم ضوابطه التي تمسك به في هذا النظام ويعود دخاناً ورماداً تذروه الرياح كما كان أول الخلق، وتبطل قوة الجاذبية بين الأجرام السماوية وتتوقف عن الحركة فتصطدم بعض هذه الأجرام ببعض، ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ۝١٦﴾[1].

وحين ينتهي الاستعراض في صفحة هذا الكون المنظور وتطوى صفحة الخلق الفاني، وتتوارى أشباح الخلائق جميعاً ويفرغ الجمال من كل حي مخلوق[2]، يظهر بأن كل شيء هالك إلا وجهه ويفنى كل حكم، وحكم الحي القيوم باق بعد فناء خلقه وعندما يزول كل شيء ويفنى كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٢٧﴾[3] تخفق الأنفاس، وتخشع الأصوات وتبلغ القلوب الحناجر، وتسكن الجوارح وظل الفناء يشمل كل حي ويطوي كل حركة، ويغمر آفاق السموات والأرض ولا يملك العقل البشري والتعبير الفكري أن يصور الموقف ولا أن يزيد على النص القرآني الذي يسكب في الجوارح السكون الخاشع والجلال الغامر والصمت

---

(١) الحاقة: ١٦.

(٢) الظواهر الجغرافية، ص٧٣.

(٣) سورة الرحمن ٢٦ ـ ٢٧.

الرهيب الذي يرسم مشهد الفناء الخاوي[١]. فسكون الموت المخيم بلا حركة في جنبات هذا الكون الذي كان حافلاً بالحركة والحياة.

وفي المشهد الأرضي آنذاك كل شيء في تغيير وتبديل: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾[٢]، ونحن لا ندري كيف سيتم هذا ولا طبيعة الأرض الجديدة، ولكن القرآن يلقي الظلال الوارف على المشهد، أرض بلا جبال ولا وديان، ولكنها مبسطة كما يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾[٣]، وتحمل الأرض من مكانها الحالي بواسطة:

أ ـ قد يكون ذلك بريح قوية يبلغ من قوة عصفها آن تحملها.

ب ـ قد يكون بواسطة ملك يحملها.

جـ ـ بمصادمة بعض الأجرام السماوية فتنفصل الجبال وترتفع من شدة المصادمة وترتفع الأرض من حيزها[٤].

د ـ بمجرد قدرة الله من غير سبب ظاهر[٥] كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾[٦]، فبعد نفخ إسرائيل في الصور، يحدث عن هذا النفخ صوت عظيم وصيحة عالية بحيث

---

(١) في ضلال القرآن ج٦ ص٣٤٥٤.
(٢) إبراهيم: ٤٨.
(٣) المزمل: ١٤.
(٤) تفسير المراغي ج٢٩، ص٥٤.
(٥) تفسير أبي السعود ج٥ ص١٩٠.
(٦) الحاقة: ١٣ ـ ١٤.

تفوق تحمل الأحياء والجمادات فتتلاشى جميع ذرات الهواء وتتساقط الأحياء على الأرض، ويزيد من القوة ما تحمل الأرض فتدك بضرب بعضها ببعض ضربة واحدة حتى اندكت وتقطعت أوصالها وصارت الجبال كثيباً مهيلاً[١].

فإذا أوصل حجم الكون إلى ١/ ١٠٠ من حجمه الحالي فتصل درجة حرارته إلى درجة الأرض وقت النهار، وبعد ملايين السنين يصل بريق الفضاء إلى حد لا يحتمل كما يرى بعض الباحثين، وبعد بضعة مئات الآلاف من السنين ترتفع درجة الحرارة إلى ملايين الدرجات، وتبدأ النجوم بإطلاق صرخات الموت وهي تذوب في حساء كوني مؤلف من إشعاعات والكترونات ونوى الذرات، وفي ظرف أيام يتحول الكون كله إلى حساء كوني يغلي غلياناً هائلاً ويستمر حجمه بالنقصان حتى يصل حجمه إلى الصفر ثم يختفي[٢].

والفناء الكوني الذي ذكره القرآن الكريم بواسطة نفخ الصور لا يخلو من أمرين:

أ ـ هي السيحة القوية بدليل قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾[٣]. فهذه الصيحة تصعق كل حي، وتنتهي بها الحياة والأحياء، فتأخذهم بغتة وهم في جدالهم وخصامهم في معترك الحياة لا يتوقعونها ولا يحسبون لها حساباً[٤].

ب ـ قد تكون النفخة صاعقة تلتهب فيها كل ذرات الهواء وتتغلب

---

(١) المصدرين السابقين نفسهما.

(٢) الانفجار الكبير ص٨٧.

(٣) يس: ٢٩.

(٤) في ضلال القرآن ج٥ ص٢٩٧٢.

الهيدروجين السام فينتهي معالم الحياة وتصبح الأرض مستوية لا عوج فيها، ويقول تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2].

جـ ـ قد تكون النفخة ريحاً شديدة تبلغ من السرعة والقوة ما تحمل والجبال وتحدث فيها ما شاء الله أن يفعله كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾[3]، فالنفخ إدخال الهواء أو الأشياء المحسوسة في شيء ويحدث فيه حركة كقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾[4]، وعند إدخال الروح في جسد آدم تحرك وأحدث الحركات الموكولة إليه في إطاره.

وهناك من الأدلة المنظورة المنذرة بنهاية الكون المنظور من قيامات صغرى التي تقع على سطح الأرض على نطاق واسع مرة بعد أخرى، وفناء وتغيير في عالمي الأحياء والجماد. ومن هذه الدلائل:

أ ـ ظاهرة البراكين والزلازل التي تنذرنا بإمكان القيامة، فالإنذار الأول للأحياء خسف الأرض تحت أقدامهم، وانفجار (الديناميت) الإلهي التي تنفجر بإرادته وأمره، فبطن الأرض يحتوي على مواد شديدة الحرارة نشاهدها عند انفجار البراكين وهذه المادة تؤثر على الأرض بشتى الطرق، وقد تصدر عنه أصوات مروعة رهيبة وما نحس به من الهزات الأرضية، ولا تزال هذه

---

(١) الزمر: ٦٨.

(٢) النمل: ٨٧.

(٣) الحاقة: ١٣.

(٤) الحجر: ٢٩.

الأصوات والهزات رهيبة في حياة الإنسان المعاصر على الرغم من تقدم العلوم والتكنولوجيا، كما كانت رهيبة في حياة الإنسان القديم[١]، وهي تذكر الإنسان دائماً بأنه يعيش فوق مادة حمراء ملتهبة لا يفصله عنه سوى قشرة الأرض وهذه لا يزيد سمكها عن خمسين كيلومتراً، وهذه القشرة بالنسبة للأرض بمثابة القشرة من ثمرة التفاح.

ويقول العالم الجغرافي جورج جامو (أن هناك جهنم طبيعية تلتهب تحت بحارنا الزرقاء، ومدننا الحضارية المكتظة بالسكان، وبكلمة أخرى نحن واقفون على ظهر لغم (ديناميت) عظيم جداً ومن الممكن أن ينفجر في أي وقت ليدمر النظام الأرضي بأكمله[٢].

فالبراكين تشمل جميع نواحي الأرض، ولا تخلو الجرائد كل صباح من أخبارها من حدوث تدمير مدينة بكاملها نتيجة بركانات عديدة أو زلازل عالية الدرجة في أرجاء الأرض، أو نزول خوارق آتية من السماء على من طغى عليها كما حدث للأقوام القديمة.

وفي تلك اللحظة يشعر الإنسان بعجزه أمام قوى الطبيعة التي بثها الله سبحانه وتعالى في الكون، ومن المعلوم أن الزلازل تقرع أبواب المدن بغتة دون إنذار ولا يتمكن الإنسان أن يتنبأ بموعد وقوعها في أكثر الأحيان، وهي تنبىء عن القيامة الكبرى التي سوف يفاجىء الإنسان في يوم من الأيام على غفلة منه[٣].

---

(١) الإسلام يتحدى، ص٨٢.

(٢) الإسلام يتحدى، ص٨٢.

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

ب ـ أما بالنسبة لهذا الفضاء الموغل في العمق والارتفاع الذي تدور فيه نيران هائلة لا حصر لها، وهي (السيارات والنجوم) في مداراتها وأفلاكها بسرعة عالية، ويمكن أن يتحول هذا الدوران في أي يوم إلى اصطدام عظيم لا يمكن تصوره، وفي تلك اللحظة يكون ما في الكون أشبه بآلاف بل ملايين من القاذفات النفاثة المليئة بالقنابل النووية، وهي تواصل رحلتها في الجو ثم تصطدم كلها مرة واحدة، وهذا ممكن وليس بغريب وهو غير واقع الآن، بل تسير على نظامه الثابت ذلك لأن هناك قدرة وراء تنظيم هذه السيارات النارية تمنع الاصطدام، وتؤكد دراسات علم الفلك إمكان اصطدام الأجرام السماوية، فإذا حدث الاصطدام حلت نهاية الكون[١].

جـ ـ فقدان الجسم لفاعليته، وانتهاء عملية الأجزاء التركيبية وتجمد الأنسجة العصبية وانتشار سموم بكتريا الأمعاء في الجسم، وعودة الإنسان إلى الضعف الذي يصيبه عند بلوغه أرذل العمر، وكذلك موت الخلايا وتجددها في جسم الكائن الحي إذ يعد الجسم بمثابة مقبرة للأموات ومدينة مكتظة بالسكان للأحياء، وأن المواد الزلالية التي توجد في خلايا دمائنا تتلف كذلك ثم تتجدد، وكذلك كل الخلايا في جسمنا إلا الخلايا العصبية، وتفيد البحوث العلمية أن دم الإنسان يتجدد كلياً خلال ما يقرب من أربع سنين كما تتغير جميع ذرات الجسم الإنسان في بضع سنين، ويتضح من ذلك أن جسم الإنسان ليس هيكلاً وإنما هو كالنهر الجاري في جريان وعمل مستمر، وهو لا بد أن ينتهي في يوم من الأيام[٢].

د ـ أن الكون خلق لهدف معين، لم يخلق عبثاً يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا

---

(١) الإسلام يتحدى، ص٨٣.

(٢) الإسلام يتحدى ص٨٠.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾[١]، ويقـــول: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾[٢]، ونهاية هذا الكون المتتبعة لقيام الآخرة ذات هدف عظيم هو المجازاة على أعمال الدنيا إن خيراً فخير وإن شراً فشر وهذا الجزاء يتضح جلياً حين نعلم أن أعمال كل إنسان تحفظ وتسجل وتصور بصورة مستمرة وبغير توقف يرافقه شريط مسجل إلهي وكاميرة متجولة معه يسجل[٣]، ويصور[٤]، كل حركاته من خير ومن شر سراً كان أو جهراً ويرفع على شكل تقارير ليحفظ في ملفه الخاص كما يحفظ أوراق الموظف خلال عمله الوظيفي، فيحفظ كتاب الأبرار في عليين، وكتاب الفجار في سجين.

وللإنسان ثلاثة أبعاد وهي بنيته، وقوله، وعمله، وهذه الأبعاد الثلاثة تسجل بأكملها ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾[٥]، ولقد أثبتت التجارب العلمية أن جميع أفكارنا تحفظ في شكلها الكامل ولسنا قادرين على محوها أبداً، وأن الشخصية الإنسانية لا تنحصر فيما نسميه الشعور، بل هناك أجزاء أخرى من الشخصية تبقى وراء الشعور[٦].

---

(١) الدخان: ٣٨.

(٢) المؤمنون: ١١٥.

(٣) لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ الجاثية: ٢٩.

(٤) لقوله تعالى ﴿ليروا أعمالهم﴾ الزلزال.

(٥) ق: ١٨.

(٦) الإسلام يتحدى، ص٨٦ ج.

بعض الأمثلة على نهاية الكون في القرآن الكريم:

لقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بأن الجبال والبحار والأجرام السماوية كلها يلحقها الدمار الشامل قبل يوم القيامة.

١ ـ فأما الجبال: فالقرآن الكريم يتكلم عن فنائها في إحدى عشرة آية إعلاماً بنهاية الكون وبمجيء الساعة موزعة في سورة[١]، ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴿٣﴾﴾[٢]، فسير الجبال حدث من الأحداث التي تقع بين يدي الساعة فلا يبقى للجبال أثر، ويقول أيضاً ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴿١٠﴾﴾[٣]، فنسفها إزالتها وجعلها هباء[٤].

ويقول تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴿١٠٧﴾﴾[٥]، فالنسف والتسيير ظاهرتان تختلفان من حيث الحقيقة، فأما أن يقعا على التعاقب، فتسير الجبال ثم ينسف وإما على التقسيم فيسير بعض الجبال وينسف البعض الآخر، ولكن الاحتمال الأول تمنع منه آية سورة النبأ ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴿٢٠﴾﴾[٦]، أن الجبال بعد أن انتهى بها التسير إلى أن تفنى وتكون سراباً لا يمكن أن يلحق بها نسف

---

(١) موزعة في سور: المزمل، والتكوير، والقارعة، والمرسلات وطه والكهف والطور والحاقة والمعارج والنبأ.

(٢) التكوير: ٣.

(٣) المرسلات: ١٠.

(٤) الإعجاز العلمي للقرآن تأليف محمد أحمد الغمراوي ص٢٦٥.

(٥) طه: ١٠٥ ـ ١٠٧.

(٦) النبأ: ٢٠.

وقد انعدمت بالفعل، فلم يبق إلا الاحتمال الثاني ويتعين أن يكون الفناء عن طريق التسيير خاصاً ببعض الجبال، والفناء عن طريق النسف خاصاً بالبعض الآخر، وهذا يقتضي أن تكون الجبال صنفين:

أحدهما: يقبل بفطرته أن ينسف بعد أن يصير بالرجفة كثيباً مهيلاً.

والثاني: يقبل بفطرته أن يسير حتى يصير سراباً[١].

وفي آيتي المعارج والقارعة ما يؤيد أن الجبال صنفان، لأنهما تذكران تحولاً تصير إليه الجبال يخالف ويقابل ما تصير إليه من كثيب مهيل كما في آية المزمل[٢]: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾. وعلى هذا فالجبال التي تصير كالصوف: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾. في تكوينها وطبيعتها غير الجبال التي تصير كثيباً مهيلاً يوم الرجفة كما وصف الله هذا الصنف من الجبال في سورة فاطر ويقول: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[٣]، حيث إن هذه الجبال هي التي تصير بالقارعة كالصوف المصبوغ، وإن (من) التبعيضية في آية فاطر تدل على أن الملون من الجبال هو الذي يصير كالعهن لا مطلق الجبال.

٢ ـ البحار قبل يوم القيامة:

إن هذه البحار والمحيطات الضخمة لا تنجوا من هول ذلك اليوم حيث خلق الله فيها قابلية الاشتعال واستجابة نداء الله إيذاناً بنهاية الدنيا وما على

---

(١) الإعجاز العلمي للقرآن ص٢٧١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) فاطر: ٢٧.

الأرض من الماء وغيره، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝﴾[١]، ويقول: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝﴾[٢]، ويقول: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝﴾[٣].

فقال مجاهد والحسن بن مسلم في معنى (سجرت) أوقدت وقال ابن عباس يرسل الله عليها الرياح الدبور فتسعرها وتصير ناراً تتأجج[٤].

وقال محمد محي الدين عبد الحميد في تفسير (سُجّرتْ): وقد اختلف العلماء في بيان المراد منه، فذهب قوم إلى أن تسجيرها معناه إيقادها واشتعال النيران فيها. وقال آخرون أن معناها فجرت واختلطت ماء بعضه ببعض[٥]، وقال القاضي البضاوي في معنى (سجرت) أحميت أو ملئت بتفجير بعضها إلى بعض حتى تعود بحراً واحداً، من سجر التنور إذا ملأه بالحطب ليحميه[٦].

ومعنى فجرت أي فتحت وشققت جوانبها فزال ما بينها من البرزخ واختلط العذب بالإجاج[٧].

ويمكن أن يكون معنى (سجرت) تفجير عناصرها وانفصال الهيدروجين عن الأوكسجين فيها، أو تفجير ذراتها على تفجير الذرة وهو أشد هولاً، وحين يقع هذا فإن نيراناً هائلة لا يتصور مداها تنطلق من البحار، وإذا انفجرت على

---

(١) التكوير: ٦.

(٢) الطور: ٦.

(٣) الانفطار: ٣.

(٤) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٧٦.

(٥) بصائر جغرافية ص٣٣٤.

(٦) تفسير البيضاوي تأليف القاضي بيضاوي: المتوفى سنة ٧٩١ هـ ج٢ ص٥٧٢.

(٧) تفسير روح المعاني للألوسي ج٣ ص٦٣، الانفطار.

هذا النحو فإن الإدراك البشري يعجز عن تصور هذا الهول، وتصور النار الهائلة التي تنطلق من هذه البحار الواسعة[١].

وقد توصل العلماء إلى أنه يقع في أعماق المحيطات آيدروجين طليق يتكون من ذرات ثقيلة، ومن الممكن تحطيم هذه الذرات بفعل ضغط كهربي من صاعقة أو حرارة شديدة تندلع بصورة مفاجئة من باطن الأرض الملتهب عبر شق يحدثه انكسار في صخور القاع النارية[٢]، وإذا حدث هذا في ذرات الهيدروجين فإن خاصية الاشتعال السريع التي يتمتع بها ستحول المياه جميعاً إلى نار وجحيم وتجف كلها في وقت قصير.

وبذلك يثبت أن ما جاء في الآية الكريمة (وإذا البحار سجرت) هي الحقائق التي توصل إليها العلماء، عندما أسدل الله الستار عن الغيب الذي سمح للإنسان أن يطلع عليه ويتضح له الأمر فيما بعد، فكل ذلك واقع لا محالة عندما تأتي النهاية.

٣ ـ السماء:

يقرر القرآن أن السماء هي الأخرى لا تنجو من هول ذلك اليوم، وتوحي بخضوعها لوقوع الحق عليها، ويقول تعالى:

﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠﴾[٣].

ويقول: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾[٤]، ويقول:

---

(١) في ظلال القرآن ج٦ ص٣٨٣٩.

(٢) الظواهر الجغرافية ص٧٩.

(٣) الدخان: ١٠.

(٤) الرحمن: ٣٧.

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ١٦﴾[١].

ويقول ابن كثير في تفسير آية الدخان: أنه من المنتظر المرتقب «وهو واضح بين يراه كل واحد»[٢].

وقال في تفسير آية سورة الرحمن: أن السماء تذوب كما يذوب الدردي[٣] والفضة في السبك العظيم[٤].

لقد ذكر الله تعالى أن مادة الكون قبل خلق السموات والأرض كانت دخاناً ثم يعيدها الله إلى نفس المادة الأولى قبل الخلق، إذ يقول تعالى: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ﴾[٥]، ويقول القاضي البيضاوي (نعيدها خلقناه مبتدأ إعادة مثل بدئنا إياه في كونهما إيجاداً عن العدم أو نعيد مثل الذي بدأنا، وعلينا إنجازه لا محالة)[٦]. فسجل السماء يطوى بعوالمها كما يطوى السجل، والآيات التي وردت في نهاية الكون تشير إلى وقوع دمار كامل في هذه الأفلاك والكواكب بعد انفلاتها من النسق الذي يحكمها الآن[٧]، فالقمر يخسف ويطمس نوره والشمس تنطفي شعلتها والنجوم تنكدر وتنطفىء شعلتها وتنتهي جميع الأشياء وتموت الأحياء ولا يبقى إلا

---

(١) الحاقة: ١٦ ، وآيات أخرى في سورة التكوير والانفطار والقيامة.

(٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٣٩.

(٣) الدردي: الزيت وغيره ما يبقى أسفله.

(٤) المصدر نفسه ص٢٧٥.

(٥) الأنبياء: ١٠٤.

(٦) تفسير البيضاوي ج٢ ص٨٠.

(٧) في ظلال القرآن ج٦ ص٨٣٤٥٦

الباقي وينادي: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾(١).

والذي يستثنى من هذا الدمار الشامل على ما يبدو ثلاثة أشياء:

أ ـ الأرض التي تتغير شكلها وتبدل ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ﴾.

ب ـ العرش الذي تحمله الملائكة ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ الحاقة: ١٧.

جـ ـ صحائف الأعمال التي يدون فيها أعمال العباد، ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾.



(١) غافر ١٦.

الفصل الرابع

نظرة القرآن إلى الكون

المبحث الأول: مخلوقية الكون

لو تأملنا في هذا الكون الفسيح نرى أنه بكل ما يحتويه من أجرام مضيئة منتشرة في فضائه كأنها مصابيح معلقة في أعمدة عالية غير مرئية وكائنات وذرات قائمة على أساس ثابت لا يضطرب، وتسبح هذه الأجرام في أفلاكها كل في مدارها الخاصة وبسرعة مقدرة بها لا يحيد عن مدارها قيد شعرة مما يدل على أنه حادث وأن له محدثاً أجرى فيه هذا النظام ويحوله من هيئة إلى أخرى، وكلما تقدم العلم أكثر أعطى الدليل بوجه أدق وأكثر إقناعاً على هذه الظاهرة، إذ أن وضوح الأدلة وتعاضدها لم يبق مجالاً للشك فيما ذكرنا وقد اعتقد الناس قديماً بأزلية الكون وعبدوا الشمس والكواكب وأنه هو خالق نفسه[١]، غير أن قانون الديناميكا الحرارية يؤكد على أنه لا بد أن يكون لهذا الكون بداية، فإذا كان له بداية فلا بد له من مبدىء من صفته القدرة والإرادة والقدم[٢] فهناك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة

---

(١) الله ـ سعيد حوى ص٢٢.

(٢) الله يتجلى في عصر العلم ص٤.

ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية، ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب منها معين الطاقة ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيماوية أو طبيعية ولن يكون هنالك أثر للحياة نفسها في هذا الكون[١]. واستدل (فرانك ألان) عالم الطبيعة على عدم أزلية الكون بقانون الحرارة ويقول: (كثيراً ما يقال أن هذا الكون المادي لا يحتاج إلى خالق، ولكننا إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود فكيف وجد ونشأ ونشأته؟) ويقول فرانك في الإجابة على هذا السؤال: هنالك أربعة احتمالات للإجابة على هذا السؤال:

أ ـ إما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال، وهو ما يتعارض مع القضية التي سلمنا بها حول وجوده.

ب ـ إما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم وهذا ما لا يتفق مع الوجود أيضاً.

جـ ـ إما أن يكون أبدياً ليس لنشأته بداية، وهذا يشترك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون وذلك في عنصر واحد هو الأزلية. إذن فنحن إما أن ننسب صفة الأولية إلى عالم ميت، وإما أن ننسبها إلى إله حي يخلق وليس هناك صعوبة فكرية في الأخذ بأحد الاحتمالين أكثر مما في الآخر، ولكن قانون الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً وأنها سائرة في الانخفاض حتى تصل إلى الصفر المطلق، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة، ولا مناص عند حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقة عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق بمضي الوقت.

---

(١) الله. سعيد حوى ص٢٢.

٢ ـ إما أن يكون له خالق فالقانون يثبت أن الكون ما دام فيه حرارة فلا يمكن أن يكون أزلياً، لأن الحرارة لا يمكن أن توجد نفسها بعد برودته ولو كان أزلياً لكان بارداً(١).

ومن الدلائل على مخلوقية الكون: قبوله تلك التغيرات والحوادث المتكررة عليه دون أن يكون له القدرة من رفعها عن نفسه، وأن هناك من يخلق فيه هذه التأثيرات ويديره حسب إرادته ليتفكر الإنسان في هذا الوجود وينفي عنه صفة الألوهية، ويذعن بأن لهذا الكون بداية أوجده خالقه حين أراد إيجاده، وقد عبر العلماء عن قضية حدوث الكون وابتدائه من العدم كما يلي:

نظروا إلى الكون فوجدوا أن ما فيه يدل على نوعين:

نوع يقوم بذاته ونوع لا يقوم بلا ذات، فالجوهر والذرات تقوم بذاتها، ولكن الحرارة والأعراض لا تكون بلا ذات، وأن من طبيعة المخلوقات المحدثة أنها لا توجد بذاتها بل لا بد من موجد غير محتاج إلى من يوجده وهو الله تبارك وتعالى، يرينا تصرفه في ملكه وبدء الحياة وإنهائها وتقلب أحواله دون أن يكون للكون القدرة على المنع.

إن الله خلق المادة وضد المادة زوجين اثنين فعندما يتقابلان يتحولان إلى أشعة كاما، ففي بدء الكون لم تكن الجسيمات تملك حرية الحركة لذا فقد كانت هناك عمليات انتحار مستمرة عند اصطدام المادة مع ضد المادة، فبينما كان هناك خلق مستمر للمادة. كان هناك فناء مستمراً لها(٢)، وما كان للمادة أي سلطان على هذه التحولات سوء الإذعان والانقياد لأمر من يديره، وأن مادة الكون التي تدخل السرعة في قوامها على ذلك النحو إيجاداً وإعداماً هي

---

(١) المصدر نفسه ص٢٣ ـ ٢٤ وينظر الله يتجلى في عصر العلم ص٧.

(٢) الانفجار الكبير، ص٥٧.

الأخرى لا محالة متغيرة حادثة وليست أزلية، لأن الأزلية والحدثان متضادان متطاردان في برهان العقل، ألا ترى أن الأزلية نفي الحدوث، وأن الحدوث في الأزلية فيستحيل أن يكون الشيء أزلياً وحادثاً معاً[1].

لقد أشار القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى أن الكون مخلوق من العدم وفسح المجال للإنسان أن يلتمس الدليل النظري على مخلوقيته، نذكر من ذلك التوازن بين طلاقة المشيئة الإلهية وثبات السنن الكونية فالمشيئة الإلهية طليقة لا يرد عليها قيد ما، مما يخطر على الفكر البشري جملة[2]، ثم يوجه الأبصار والبصائر إلى تدبر سننه في الكون، والنظر في عواقبها وجريها وفق نظام دقيق، وترابط حوادثه بعضها ببعض، ما بين نظام سابق ونظام لاحق بانتظام وإطراد يدلان على أنها تتبع سنناً ثابتة وقوانين مطردة في حدوثها وحركتها، ويقول تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾[3].

أن قوانين التوازن والجاذبية والنسبية والحركة في قانون الله العام للكون متناسقة كل منها يؤدي دوره بإتقان محكم، وهذه القوانين كما تصدق على دوران الأرض حول الشمس في النظام الشمسي حول مركز المجرة والمجرة حول مركز الأفلاك جميعاً، تصدق أيضاً في أصغر خلق الله تعالى الذي نعرفه حتى الآن وهي الذرة التي تحتوي على نظام الدوران المدهش الموجود في النظام الشمسي والمتكرر في عوالم المجرات، هذا النظام في حركته ودورانه

---

(١) مجمع الأشتات تأليف د. عبد الله مصطفى النقشبندي ص٦٩.

(٢) خصائص التصور الإسلامي ص١٣٧.

(٣) يس: ٣٨ ـ ٤٠.

صورة مصغرة من نظامه الشمسي، مكون من الكترونات تدور بسرعة رهيبة داخل الذرة حول النواة، دون أن يصطدم الكترون بآخر والعجيب أن هذه الإلكترونات تدور حول النواة ملايين المرات في الثانية الواحدة في نظام واستمرار ودقة مقدرة تقديراً إلهياً(١).

إن هذا النظام الدقيق الجلي للناظر وتعاقب الليل والنهار وإرساء الجبال واستقرار الأرض وتجدد الحياة عليها بالأمطار واستمرارها بالهواء والحرارة والغذاء وعبر ذلك ينطق بالحق الذي لا ريب فيه وهو أن هذا الكون مخلوق من العدم وله بداية بدأ فيه، ولا يرتقي إلى مرتبة الألوهية كما اعتقده القدماء واتخذوا من كل عنصر من عناصره إلهاً، ثم قسموه بين آلهتهم المتعددة، وخصوا كل قسم منه بإله، كما كان لدى البابليين والمصريين والفرس وغيرهم من الحضارات كما أشرنا إلى طرق منها، غير أن هذا الكون كله ملك لله سبحانه وتعالى وتحت تصرفه ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾(٢)، لا ينازعه في ملكه أحد، يقول تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(٣)، ثم هيأ هذا الكون للحياة وسنخره للمخلوقات وخاصة الإنسان يقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾(٤) ويقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾(٥) وكل هذا الخلق الحادث المسخر والكائنات للإنسان ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(٦).

(١) المنهج الإيماني للدراسات الكونية ص٣٣.

(٢) الأعراف: ٥٤.

(٣) الأنبياء: ٢٢.

(٤) الجاثية: ١٣.

(٥) البقرة: ٢٩.

(٦) الملك: ٢.

المبحث الثاني

نشوء الحياة في الكون

المطلب الأول إعداد الأرض للحياة

لا تزال قضية الحياة غامضة أمام العلماء لا يمكنهم إماطة اللثام عنها مهما تطورت الأسباب والوسائل، لأن ذلك يفوق الطاقة البشرية وأوكل الله حقيقة الحياة إلى علمه إذ يقول: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[١]، ولقد حظيت الأرض بخلق خاص لتكون حاملة للكائنات الحية التي يخلقها الله تعالى عليها، وخلق كل مستلزمات الحياة في المادة التي انفصلت عن مادة السماء الأولى ثم بسط مادتها ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾[٢]، ولفظ (دحا) معناه، الشيء بسطه، ومدحي النعامة موضع بيضها[٣]، اللفظ يدل على شيئين:

أ ـ البسط مع الاتساع.

---

(١) الإسراء: ٨٥.

(٢) النازعات: ٣٠.

(٣) مختار الصحاح ص٢٠٠ طبعة ١٩٨٣.

ب ـ التكوير في التكوين[١].

والله سبحانه وتعالى أبرز الجبال فوقها لتستقر وتثبت ليمكن الحياة عليها، لأن الله تعالى جعل إمكان الحياة على الأرض مقروناً ببسط الأرض ونصب الجبال ورفع السماء وخلق الجاذبية بين الأجسام المادية المسخرة في الكون.

ثم أخرج منها ماءها وغطى به أكثر الأرض وخلق في الأرض جاذبية تمنع الماء أن تهجر سطحها، وجعل مياه المحيطات راكدة عميقة مقابل القارات لتتوازن معها، وجعلها مالحة لتحافظ على صفاء الهواء ونقائها على الرغم من وجود غازات سامة وأخرى قاتلة على سطحها، ولكي لا تتعفن مياهها وتكون صالحة لحياة الحيوانات فيها ويقول سيد قطب: (ودحو الأرض وبسط قشرتها، بحيث تصبح صالحة للسير عليها، وتكوين تربة تصلح للإنبات وإرسال الجبال، وهو نتيجة لاستقرار سطح الأرض ووصول درجة حرارته إلى هذا الاعتدال الذي يسمح بالحياة..) ويقول: (هذه الموافقات التي تبدأ من كون المجموعة الشمسية التي تنتمي إليها أرضنا هي تنظيم نادر بين مئات الملايين من المجموعات النجمية، وأن الأرض نمط فريد بين الكواكب في المجموعة الشمسية الذي يجعلها صالحة للحياة[٢]، ويقول (كريسي موديسون): (وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهر ومعظمها سام فإنالهواء باق دون تلوث في الواقع، ودون تغيير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان وعجلة المتوازنة العظيمة هي تلك الكتلة

---

(١) الإعجاز العلمي في الإسلام ص٦٤.

(٢) في ظلال القرآن ج٦ ص٣٨١٦ ـ ٣٨١٧.

الفسيحة من الماء[١]، ويتبخر الماء باستمرار وتتجمع في الفضاء ليكون سحاباً على قمم الجبال[٢]، القريبة من البحر ثم يسوقه إلى البلد الميت ويسقيه وينبت به الزرع والنبات ليأكل منها كل حي.

وخلق الله في الأرض قوة جذب داخلية تجذب كل جسم على ظهرها ولولا هذه الجاذبية لما كان للأجسام عليها ثقل ولا وزن ولطارت هذه الأجسام عن الأرض بالحركة ولما عادت إليها، وينزل المطر من السحاب إلى الأرض بواسطة جذب الأرض وإلا لبقي السحاب معلقاً في الفضاء مهما كبرت قطرات مائه، أي لم يعد إليها بعد أن فارقها متبخراً بحرارة الشمس، ولجفت جميع المياه من على سطح الأرض في النهاية، فلا يكون عليها بحر ولا نهر، ولانعدمت الحياة بانعدام الماء[٣]، لأنالحياة مقرونة بوجود الماء قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ﴾[٤].

وكذلك سخر الله الجاذبية للإنسان في إجراء الأنهار تسير رويداً إلى سطح البحر، ومنع البحر أن يطغي بمائه الأجاج على النهر أو اليابسة، فهي ـ الجاذبية ـ دائماً تَحبِسُهُ في مستقره الذي هو فيه، فالبحر لا يستطيع أن يفارق

---

(١) العلم يدعو للإيمان ص٦٦.

(٢) إن وظيفة الجبال تتمثل في النقاط التالية:

أ ـ تثبيت الأرض.

ب ـ حدوث توازن بين القارات والمحيطات والمناطق الباردة والحارة مما أدى إلى استقرار الأرض كما بينا.

ج ـ تكوين السحاب فوقها وإرسالها إلى أماكن أخرى.

د ـ إنها منابع للمياه لتجري لمنفعة الناس.

(٣) في سنن الله الكونية محمد أحمد الغمراوي ص٢٩.

(٤) الأنبياء: ٣٠.

مركزه إلا بقوة أخرى تغلب قوة الجاذبية. فبجاذبية القمر تحدث ظاهرة المد وبجاذبية الأرض تحدث ظاهرة الجزر. وسخر الشمس والقمر لتمدا الأرض بالحرارة والإضاءة، ويعرف من عليها المواقيت والفصول وخلى الباري بين الأرض والقمر والكواكب الأخرى جاذبية لموازنة الأجرام السماوية ومنعها من السقوط والزلازل كما اعترف العلماء بوجود قوة وراء الكون تحرك هذه الأجسام الكونية وهي قدرة الله تعالى، كل ذلك لتكون الأرض مهداً آمناً للحياة ولتجد الإنسان كل ما يحتاجه عليها من مستلزمات الحياة ليعمر الأرض بالعمل والعبادة.

الغلاف الجوي للأرض:

يحيط بالأرض غلاف غازي له علاقة مباشرة بصميم الحياة، إذ أن جميع ما عليها من نبات وحيوان وإنسان وطيور وحشرات وغيرها متصل بالجو الهوائي بطريق مباشر أو غير مباشر، إذ لولا وجود هذا الغلاف الهوائي لم تحصل الحياة بشكلها المعروف وتشابهت الأرض ببعض الأجرام السماوية حيث لا يوجد غلاف غازي، أو يَقلَّ إلى حدٍ تنعدم الحياة على سطحها[١]، فلو اختل هذا التوازن الذي خلق الله بين الغازات الموزعة في الغلاف الهوائي وتغلب أحد الغازات على الأخرى لانتفت الحياة على الأرض كما انتفت على الكواكب الأخرى.

فالغلاف الجوي درع منيع وحزام قوي لحفظ الحياة على الأرض ويشتت الشهب والنيازك والأجسام الساقطة عليها فيصلها على شكل الغبار أو

---

(١) بصائر جغرافية تأليف عبد رشدي العامري ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

أحجام صغيرة يحدث فيها ضرراً، وكذلك يحافظ على توازن الأرض في الفضاء ويمنع الماء من التسرب إلى الجو، ويتخلخل فيه الأشعة القاتلة الآتية من الشمس، فما تصل إليها إلا ما يعطي للأرض الحياة وقد شبه الله من فسدت فطرته وساءت نفسه إذا طلب منه أن ينظر إلى الدين وفي ملكوت الله فإنه يجد في نفسه ضيقاً بالصاعد في السماء فإنه كلما ارتفع وخف الضغط عليه شعر بضيق في النفس وحرج في القلب، فالعلاقة بين المشهدين، أن المفسد فطرته يشعر بضيق شديد وحرج كثير كمن يصعد في طبقات[1] الجو[2]، كما يقول تعالى ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[3]. ويتصلب جانب البر وجريان

---

(١) أ ـ تربو سفير: وعمقها حوالي ٨ ـ ٦ كم حيث تكون فيها الغازات كثيفة إلى عمق ٨ كم، وهي مهمة لوجود الحياة.

ب ـ الستراتوسفير: وعمقها ١٥٠كم وتتضمن طبقة الأوزون التي تكون حزاماً واقياً للكرة الأرضية من الإشعاعات الكونية الضارة التي تصل الأرض من الفضاء الخارجي، وتختلط الغازات في الهواء اختلافاً ميكانيكياً وليست ممزوجة مزجاً كيمياوياً فلولا ذلك لتحولت إلى غاز واحد بعد التفاعل ولما أمكن أن يكون له من تنوع الخواص والمؤثرات ما للهواء الحالي.

جـ ـ طبقة الأيونوسفير: وتمتد إلى حوالي ٤٠٠ كم، ومن خواصها عكس الموجات الراديوية والتلفزيونية إلى الأرض وتوجد الذرات بشكل أيوني.

د ـ طبقة الميزوسفير: وهي امتداد لطبقة الأيونوسفير حيث تكون فيها الكثافة الغازية قليلة جداً.

هـ ـ طبقة الأكسوسفير: وهي الطبقة الخارجية من الجو، وتوجد فيها ذرات الهواء بصورة طليقة وحرة بحيث تتمكن من الإفلات من جو الأرض. نقلاً عن كتاب المجموعة الشمسية ص٢٠ وبصائر جغرافية بتصرف ص١٠٩ وما بعدها.

(٢) تفسير الواضح ج١ الطبع الأولى ص٢٩١.

(٣) الأنعام: ١٢٥.

الأنهار وكثرة المياه المالحة وثبات الأرض ومنعها من الاضطراب والهزات وإطلاق الهواء النقي وجعل السماء سقفاً محفوظاً وخلق الجاذبية بين الأرض والكواكب وبين الأرض والأجسام الموجودة عليها كل ذلك أعطى الأرض قابلية قبول استقبال الحياة فأصبحت مهداً معداً للحياة.

من أين جاءت الحياة؟ وكيف بدأت؟

إن المتفق عليه عموماً هو أنه لا البيئة وحدها ولا المادة مهما كانت موائمة للحياة ولا أي اتفاق في الظروف الكيموية والطبيعية تخلقه المصادفة، ويمكنها أن تأتي بالحياة إلى الوجود[١].

وقد اعتقد بعض العلماء، أن الحياة جاءت من بعض الكواكب الأخرى في شكل جرثومة إنسلت دون أن يصيبها تلف، وبعد أن بقيت زماناً غير محدود في الفضاء استقرت على الأرض ومن ثم تسلسلت الحياة على تلك الجرثومة، أو يقولون إنها وصلتنا عن طريق نيزك أصاب أرضنا[٢]. إن هذا القول لا يستقيم أمام القوانين التي تحكم الحياة، إذ كيف استطاعت هذه الجرثومة أن تبقى حية في درجة الصفر المطلق في الفضاء، وإذا استطاعت البقاء فكيف نجت من الإشعاع الكثيف ذي الموجة القصيرة الذي يقتل أمثالها وإذا بقيت حية فكيف وجدت لنفسها المكان الملائم والظرف المناسب حتى توالدت فبدأت الحياة، وفي حالة نزولها عن طريق النيازك فكيف سلمت أثناء الاشتعال الذي يحدث عندما يصطدم النيزك في جو الهواء بالغازات المحرقة

---

(١) العلم يدعو للإيمان ص٩٧.

(٢) الله ـ سعيد حوى ص٥٧.

للنيازك والأجسام الغريبة[1]، وإذا أسلمنا ذلك فكيف بدأت الحياة على الكوكب الأول؟.

إن الخلية الواحدة على بساطتها ينبغي أن تقوم بجميع وظائف الحياة من تغذية وتنفس وتغير وحرارة معينة ونمو وتكاثر وتلائم مع البيئة، ولذلك فإن الخلية من التعقيد والتصميم لا تقل أبداً عن أي كائن آخر، واعترف بهذه الحقيقة كثير من العلماء الماديين أمثال (بخنر) من أنه لا يمكن أن تنشأ الكرية الأولى من المادة.

وإذا تأملنا في المادة والطاقة و(الاميبا) والخلايا ندرك أن الله وراء سر الحياة ابتداء وانتهاء نشأة وأنواعاً إذ نشاهد آلاف الأنواع من الكائنات في مختلف البيئات والأجواء براً وبحراً ما لا يدع مجالاً للقول بالنشئة من المصادقة أو عن طريق التولد الذاتي[2]، لأن التوازن المجيب بين الزرع وحياة الحيوان إنما استقر بهذا التقسيم، أي بين ما يحتاجه الحيوان من بعض الغازات وما يحتاجه النبات من الغازات الأخرى، فلو كانت الحياة كلها حيوانية لاستنفدت الأوكسجين إلى الآن، ولو كانت كلها نباتية لاستهلكت كل ثاني أوكسيد الكاربون وفي كلتا الحالتين كانت تنتهي هذه الحياة من الوجود[3]، ولأن

---

(١) المصدر نفسه، ص٥٨.

(٢) يقول تعالى في سورة الرعد: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

(٣) الإنسان لا يقوم وحده ص١٠٠.

المصادقة العمياء الخالية من الحياة لا تكون مصدراً للحياة. وهذا النظام المتوازن الدقيق في الكون.

لقد أثار القرآن الكريم إلى نشوء الحياة وبدئها من العدم ولكنه لم يتعرض لتفاصيل الإنشاء فهو سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾[1]، ويقول ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾[2]، فبدأ الله تعالى خلق الكائنات من ماء وأودع فيه سر الحياة وبين في هاتين الآيتين بأسلوب تقريري وحقيقة عامة وأسلوب اختصاصي إن هذا هو الماء المطلق الذي تعرفونه جميعاً خلق منه المخلوقات فاخلقوا إن استطعتم منه بشراً[3]، وكائناً ضعيفاً، فالحياة والخلق والأمر لله تعالى، وما ينسبون إليه الخلق من مظاهر الكون ليس لها من الأمر شيء يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[4]، ويقول ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾[5]، ومما يبدو من استعراض هذه النصوص أن الكون مخلوق لا خالقٌ، ونشأة الحياة التي هي أخفى الخفاء مع بداهتها لا يمكن تعليلها إلا بإيجاد القدرة القادرة (الله) لها تلك القدرة التي حتمت وجودها بدائع صنع الكون واختلاف الأكوان والأنواع والأجناس، وسلمت بها العقول السليمة، وما في هذه الحياة آية من آيات الله الدالة على عظمته.

(١) النور: ٤٥.

(٢) الفرقان: ٥٤.

(٣) سنريهم آياتنا تأليف د. أحمد شوقي إبراهيم مؤسسة الطبع للنشر والتوزيع، ص١٠٦.

(٤) الحج: ٧٣.

(٥) الأعراف: ١٩١.

المطلب الثاني

الحياة على الكواكب الأخرى

ليس هناك ما يمنع من وجود حياة بوجه من الأوجه على سطح بعض الكواكب الأخرى، وثبت للعلماء من خلال دراساتهم للأجرام السماوية أنه ما من عنصر موجود في تركيب هذه العناصر ـ إلا وله شبيه في الأرض ما يقابله، فالذرة مثلاً بكهاربها وبروتوناتها وما يجري فيها من حركات تشبه النظام الشمسي والنظم الشمسية الأخرى[١].

ولو تأملنا في الآية السادسة من سورة (طه) لوجدنا أنها قسم الوجود إلى أربعة أقسام:

أ ـ ما في السموات.

ب ـ ما في الأرض.

جـ ـ ما بين السموات والأرض.

د ـ ما تحت الثرى حيث يقول تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ

(١) الكون العجيب قدري حافظ ص٨٢.

وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴿٦﴾﴾[١]، وخص كل قسم منها بنوع من الحياة يختلف عن الأخرى وأعد الأرض لحياة الأحياء، وهيأ فيها ما يحتاجون إليه من مستلزمات بحث لا توجد مثيلها على الكواكب الأخرى، وهناك بعض الآيات تشير إلى ثلاث مجموعات من المخلوقات:

أ ـ مخلوقات في السماء، يسبح له من في السموات.

ب ـ مخلوقات في الأرض، ومن في الأرض.

جـ ـ مخلوقات بين السماء والأرض[٢]، ومن فيهن»، وقد قرر علماء الفلك أن الحياة ممكنة على نحو ١٠٠ ألف كوكب على الأقل في السموات[٣]، ولكن بشكل ليس كحياتنا البشرية بل بهيئة أخرى يعمله الله تعالى، لأن الكوكب الوحيد الذي احتضن الحياة بهذه الخاصية المعروفة هو الأرض، وأن احتمال وجود حياة شبيهة بحياة الإنسان على أي كوكب آخر ضمن مجموعتنا الشمسية لم يثبت علمياً لحد الآن، لأن مجالات الكيمياء الحيوية على أغلب هذه الكواكب أي ضمن المجموعة الشمسية لا يزال يخالف تماماً ما هو كائن على الأرض[٤]، وكذلك لم يعرف وجود حياة كحياتنا على الكواكب الأخرى خارج المجموعة الشمسية في المجرات الأخرى، لأن جاذبية الثقوب السوداء وكثرة الشهب المتطايرة تمنعان وجودها على هذه الكواكب،

---

(١) طه: ٦.

(٢) الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص١٦٥.

(٣) النجوم تأليف أن ترى هوايت ترجمة إسماعيل حقي: الطبعة الخامسة ١٩٨١ دار المعارف مصرد، ص١٣٠.

(٤) الله والكون تأليف د. محمد جمال الدين الفندي طبع سنة ١٩٧٦م الهيئة المصرية العامة للكتاب ص٤١٥ ينظر النجوم والناس والذرة ص١٢٩ ـ ١٣١.

وكذلك عدم وجود حزام هوائي وقائي كحزام الأرض يمنع النيازك والشهب وكذلك عدم وجود درجة الحرارة المناسبة عليها يمكن لبعض الحيوانات أن تبقى حية في جوها المناسب، ولو تأملنا في أول آية من سورة الفاتحة لوجدنا أنها أوضحت أن العوالم متعددة وكثيرة إذ يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١)، فالعالمين شبه جمع للعالم وهو اسم لما يعلم به الشيء وهو كل ما سواه من الأعيان(٢).

وقد ورد بمعان متعددة منها:

أ ـ قد يقصد السماوات والأرض: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾(٣).

ب ـ الثقلين: الإنس والجن ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾(٤).

ويقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي: «أن العالم في آية الفاتحة ليس هو مجرد عالم الإنس والجن أو عالم الحيوان والنبات والجماد ولكن هو العالَم الفلكي الذي يتبادر إلى الذهن من اللفظ»(٥).

وقد جاء علم الفلك فبين أن المجموعة الشمسية التي نحن فيها ليست

---

(١) تكرر لفظ العالمين ٧٣ مرة في القرآن الكريم. نقلاً عن القرآن والعلم الحديث عبد الرزاق نوفل ص١٢٩.

(٢) مواهب الرحمن ج١ ص٧٣.

(٣) الشعراء ٢٣ ـ ٢٤، وكذلك آية فصلت رقم ٩ ذلك رب العالمين.

(٤) الفرقان: ١.

(٥) الإسلام في عصر العلم ص٢٢٥ ـ ٢٢٦.

في هذا العالم المجرى شيئاً مذكوراً وبين أن هناك عوالم مجربة أخرى تعد بالآلاف، ولكن لم يهتد العلم الحديث في هذه العوالم المجربة الأخرى إلى أرض كأرضنا حتى الآن، ولو أنه من الممكن أن يكون في ملايين من العوالم المجربة الأخرى عوالم ولو قليلة يتحقق فيها ما هو متحقق لنا في هذا العالم الذي جمعه الله تعالى في آية الفاتحة ليكون ذلك إشارة للناس إلى أسرار هذه الكلمة ليطلبوها[١].

وإذن فسكان ما بين السموات والأرض هو تلك المجرات والعوالم الكثيرة من الشموس والكواكب، دبت فيها الحياة بشكلها الخاص لتوفر الظروف الملائمة عليها، ولا يلزم أن تكون من نفس مادة جسم الإنسان[٢]، وكذلك فرق الله بين الأرض والكواكب الأخرى من أن على الأرض حياة كما هو معلوم، وكما نص على ذلك آية فصلت رقم ٩ ـ ١٢ وآية النازعات. ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ . . .﴾ الآيات وآية ٢٩ من البقرة ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وأن الكواكب ليس عليها الحياة كحياتنا، وثم دليل آخر على تفرد الأرض بنوع خاص من الحياة هو ذكر الأرض مفردة مقابل السموات، يقول تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[٣]. فكل المجرات والكواكب ساجدة منقادة لله تعالى. ويسبحونه بلسان الحال كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[٤]، فكلمة التسبيح يجوز أن يحمل على المشترك بين اللفظ والدلالة لإسناده إلى ما

---

(١) المصدر نفسه ص٢٢٤، وبنظر (الكون) تأليف دافيد برجاميني، سلسلة لايف العلمية ص٧٨.

(٢) الله والكون ص٤٦٠.

(٣) الأنعام: ١.

(٤) الإسراء: ٤٤.

يتصير منه الفظ وإلى ما لا يتصور منه[١]، ويقول تعالى في سجود سكان السموات والأرض: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾[٢] السجود هنا الانقياد الكامل لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء سواء جعلت كلمة مَن خاصة بالعقلاء، وعامة لهم ولغيرهم[٣]، وأن انقياد الأجرام السماوية مشهودة حيث لا يصطدم أي جرم بالآخر كل يجري في فلكه، وكلها تحت التسخير.

والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع، فكل هذه المخلوقات فيها الحياة والحركة، لكن لا كحياتنا بل بشكل آسر يعرفها الله كما بينا، وكما دب في الأرض حياة الآنيات والتأثر بالماء وأماتتها في مواسم معينة في فصول السنة.

فلو تم التعمق بالنظر في الآيات التي تتناول الحياة على الكواكب الأخرى لاتضح أن سكان السموات هم الملائكة[٤]، أولاً كما قال تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[٥]، أي السموات ومن فيها من الملائكة[٦]، كما قال رسول الله ﷺ في حديث عطاء بن أبي رباح «أما من في السموات

---

(١) ينظر تفسير البيضاوي ج١ ص٥٧٢.

(٢) الحج: ١٨.

(٣) فتح القدير ج٣ ص٤٤٣.

(٤) أجسام لطيفة نورانية تتشكل بأشكال مختلفة غير الكلب والخنزير ينظر تحفة المربد ص١٣١.

(٥) الصافات: ٨.

(٦) ابن كثير ج٤ ص٣.

فالملائكة..» الحديث[١]، ثم الجن[٢]، الذين يصعدون على الكواكب الأخرى ويذهبون ويخرجون إلى العالم الخارجي، ويقول تعالى ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ...﴾[٣].

أما قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[٤]، فهم الملائكة العقلاء الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وكل الكائنات تحت سلطان الله تعالى شاء أو أبى، كما أن السموات والأرض بما فيها وما عليها أتيا طائعين لجلالة ويسبحون بحمده» فالكواكب والنجوم وذرات الهواء والأثير وغير ذلك خلق الله فيهم الحياة وهم جند الله في السموات ويتحركون بهذه الطاقة والروح التي خلق الله فيهم، كما أشار القرآن إلى ذلك بقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[٥]، فالدابة كل ما يتحرك سواء أكان على الأرض أم في السماء ويطلق على كل ما يسبح في السموات وهم منقادون لأمره ويسيرون حسب إرادته ويقول الشوكاني (له وحده يخضع وينقاد لا لغيره ما في السموات جميعاً وقد دخل في عموم ما في السموات وما في الأرض جميع الأشياء الموجودة فبهما، وإنما خص الدابة بالذكر لأنه قد علم من قوله تعالى: ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء﴾ انقياد الجمادات»[٦].

---

(١) رواه الطبراني، رواه الطبراني. الحديث في تفسير ابن كثير ج١ ص٣٧٨.

(٢) أجسام لطيفة نورانية تتشكل بأشكال مختلفة حتى الكلب والخنزير.

(٣) الجن: ٩.

(٤) آل عمران: ٨٣.

(٥) النحل: ٤٩.

(٦) فتح القدير ج٣ ص١٦٦.

فإن هذا الكون الفسيح الذي لا يعرف الإنسان إلا جزءاً قليلاً منه تعج بالحياة والسكان، ولا يعرف حقيقة ذلك إلا الله تعالى كما يقول: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾[١] وخلق من الكائنات ما تعرّفنا عليها بالمشاهدة وما ذكره لنا في كتابه الكريم وما لا نعلم من خلقه، ويخلق ما لا تعلمون، ولا مانع من أن الله تعالى خلق أرضين أخرى شبيهة بأرضنا في غير مجموعتنا الشمسية، وخلق عليها حياة كحياتنا، غير أن الإنسان هو الكائن الوحيد في هذا الكون المكلف بالواجبات مع الجن ليجزيهم على أعمالهم كما يقول تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[٢]، الأمانة الطاعة والفرائض التي يتعلق بأدائها الثواب وبتضييعها العقاب»[٣] وقال القرطبي[٤]: (والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال وهو قول الجمهور)[٥].

ويقول محمد جمال الدين الفندي: (ولا نعرف حقيقة الحياة على الكواكب الأخرى البعيدة عنا لأننا لم تتح لنا فرصة زيارة السموات أو الاتصال الفعلي بسكانها، ولا يمكننا الإحاطة بملكوت الله تعالى ولا الإطلاع على حقيقتها إلا ما يرينا الله من معجزات خلقه)[٦].

---

(١) الجن: ٢٦.

(٢) الأحزاب: ٧٢.

(٣) علي بن أحمد بن محمد مفسر عالم بالأدب توفي سنة ٤٦٨هـ.

(٤) فتح القدير الشوكاني ج٢ ص٣٠٨.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) الله والكون ص ٤١٧.

الأطباق الطائرة[١]:

على الرغم من أن بعض الناس يعتقد أن مخلوقات ذكية جاءت إلينا في أطباق طائرة لاستكشاف الأرض وزيارتها والتعرف على أهلها، فلا تزال لغزاً من ألغاز العلم الحديث، وأشبه ما تكون بقصص الخيال العلمي[٢]، أما كيف تدار هذه الأطباق الطائرة؟ وكيفية الإشراف عليها، فقد قرر أصحاب بعض البلاغات التي أذيعت أنهم شاهدوا مخلوقات في هذه الأطباق الطائرة، وتجتمع آراؤهم على أن هذه المخلوقات من أشباه البشر إلا أنهم قصار القامة إلى درجة كبيرة بحيث لا يزيد طول الواحد منهم على ٩٠ سم أو يبلغ طولها قدمين أو ثلاثة أقدام فقط[٣]، وأن ألوانهم أقرب إلى اللون الأسمر ولهم أسنان بيضاء، يرتدون أردية زرقاء أو خضراء وعلى رؤوسهم قلنسوات معدنية وفي صدورهم مصدر لجهاز يشع، وهناك من البلاغات ما يصفهم أنهم على ضخامة كبيرة[٤]. إلا أنه لم يعرف عن حقيقة الأطباق الطائرة شيء إلى اليوم وما نشر في أوصافهم المختلفة واختلاف الآراء حولهم يجعلنا في شك من أمرهم، ولا مانع من قدرة الله أن يأمر الملائكة بأن يظهروا للناس على هيئة البشر ولها أشكال مختلفة في الطول والقصر ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾[٥]، أو أن الجن يتحولون إلى هذه

---

(١) أطبق الشيء أي غطاه وجعله مطبقاً فتطبق.

(٢) الكون والإعجاز العلمي للقرآن ص٧٦٠ وينظر النجوم ـ الناس الذرة تأليف هاينز هابر، ترجمة عبد العزيز عثمان ص١١٨.

(٣) النجوم، الناس، الذرة ص١١٨.

(٤) السماء وأهل السماء عبد الرزاق نوفل ص١١٢.

(٥) الأنعام: ٩.

الأجسام الغريبة ليعلم الإنسان أنه لو تمرد عن القانون الإلهي سيتعرض لهجوم من قبل جند الله المخلصين الذين تركوا آثار الدمار على من طغى على هذه الأرض، وهكذا يتضح عظمة الله في خلقه وأن كونه الفسيح تعج بأنواع المخلوقات لا يعلم عددها وكنهها إلا الله تعالى خالق هذه المخلوقات وما علينا إلا أن نتأمل في خلقه وبديع نظامه ويقول تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ۝١٠١﴾[1].



(١) يونس: ١٠١.

الفصل الخامس

خالق الكون في القرآن الكريم

إن أهم ما يحتاج إليه الإنسان في المجتمع السليم هو الإيمان بأن هذا الكون خاضع لحكم أخلاقي مسيطر على شؤونه، وأن خالقاً خبيراً يعجز الناس عن إدراك كنهه يسير المسرحية الكونية إلى غاية نبيلة بما فيها من الأجرام المماثلة السابحة في الفضاء، والظواهر الناشئة عن خلق السموات والأرض والليل والنهار والظلمات والنور، وخلق الإنسان من العدم، وأنشأ تلك المخلوقات العجيبة التي تدب حول الإنسان على الأرض على اختلاف أنواعها وأشكالها، والأديان السماوية التي تعاونت على تكوين عقلية الناس في العصور الوسطى وإرشادها نحو الحق أجمعوا على أن خالق هذه العقلية هو الله الواحد الأحد، غير أن المسيحية قد أضافت إلى هذه العقيدة: إن الله الواحد يظهر في ثلاثة أقانيم مختلفة، أما عقيدة الإسلام فترى أن هذا الاعتقاد ليس إلا شركاً مقنعاً وتعلن وحدانية الله بأقوى الألفاظ وأشدها حماسة، فخالق الكون في القرآن هو منشىء الحياة وموجد الكون، وهو يحيي الأرض بعد موتها ويخرج منها من كل الثمرات»[1]، يقول تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا

(١) قصة الحضارة ج٣ ص٥٤.

ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[(١)]، أي فإذا أنزل الله المطر على الأرض اهتزت وتحركت بالنبات وحييت بعد موتها وربت أي ارتفعت لما سكن فيها من الثرى ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزرع وأشتات النباتات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها[(٢)]، فلو منع قطر السماء وحبس نبات الأرض وأوقف نشاط الحياة فمن يقدر على تسيير شيء أوقفه الله تعالى؟ ولهذا بلغت أنظار الناس إلى التأمل في هذه الخيرات التي بها قوام حياتهم ويقول: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾[(٣)]، ويقول أيضاً ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ الآيات[(٤)].

وأنه تعالى خالق لأصل وجود الكون ومقدر لسننه ونظامه، ويقول: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[(٥)]، وهو مالك له ومتصرف فيه وقادر على توسيعه وزيادته، وعلى إبادته وإفنائه وما دام هو الموجد لسننه وقوانينه فهو كذلك حاكم ببقائه واستمراره[(٦)] ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[(٧)].

---

(١) الحج: ٥.

(٢) ابن كثير، ج٣ ص٢٠٨.

(٣) عبس: ٢٤ ـ ٣٢.

(٤) يس: ٣٣.

(٥) الفرقان: ٢.

(٦) الإسلام يقيناً لا تلفيقاً تأليف د. صابر طعيمة الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م دار الجليل بيروت، ص١٣٩.

(٧) الأعراف: ٥٤.

فإذا تأملنا في الكون وما يحتوي عليه من موجودات صغيرة يؤدي بنا إلى الإيمان بوجود خالق له، إذ أنه من المستحيل عقلاً أن تكون هذه المخلوقات قد وجدت من تلقاء نفسها[١]، وقد أشار القرآن إلى هذه الدلالة في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾[٢]، بين القرآن الكريم فكرة الخلق، وقال: إن الله خلق كل شيء من لا شيء وأوجد العالم من العدم وفند فكرة قدم المادة وأشار إلى بدء الزمان كما بين نهايته[٣]، ويقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾[٤]، ويقول: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾[٥]، وهو مبدىء الكون وخالق الأسباب والعلل وقوانينها ويقول الأستاذ محمد المبارك: (وعلى هذا فالكون أو الطبيعة وما في الكون من ضروب الارتباط بين ما يسمى بالأسباب ومسبباتها والعلل ومعلوماتها كلها مخلوقة وهي متعلقة بوجود أعلى وأسمى وأكمل من وجودها وهو وجود الله الخالق المبدع لها والمقدر لسننها وأسبابها ولذلك لا يطلق على الله الخالق في العقيدة الإسلامية لفظ سبب ولا علة لأنه خالق الأسباب والعلل ومقدر سننها وقوانينها»[٦].

---

(١) مجلة كلية الشريعة بالأحساء. ص٤١٧.

(٢) الزمر: ٥.

(٣) دراسات إسلامية معاصرة تأليف أنور الجندي الطبعة الأولى ١٤٠٢ ـ ١٩٨٢، ص٧٢.

(٤) الروم: ١١.

(٥) يونس: ٣٤.

(٦) نظام الإسلام العقيدة والعبادة تأليف محمد المبارك الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م دار الفكر بيروت ص٥٢.

والله تعالى إله القوة[١]، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾[٢] ويقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[٣]، ونرى الأجرام السماوية سابحة في السماء دون أن يستند على أعمدة كما يستند سقف البيت على جدران أو أعمدة، فالله تعالى خلق بقدرته أعمدة غير مرئية وهي ما بثه في الكون بين الأجرام في الجاذبية ورفع بها السماوات وأجرامها، وأمسكه بقوته وقدرته ويقول تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦ...﴾[٤] ويقول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾[٥]، وإن دوام السموات والأرض على هذا النظام الذي أجراه الله في الكون دون اختلال في أية صفحة منه دلالة واضحة وبرهان جلي على قدرته تعالى، ولئن أزال الله السموات أو الأرض، أو أوقف ما يحتاجه الكائنات في الحياة فمن غير الله قادر على إعادة السموات أو الأرض أو يوفر الغذاء للأحياء[٦]؟، وهذه الأمور من لوازم وجوده، فلو لم يكن كذلك لم يكن خالقاً ولو صم بالنقص والله تعالى منزه عن النقص» ومتصف بكل صفات الكمال.

وخالق الكون إله واحد، ويقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ

---

(١) قصة الحضارة ج١٣ ص٥٤.

(٢) الشورى: ١٩.

(٣) رعد: ٢.

(٤) فاطر: ٤١.

(٥) الروم: ٢٥.

(٦) هناك آيات كثيرة في هذا الموضوع منها آيتا الرعد ٢ ـ ٣، وآية الكرسي والحج ٥ ـ ٧، والأنعام ٤٦ و٦١ ـ ٦٢ وأخرى كثيرة.

ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[١]، ولقد أثبت العلم الحديث وحدانية الله بالنظر في وحدة النظام الكوني، وذلك من خلال التعرف عليه ومن خلال التشابه والتماثل في هذا الوجود وبهذا أثبتت حقائق العلم أن الكون على اختلاف مظاهره واحد متماسك متكامل مما أدى إلى جعل وحدانية خالق الكون فوق شك المشركين[٢]، ولأن التعدد مدعاة للفساد والخلاف والتعالي[٣]، ويقول تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢)﴾[٤]، ويقول: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢)﴾[٥]، ولو كان في السماء والأرض آلهة أخرى غير الله لفسدتا لأن هذا يريد إيجاداً وهذا يريد فناء فلا يتفقان، وإذا اتفقا فالاتفاق يدل على العجز، والعجز يتنافى مع الألوهية، ولهذا يؤمن المسلم بوحدانية الربوبية، فلا خالق ولا مدبر ولا متصرف سوى الله، ولا معبود ولا مستعان غير الله تعالى[٦]، وكل من اتخذوه إلهاً لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً فكيف يمكن أن يشرك بالله، وأن ينسب إلى هؤلاء صفة الألوهية؟ فوحدة الكون ووحدة النظام، والانسجام التام بين المادة والطاقة يفند دعوى ألوهية المادة والوثنية ويدعو إلى وحدانية الله تعالى، (وفي كل شيء له آية ـ تدل على أنه واحد).

---

(١) المائدة: ٧٣.
(٢) الكون والإعجاز العلمي للقرآن ص٥٠.
(٣) أنور الجندي ص٧٦.
(٤) الأنبياء ٢٢ والآيات التي تليها إلى ٢٥.
(٥) الإسراء: ٤٢.
(٦) أنور الجندي ص٦٦.

والله تعالى مع سلطانه وعدله رحيم أبداً، فكل سورة من سور القرآن تبدأ بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) عدا سورة التوبة، وأنه يرزق كل حي أينما كان، وأنه أعد لنا الأرض مضيفاً رائعاً وغمر وجهها بآلاف الهدايا، وفرش بتلك الرحمة مائدة تحوي عشرات الآلاف من مختلف الأطعمة اللذيذة المعدة على تلك المائدة[١]، يقول تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾[٢]، ويقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾[٣]، وأن الرحمن بواحدية تلك الرحمة وبإحاطتها يظهر هيبة جلاله على الكون كله وعلى الأرض كلها، فإنه يتجلى أحديته في كل ذي حياة وخاصة الإنسان، يعلن رأفة بجماله ويَعْرَفُ تمركز أنواع إحسانه في الإنسان[٤].

والله تعالى ينفرد بالتشريع والحاكمية، وأنه لا مشرع ولا حاكم إلا الله، ولا منظم لحياة البشر وعلاقاتهم وارتباطاتهم بالكون وبالأحياء ويبني الإنسان من جنسه إلا الله، فيتلقى من الله وحده التوجيه والتشريع ومنهج الحياة ونظام المعيشة وقواعد الارتباط[٥] ولهذا يربط القرآن الكريم بين عقيدة التوحيد وبين مقتضياتها في الضمير وفي الحياة ربطاً وثيقاً ويرتب على وحدانية الألوهية ووحدانية الفاعلية والسلطان في هذا الوجود ما يكلفه المسلم، سواء ما يكلفه من شعور أو من شعائر العبادة أو من التزام في الشريعة[٦]، والحاصل أن

---

(١) الآية الكبرى سعيد النورسي ص١٣٩.

(٢) هود: ٦.

(٣) العنكبوت: ٦٠.

(٤) الآية الكبرى ص١٤١.

(٥) خصائص التصور الإسلامي ص٢٢٢.

(٦) المصدر نفسه.

الوحدانية الشاملة الوحدانية الذات ووحدانية الصفات ووحدانية الأفعال تنفي كموماً خمسة[١]، الكم المتصل[٢]، في الذات، والكم المنفصل[٣]، وهذان الكمان منفيان بوحدة الذات، والكم المتصل في الصفات وهو التعدد في صفاته من جنس واحد والكم المنفصل في الصفات وهو أن يكون لغير الله صفة تشبه صفته وهذان الكمان منفيان بوحدانية الصفات، والكم المنفصل في الأفعال وهو أن يكون لغير الله فعل من الأفعال على وجه الإيجاد، وهذا منفي بوحدانية الأفعال[٤].

والله تعالى في العقيدة الإسلامية مخالف للحوادث ويتصف بصفات الكمال المطلق غير مماثل لصفات المخلوق المحدود الذي تبدأ بالولادة وتنتهي بالموت ويطرأ عليه زيادة ونقص وضعف ونسيان ونوم وافتقار إلى الغير وهو سبحانه وتعالى لا يعتز به نسيان ولا نوم وغفلة ونقص ولا يتحدد بحدود مكانية أو زمانية ولا يتصف بولائه ولا قرابة ونسب[٥]، ويقول بول كليرانس ايرسولد: (إنني لا أستطيع أن أتصور الله تصوراً مادياً بحيث تستطيع أن تدركه الأبصار أو أن يحل في مكان دون الآخر، أو يجلس على كرسي أو عرش)[٦]، ومن هنا يتميز الخالق عن المخلوق من أن الخالق موجد الأسباب والعلل والمكان وهو خارج عن دائرة المخلوق، أما المخلوق فحادث ضمن دائرة الحوادث

(١) تحفة المربد ـ إبراهيم اللقاني ص٥٩.

(٢) وهو ما تركب من أجزاء.

(٣) بأن يكون هناك إلهان فأكثر.

(٤) تحفة المربد ص٥٩ ـ ٦٠.

(٥) الإسلام يقيناً لا تلقيناً ص١٣٨.

(٦) الله يتجلى في عصر العلم، ص٣٩.

والمخلوقات، ويقول تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1] ويقول: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾[2] وكذلك إن الله تعالى يحيط بكل شيء علماً، ويتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾[3] ويقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾[4]، ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾[5].

وأنه تعالى يعلم المستقبل كما يعلم الماضي والحاضر، وأنه يعلم ما سيحدث في المستقبل وقرر كل شيء منذ الأزل بإرادته مهما كان ضيقاً أو صغيراً وهذا ما يشير إليه في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾[6]، أي أن الله تعالى يعلم حملها (وما تغيض الأرحام) الغيض النقص أي يعلم الذي تغيضه الأرحام أي تنقصه[7] وقد أثبت للعلم الحديث أن الجنين لا يخلق من كل ماء الرجل والمرأة وإنما في جزء منه حيث تفرز بويضات في المبيض وتستعد واحدة للتلقيح ويتسابق ملايين حيوان منوي في ماء الرجل نحو البويضة ويفوز واحد من بين هذه الملايين في السباق وينال

---

(١) شورى: ١١.

(٢) الإخلاص: ٤.

(٣) غافر: ١٩.

(٤) ق: ١٦.

(٥) التغابن: ٤. وآيات أخرى كثيرة في القرآن الكريم.

(٦) الرعد: ٨ ـ ٩.

(٧) فتح القدير ج٣ ص٦٨.

الجائزة[١]. ويموت الباقي عند اصطدامهم بجدار الرحم عندما أغلقت بابها هذا سر قوله تعالى (ما تغيض الأرحام)، (وما تزداد) أي ما ينمو في الرحم ويزداد الجنين ويدخل في أطواره من تحول النطفة إلى العلقة ثم إلى المضغة[٢] وهكذا، وعقب ذلك بقوله (وكل شيء عنده بمقدار) والتناسق واضح بين كلمة مقدار وبين النقص والزيادة[٣]، أي كل شيء من الأشياء المذكورة عند الله بمقدار، والمقدار: هو القدر الذي قدره الله ويقول تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[٤]، أي كل الأشياء جارية على قدره الذي قد سبق وفرغ منه ولا يخرج عن ذلك شيء.

وكذلك قوله تعالى: ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ﴾[٥] فسبحان من تفرد بسلطانه وقدرته وأنه الواحد الأحد العليم القدير المتصف بكل صفات الكمال.

---

(١) مقتبس من محاضرة مسجلة في الإعجاز العلمي للقرآن للشيخ عبد المجيد الزنداني.

(٢) يقول تعالى: ﴿﴾.

(٣) في ظلال القرآن ج٤ ص٢٠٤٩.

(٤) القمر: ٤٩.

(٥) سورة فصلت: ٤٧.

الفصل السادس

وصف الكون في القرآن الكريم

إن تعبير القرآن عن الكون وأسراره يفوق كل التعبيرات البشرية عن مختلف الجنسيات والقوميات، حيث أعجز العرب البلغاء عن الإتيان بمثله أو بأقصر سورة من سوره عندما تحداهم في ميدان البلاغة والفصاحة، وأعجز غير العرب في مجال العلم والثقافة عندما عجزوا عن خلق أي شيء حي شبيه بخلق الله تعالى، فهو سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ﴾[1].

فالقرآن الكريم عندما يشير إلى الظواهر الكونية إنما يشير إليها على سبيل إيقاظ العقل من سباته ليتفهم هذه الظواهر ويفسرها تفسيراً صحيحاً، فعباراته أشبه شيء بالومضات القوية التي تنير أمامه. العقل ـ السهيل ليدرك نظام الكون وقوانينه[2]، وهو عندما يصف الكون يصوره للإنسان تفسيراً حياً تنجذب إليه

---

(١) الحج: ٧٣.

(٢) الإنسان والكون في الإسلام، د. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني طبع سنة ١٩٧٥ دار الثقافة للطباعة والنشر ص.

الفطرة السليمة وتتعظ به العقول النيرة والبصيرة النافذة ويجد تناسقاً بين اللفظ والمعنى ما لا يجده في وصف الشعراء والأدباء.

وصف الليل:

إن الله سبحانه وتعالى في ظاهرة من ظواهر الليل والصبح يقول: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾[1]، فمعنى عسعس: إذا أظلم، ولكن وصف الليل بهذه الكلمة يوحي بجرسه بحياة في هذا الليل، وهو يعس في الظلام بيده أو برجله لا يرى[2]، وهو إيحاء عجيب واختبار لتغيير رائع، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ فهو أظهر حيوية وأشد إيحاء، فالصبح حي يتنفس، وأنفاسه النور والحياة والحركة التي تدب في كل حي بحثاً عن الرزق هو تصوير لانفلات الضحى من مخبأ الليل وسجنه[3]، ويمكن أن نجزم بأن اللغة العربية بكل مأثوراتها التعبيرية لا تحتوي نظيراً لهذا التعبير عن الصبح الذي عبر عنه القرآن، فرؤية الفجر تكاد تشعر القلب المتفتح أنه يتنفس بالفعل، ثم يصور القرآن هذه الحقيقة التي يشعر بها القلب المتفتح والمتذوق بجمال التعبير والتصوير ليدرك أن قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ هو ثروة شعورية وتعبيرية بديعة تضاف إلى رصيد البشرية من المشاعر الآخذة بالألباب وهي تستقبل هذه الظواهر الكونية بالحس الشاعر[4].

---

(١) التكوير: ١٧ ـ ١٨.

(٢) في ظلال القرآن ج٦ ص٣٨٤١.

(٣) التعبير الفني في القرآن تأليف الشيخ أمين البكري دار الشروق ١٩٧٢، ص١٧٩.

(٤) في ظلال القرآن ج٦ ص٣٨٤٢.

وهناك لغة سرية بين مشاهد الكون وظواهره وبين القلب الإنساني وبينهما تجاوب ومناجاة بغير نبرة ولا صوت، وهي تنطق القلب وتنبض بالحياة المأنوسة للكيان الإنساني الحي ويجد عندها الإنس والمناجاة والتجاوب[1].

والقرآن الكريم عندما يصف الكون ويصوره يضع معالم بسيطة أمام العقل الإنساني، لترسم الصورة في مشاعره وبصيرته ليؤمن بوجود من أتقن كل شيء خلقة.

وصف الأرض:

وفي وصف الأرض بالنقصان يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾[2]، ويقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾[3]، نلمح فيهما فكرتين متميزتين ينبغي أن نأخذ كلاً منهما على حدة.

١ ـ الفكرة الأولى أن الأرض ذات طابع هندسي، حيث عين شكل الأرض ضمناً في أطرافها أي جوانبها[4].

٢ ـ الفكرة الثانية أن الأرض ذات طابع آلي، حيث قال (ننقصها) ومن الواقع أن لفظه (أطراف) تقتضي فكرة عن شكل الأرض، ولكن أي شكل هو؟ إن الأرض لا توحي بداهة بشكل خيطي في الفضاء أو بشكل مسطح أو مربع

---

(١) المصدر نفسه ص٣٩١٦.

(٢) الأنبياء: ٤٤.

(٣) الرعد: ٤١.

(٤) ينظر تفسير الواضح ج١ ص٥٠٨.

إلخ إذ إن أقل نتوء توحي بفكرة الأبعاد الثلاثة[١]. وبالتالي بشكل هندسي ممتد في الاتجاهات الثلاثة أيضاً ولكن جميع الأشكال الهندسية في الفضاء لا تتفق مع فكرة الأطراف، وأقرب الأشكال إلى التصور حين يأخذ اللفظ (انتقاص الأطراف)، وحين نساير معارف الهندسة الأرضية عن دحو القطبين الشكل البيضوي[٢].

وإن وصف القرآن لشكل الأرض بالانتقاص من الصور البديهية أمام العقل البشري الذي يبحث عن الدليل العلمي للترقي بمدارج العلم للوصول إلى الحقيقة التي يحدثنا العلوم الجيولوجية والجغرافية عن تأثر قشرة الأرض بالماء والهواء وترسبها في البحار إذ تأخذ مياه الأمطار كمية كبيرة من تراب قشرتها منذ ملايين السنين وينتقص أطرافها إلى أن يحدث فيها الفزع الأكبر وتبدل الأرض غير الأرض. ولو عدنا إلى حركة الأرض في الوصف القرآني لها نجد أن القرآن يصف حركتها ويقول: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾[٣] هذا الوصف لحركة الأرض تعد جوهرية في ذاتها، لأن الجبال تسير قبل يوم القيامة مثل السحاب التي تظهر للعيان ثابتة، لأن لها حركة تابعة لحركة الأرض، وتستنتج من هذا الوصف فكرة محور الحركة وبالتالي فكرة القطبين اللذين عينهما لفظ (أطراف) ودهوهما[٤].

---

(١) الطول والعرض والعمق.

(٢) الظاهرة القرآنية مالك بن بني ص٣٤٤.

(٣) النمل: ٨٨.

(٤) ينظر الظاهرة القرآنية ص٣٤٥.

وصف القمر:

ومن أسلوب القرآن الكريم في تقريب الصورة إلى الذهن أنه شبه معالم الكون ببعض الظواهر المحسوسة ليدرك حقيقة المشبه الدال على عظمة الخالق وقدرته، ففي قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾[١]، وصف الله تعالى القمر بالضعيف عندما يعود في لياليه الأخيرة وشبهه بالعود اليابس المنحني[٢] ويبدو في الليالي الأولى وكأن فيه نضارة وفتوة وفي الليالي الأخيرة يطلع وكأنها يغشاه سهوم ووجوم[٣]، ويكسوه ذبول، كأنه طفل يقبل بنشاطه على الحياة ويرتقي حتى يصل إلى الضعف الذي كان عليه حال الطفولة.

ومن يعش مع القمر دورة كاملة لا ينجو من تأثرات بالجمال الذي تشير في الحس مشاعر وخواطر ندية ثرية عميقة، وبتلك القدرة المدبرة للأجرام بهذا النظام سواء أكان يعلم سر هذه المنازل والأشكال القمرية المختلفة أم لا يعلم، فالمشاهدة وحدها كفيلة بتحريك القلب وإثارة التدبر والتفكير ليلاحظ دقة النظام الكوني الذي يحكم هذه الأجرام السابحة في مداراتها وأفلاكها، دون أن يصطدم أحد هذه الأجرام بالأخرى، فلا ينبغي للشمس أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار[٤]. فالإنسان المفكر في أحوال الكواكب المتناثرة التي وصفها الله تعالى بالسابحات في الفضاء الفسيحة حولها ليدرك تماماً أن الإنسان لا يساوي شيئاً في هذا الكون إذا قيس بحجم الكواكب أو كوكب واحد

---

(١) يس: ٣٩.

(٢) كالعذق الذي يكون البلح من النخلة.

(٣) الذي اشتد حزنه.

(٤) في ظلال القرآن ج٥ ص٢٩٦٩.

الجاري على نظام ثابت منقاد لأمر خالقه، ولكن الإنسان مع ضآلته وعجزه يرى نفسه أكثر مما خلق عليه فيسعى جاهداً لتضليل الفكر والابتعاد عن جمال الكون وتناسق خلقه الدالين على عظمة الله سبحانه وتعالى.

وقد اتخذ القرآن أسلوب التصوير في وصف الكون لتحقيق أهدافه وتقريب المعاني الغيبية الذهنية في صور حسية رائعة إلى الأذهان لتجري مجرى الأمثال، وهذا ما تلمسه في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾[١]، هذا تصوير واضح أمام الوجدان الإنساني وهو يقف أمام مشهد الكون المنظور، إذ جمع الله دولة الكون ونظامه الثابت وهو قادر على إدارته ليرجع الإنسان بصرهُ متأملاً في السموات وأجرامها ويدرك أنه ما من أحد يقدر على رفع السماء بغير عمد إلا الله، ثم يحدثنا عما في تلك البنيان المرفوعة من مهارة وإتقان، وعما وراءها من القدرة الحقة التي لا يتطاول إليها خيال الإنسان[٢].

تناسق الآيات مع وصف الكون:

ومن جهة التناسق بين آيات القرآن الكريم مع وصف الكون نجد أنه يوجه الإنسان إلى ملكوت الله[٣]، حيث شبه الحياة على الأرض بكل نعيمها

---

(١) الرعد: ٢ ـ ٣.

(٢) في ظلال القرآن ج٤ ص٢٠٤٤.

(٣) التعبير الفني في القرآن ص٢٣١.

بماء أنزله من السحاب المسخر بين السماء والأرض، حتى تألقت الأرض بالزينة وأخذت الأرض زخرفها وظن سكانها أنها ازدهرت بجهدهم ولا يغير عليهم أحد ولا ينازعهم فيها منازع، وفي وسط هذا الخصب وفي نشوة هذا الفرح وفي غمرة هذاالاطمئنان الواثق أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كان لم تغن بالأمس إذ يقول تعالى ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾[(١)] فجمال الحياة مرهون بجمال الأرض ونزول الأمطار وتنوع الأزهار والثمار مما يزيد العاقل حيرة وتعجباً بحكمة من يدير هذا الكون وأن التناسق في التغيير القرآني وسر الجمال الفني في الاستعارة القرآنية يعود إلى:

اختيار الألفاظ المتناسقة في اللفظ والمعنى حيث يقول:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾[(٢)]، فإن كلمة (نسلخ) تصور للعين ذهاب الضوء ومجيء الظلمة كالسلخ من الشيء[(٣)] وإذا تراجع الضوء وظهر ما كان مختفياً من ظلمة الليل[(٤)]، فهذه استعارة بليغة وكلمة مناسبة لهذا المقام، وكذلك اختار القرآن كلمة (ذلولا) في مناسبة أخرى إذ يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ

---

(١) يونس: ٢٤ ـ ٢٥.

(٢) يس: ٣٧.

(٣) فتح القدير ج٤ ص٧٦٩.

(٤) التعبير الفني في القرآن ص١٩٧.

ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [(١)]، لينظر الإنسان تحت قدميه ويعرف أن الأرض ذلولة من ناحية:

١ ـ جاذبيتها لكل ما عليها نحو مركزها وشدهم أثناء حركتها التي يحددها ميل محورها بزاوية ٢٣,٥ لأن هذا الميل هو الذي تنشأ منه الفصول الأربعة.

٢ ـ بسط سطحها وتكوين تربتها لينة فوقها، وجعل الهواء المحيط بها محتوياً على العناصر التي تحتاج إليها الحياة بنسب لازمة دقيقة لو اختلت ما قامت الحياة وقد أعطى كلمة (ذلولا) تعبيراً دقيقاً وتواضعاً للأرض التي أعدت للحياة وصور فيها تغيرات الحياة ومراحلها المختلفة ابتداء من الطفولة إلى الشيخوخة والفناء والعودة إلى الله، وخلق الله فيها جمالاً وزينة ونقشها بالجبال والوديان، وطرزها بالأنهار والعيون، وزين السماء بزينة الكواكب كأنها ليال عرس زينت بمصابيح ملونة[(٢)]، حيث افتتن كثير من الناس بجمال الطبيعة الخلابة ومعادن وكنوز دون أن ينتبهوا إلى من صور هذا الجمال وألبس الطبيعة هذه الحلل السندسية الخضراء والذي لا يغفل عنه لحظة واحدة.

حيث يأمر الإنسان العاقل أن ينظر إلى طعامه كيف ينبت شجرته في الأرض وتنمو وتؤتي أكلها ويقول: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾[(٣)].

---

(١) الملك: ١٥.

(٢) في ظلال القرآن ج٦ ص٣٦٣٨.

(٣) عبس: ٢٤ ـ ٣٢.

الفصل السابع

الحضارة الناشئة من القرآن الكريم

إن كل حضارة إنسانية تنبثق عن مفهوم للوجود وتصور للإنسان يحدد موقعه في الوجود، علاقته بالكون وبما وراءه، وتنطلق هذه الحضارة من اعتقاد يؤمن به الإنسان في هذا المجال.

فالعقيدة سواء أكانت دينية أم فلسفة فكرية هي الأساس الذي تقوم عليه حضارة أولئك الذين يدينون بتلك العقيدة أو الفلسفة، بل تقوم عليه جميع الأنظمة الاجتماعية في تلك الحضارة، لذلك فمن العسير أن تفصل نظام الحكم في الإسلام عن عقيدته، إذ تعد الحاكم عبد الله اختير ليسوس الجماعة الإسلامية سياسة تطبق فيها أحكام الإسلام بالتشاور مع أهل الرأي من المسلمين[(١)].

فهذه النظرة إلى الحاكم والمحكومين من عامة الناس وما بينهما من صلة، منبثقة عن التصور الإسلامي الذي يعد البشر متساوين أمام الله تعالى. يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ

(١) نظام الإسلام محمد مبارك ص٣٧.

إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[١].

وإن الله استخلف بني آدم في الأرض دون أن يخص منهم أفراداً أو أسرة أو طبقة بهذا الاستخلاف، وأن أمير الجماعة ليس إلا إنساناً يخطىء ويصيب وكذلك البشر كلهم وأن عالم الهداية حددها الله تعالى كما حدد للكون سننه وللطبيعة قوانينها، وأن الاستهداء بها وحسن تطبيقها راجع إلى الجماعة كلها لا إلى رأي فرد، لذلك كانت الشورى أساساً للنظام الإسلامي. يقول تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[٢] ويقول: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[٣] وكانت مسؤولية الحاكم بارزة في هذا النظام[٤].

ولا بد للإنسان في المجتمع الإسلامي أن يقيم لمجتمعه نظاماً من عقيدة وفلسفة، فما هي العقيدة التي هي أساس نظام الإسلام وما هي نظرته العامة إلى الوجود؟ وما موقع هذه العملية بين المسلمين؟

١ ـ لو رجعنا إلى القرآن الكريم بخصوص أسس الحضارة الإسلامية والنظام الذي بني عليه لوجدنا أنه يعطينا جواباً كافياً وقاعدة حضارية لم يصل إلى مستواه أية حضارة منذ ظهور البشرية على الأرض.

لقد كان خطاب القرآن الكريم موجهاً منذ البداية إلى الإنسان بوجه عام، لا إلى قبيلة أو قوم بوجه خاص، ويجلو ذلك في نداء الله تعالى بني البشر في آيات عدة كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ و﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) الشورى: ٣٨.

(٣) آل عمران: ١٥٩.

(٤) نظام الإسلام: ص٣٧.

أَنفُسِهِمْ﴾، ويبدو من هذا الخطاب أن الناس كلهم عباد الله، وكلهم من آدم وآدم من تراب، وكلهم متساوون أمام الله، وميزان المفاضلة التقوى لا المال ولا الجاه والسلطان وليس في الحضارة الإسلامية مشكلات لونية أو عرقية[١]، لذلك دعا القرآن الإنسان إلى الإيمان بالله خالق الإنسان من العدم، والإيمان بيوم الآخرة التي تعرض فيها أعمال البشر ويجد فيها الإنسان جزاءه إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

إلا أنه حين دعاه إلى الإيمان انطلق به للنظر إلى الكون الذي يعيش فيه، كما دعاه للنظر إلى نفسه إذ يقول: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[٢]، ولفت نظر الإنسان إلى التأمل فيما حوله من الآيات ثم ينتقل به إلى التأمل في نفسه ليرى فيهما آثار الله على قدر استطاعته وعلمه، ليتضح له سر قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[٣] ولذلك نجد أن الكلام يتكرر فيه عن الإنسان ومشاهد الكون على أنهما طريق الوصول إلى ما وراء الطبيعة.

٢ ـ أن الكون المعروض في القرآن الكريم عام يشمل الأرض التي نعيش فوقها وما عليها من الجبال والبحار والأنهار ثم يتجاوزها إلى النجوم والكواكب، وإلى الشمس والقمر وما يبصره الإنسان وما لا يبصره من المجرات، يقول تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ

---

(١) الإسلام يقيناً لا تلقيناً، ص٢٢٥.

(٢) الذاريات: ٢٠ ـ ٢١.

(٣) فصلت: ٥٣.

مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1].

يقول الشوكاني في تفسير هذه الآية: (والأرض مددناها) أي بسطناها وفرشناها، (وألقينا فيها رواسي أي جبال ثابتة لئلا تتحرك بأهلها، (وأنبتنا فيها من كل شيء موزون) أي أنبتنا في الأرض مقدراً معلوماً من كل شيء فعبر عن ذلك بالوزن لأنه مقدار تعرف به الأشياء، (وجعلنا لكم فيها معايش) تعيشون بها من المطاعم والمشارب وجميع أسباب الرزق مدة الحياة، (ومن لستم له برازقين) وجعلنا لكم فيها معايش وجعلنا لمن لستم له برازقين فيها معايش كالأطفال ومن يعيلهم، (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه)، إن جميع الأشياء عند الله خزائنها لا يخرج منها شيء، (وما ننزله إلا بقدر معلوم)، أي بمقدار معين حسبما تقتضيه مشيئته على مقدار حاجة العباد إليه، (وجعلنا الرياح لواقح) أي تحمل السحاب وتلقحه ثم تمر به وتنزله، (وأنزلنا من السماء ماء) أي من السحاب ماء المطر وجعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم وليست خزائنه عندكم)[2]، ويرينا القرآن كذلك أن كل تقلبات الكواكب وحوادث الأفلاك ذات صلة بالأرض والحياة، ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[3]، ويخرجنا في نهاية المطاف من باب النتيجة إلى أن هذا الكون العام بنظامه وتقلباته يخضع لسلطان الله وقدرته وسخر فيها الأرض للإنسان من أجل إعمارها وتنفيذ حكم الله فيها.

---

(١) الحجر: ١٩ ـ ٢٣.

(٢) فتح القدير ج٣ ص١٢٦ ـ ١٢٧.

(٣) يس: ٣٨ ـ ٤٠.

ويوضح هذه الظاهرة قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾[2]، فمادة الكون خلقها الله للإنسان ويسر له أسباب تسخيرها واستخدامها لصالحه، فإذا رد هذا الفضل إلى الله فهو من عباد الله، وإن رده إلى الطبيعة أو العقل غير الله تعالى فهو ظلوم كفار[3]، فالكون في نظر القرآن ليس عدواً يحارب، ولكنه مجال عمل وميدان نشاط يبذل فيه الإنسان الفكر والجسم ليعمره، وهذا التسخير والتلائم مربوط بتكريم الإنسان وحمله في البر والبحر لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[4].

الكون كما يعرضه القرآن الكريم تجري على مسرحه حوادث تتبدل وتتغير، وتتميز بعضها عن بعض بالحركة، وتنتقل من طور إلى طور مما يدل على أن عناصر الكون مخلوق، ويقول القرآن الكريم: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[5]، ويقول:

---

(١) الملك: ١٥.

(٢) إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤.

(٣) الإسلام يقيناً لا تلقيناً، ص٢٢٥.

(٤) الإسراء: ٧٠.

(٥) الحج: ٥.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾[١] وكذلك أطوار خلق الإنسان، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾[٢]. وأن هذه الحوادث مرتبط بعضها ببعض ما بين سابق ولاحق بانتظام وإطراد، ويدل على أنها تتبع سنناً مطردة في حدوثها وحركتها[٣] يقول تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[٤].

وكذلك اختلاف الثمرات والألوان والجبال، يقول تعالى في اختلاف الثمار ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾[٥]، وأن هذه الثمار متشابه وغير متشابه، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾[٦].

---

(١) النور: ٤٣.

(٢) فاطر: ١١.

(٣) نظام الإسلام محمد المبارك ص٤٢.

(٤) الأعراف: ٥٤.

(٥) الرعد: ٤.

(٦) الأنعام: ٩٩.

وحول اختلاف الألوان يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾(١) ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾(٢)، ولو تأملنا في هذه الآيات لألفينا أن القرآن يرينا الدلائل المنظورة والمشاهدة على مخلوقية الكون مما نراه من الحوادث المتعاقبة عليه واختلاف الثمار والأشجار والأطعمة المسقاة بماء واحد واختلاف الأنواع والأجناس وألوان البشر وألسنتهم وطبائعهم واختلاف ألوان الجبال والتناسق التام بين حوادث الأفلاك والأكوان كل ذلك دليل لمن له عقل يتدبر في الكون المنظور، ويريد أن يؤمن بخالقه ومن يحدث فيه هذه التغيرات وأن يتعلم أسرار ما كشف الله له من خلقه ويغويه الفلسفات التي لا تستند على دليل علمي صحيح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وفي آية أخرى: (يؤمنون) وفي آية أخرى (للعالمين)، وكل هذه أدلة على أنه تعالى أحدث في الكون هذه التغييرات الطبيعية والفلكية.

لقد ربط القرآن الكريم خلق الكون وما فيهما بالحق في ثنايا بعض الآيات ليكون ذلك برهاناً على أن الكون لم يخلق عبثاً وأن وراءه خالقاً أوجده لغاية، يقول تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾(٣)، ويقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾(٤).

---

(١) الروم: ٢٢.

(٢) فاطر: ٢٧.

(٣) النحل: ٣.

(٤) الدخان: ٣٨ ـ ٣٩.

قال الشوكاني في تفسير الآية الأولى: أي للدلالة على قدرته ووحدانيته[١]، ويقول ابن كثير في تفسير الآية الثانية: (يقول تعالى مخبراً عن عدله وتنزيه نفسه عن اللعب والعبث والباطل بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾[٣])[٤].

وهكذا نجد أن القرآن ينفي العبث عن خلق الكون وما فيه وجعله موضع تأمل وتفكر، ويدعو الإنسان إلى استعمال حواسه وعقله ليدرك بهما أسرار الكون إدراكاً أعمق، وكذلك جعله موضع انتفاع واستثمار ومتعة وجمال، ودعاه إلى إحقاق الحق وإقامة العدل في الأرض لينضم إلى وحدة النظام الكوني الذي لا يحيد عن نظامه قيد شعرة كما أوضحنا.

٥ ـ أن الكون كله بمادته وسننه منقاد لمشيئته: يقول تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾[٥]، خاضع للإله الأحد المفرد لا يشاركه في الهيمنة عليها مشارك[٦]، وهو مالكه ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾[٧]، ويقول: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) فتح القدير ج٣ ص١٤٧.

(٢) ص: ٢٧.

(٣) المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦.

(٤) ابن كثير ج٤ ص١٤٥.

(٥) البقرة: ١١٦.

(٦) الطبيعة في القرآن الكريم تأليف د. ياسر كاصد الزبيدي ص٤٩.

(٧) البقرة: ٢٨٤.

وَٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾﴾[(١)]، وملكه منتظم لا فوضى فيه، ولكن انتظامه واستمرار هذا النظام منوط ومرتبط بإرادته وقدرته حسب ما يقتضيه مشيئته، وكل تعليل لحوادث الطبيعة بقانونها تعليل ناقص لأن القانون واقع يحتاج إلى تعليل، وليس القانون موجداً للحادثة من العدم، ولا يتصف بالوعي الهادف وكل افتراض لقوة كامنة أو خفية إن صح فهو ناقص يحتاج إلى تعليل هذه القوة الكامنة غير الواعية ولا العاقلة[(٢)] لذلك كان الإيمان بالله الخالق متمماً ومكملاً لنظرتنا إلى الكون والطبيعة وما فيها من حركة وتطور ومن سنن وقوانين، فهي محتاجة إلى وجوده، ومفتقرة إلى استمرار إمداده وعنايته مؤتمرة في مسيرها وكيانها بأمره[(٣)]، (ولله يسجد ما في السموات والأرض).

٦ ـ الإنسان أحد هذه المخلوقات الكونية التي أسكنها الله في هذه الأرض وهو يشارك بعض هذه المخلوقات في صفاتها مما يدل على أن حياة الكائنات بما فيها الإنسان تكونت منها بقدرة الله الجبار، فهو يشارك التراب في أصل خلقته وعناصر تركيبه وتكوينه وقبول الحياة والإنبات، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾[(٤)]، فالأرض الميتة ينزل عليها الماء بأمر ربه، فإذا بها تستجيب لداعي الحياة فتنبت من الأصناف ما يبهج النفوس[(٥)]، فجعل الله علاقة بين الماء والأرض كما جعل

---

(١) الحديد: ٥. وآيات كثيرة غير ذلك كـ (آية الكرسي، وآية فصلت) وآية (السجدة ـ الرعد) وآية (١٧ ـ ١٨) المائدة وغير ذلك كثير.

(٢) نظام الإسلام محمد المبارك ص٥٦.

(٣) المصدر نفسه ص٥٦ والإسلام يقيناً لا تلقيناً، ص١٤٠.

(٤) الروم: ٢٠.

(٥) الطبيعة في القرآن الكريم ص٨٨.

بين الإنسان والأرض علاقة وهذه العلاقة سنة من سنن الله في الكون في إخراج شيء بسبب شيء، ولننظر إلى سر قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[(١)] مع قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[(٢)]، فالماء كالرجل في علاقته بالأرض والأرض كالمرأة في استجابتها له وما ينبت منها أشبه بالنسل الذي يتولد من تزاوج الرجل والمرأة، فالإحياء بالماء أيضاً ليس بعيداً عن تكوين الإنسان الأول من التراب الذي لا حياة فيه، ولكن القدرة الإلهية هي التي بثت فيه الحياة وخلقت فيه الروح فإذا هو بشر سوي.

هذه الصورة في إنبات النبات بالماء وظهوره متدرجاً من طور إلى طور، مشابهة بنشوء الحيوانات والإنسان وتدرجه من نطفة ثم إلى مضغة. . . بقدرة الله ومشيئته هذه الصورة الحية تدل على ما وراءها من القدرة المحركة لذلك كله[(٣)]، ثم ربط هذا بمراقبة الله في تنفيذ أحكامه وأداء شعائر العبادة في السر والعلانية لتطهير النفس من الدنس والخطايا والأرض من الجو والفساد لإقامة الإحسان فيهما (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، ثم ربطه بالآخرة لينال جزاء عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

---

(١) البقرة: ٢٢٣.

(٢) الحج: ٥.

(٣) الطبيعة في القرآن الكريم: ٨٨.

الفصل الثامن

المقارنة بين حضارة القرآن والحضارات القديمة

إن المقارنة منصبة على بعض المعتقدات والآراء المكونة حول الكون وخالقه في الحضارات القديمة والعقائد الدينية السماوية التي أصابها التحريف والتبديل، وحضارة القرآن الكريم التي جاءت مصححاً لهذه التحريفات والتغييرات التي تعرضت لها العقائد السابقة:

١ ـ ينظر القرآن إلى أن الكون وجميع عناصره من الشمس والقمر والكواكب والذرات والأرض ملك لله تعالى ولا يشاركه أحد في ملكه يقول تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾[1] يتصرف في ملكه كيف يشاء يقول تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾[2] ويقول: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾[3]، ﴿لَّهُۥ مُلْكُ

(١) الإسراء: ٤٢ ـ ٤٣.

(٢) طه: ٦.

(٣) الحديد: ٢.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾﴾[1].

أما الحضارات القديمة تجعل الأجزاء الكونية مقسمة بين آلهة متعددة كما هو الحال في حضارة بابل وآشور ومصر إذ جعلوا لكل عنصر إلهاً خاصاً به أو بين إلهين كما في حضارة فارس إذ جعلوا الكون مقسماً بين يزدان واهرمن.

٢ ـ أن عناصر الأجرام السماوية من الشمس والقمر والكواكب آيات من آيات الله الدالة على وحدانيته، وهما ـ الشمس والقمر ـ مسخرتان بأمره يجريان إلى أجلهما المسمى في علم الله، خلقهما لتسهيل الحياة للإنسان وغيره، من أجل أن يبتغي الرزق في النهار، ولمعرفة عدد السنين والحساب، ويسكنوا إلى الراحة وإعادة النشاط والقوة للقيام بالعبادة على الوجه المطلوب، يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾[2]. ويقول: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾[3].

أما الحضارات القديمة فتعد الشمس والقمر إلهين إلى النهار والحياة وإله الليل والظلمة، فالديانة المصرية صوروا الشمس على شكل نسر يقطع الفضاء في سفينته ويغيب وراء الأفق ليولد من جديد، وكانت الشمس نور الآلهة الذي يقضي الليل في الأعماق الشمالية حتى يفتح له الفجر أبوابه، فيصعد في السماء كاللهب ويضرب بعربته في أعماق القبة الزرقاء، ولم تكن الشمس إلا عجلة في مركبتها النارية وقدسوا من الحيوانات التمساح والصقر والخفاش وابن آوى

---

(١) الحديد: ٥.

(٢) الإسراء: ١٢.

(٣) النبأ: ١٠ ـ ١١.

والكبش والعجل، وعلى رأسه صورة الشمس، أو أن الشمس عيني موريس ينظر بهما إلى أهل الأرض ليرعاهما[١].

٣ ـ أن الكون بما فيه من العناصر والمخلوقات ساجدة لله تعالى (كل له قانتون) لا يخالفون أمره وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ. .﴾[٢] ويستمدون العون والقوة منه تعالى الذي أنشأ الكون من العدم وسخره لجلاله، وكل المخلوقات بما فيها الإنسان ينفذون أمره تعالى، ويتفق التشريع الكوني والبشري عند الخالق تعالى، لأن منشىء الكون ونظامه هو المنزل للتشريعات البشرية وتعاليمهم بواسطة الرسل والأنبياء الذين اصطفاهم الله من البشر.

وآخر هؤلاء الرسل وأشملهم رسالة هو محمد بن عبد الله، فوحد طريق العبادة بعبادة الله الواحد الأحد وأبطل ما عداه من العبادات لغير الله.

أما أوجه العبادة في الحضارات الأولى فمتشابهة لدى الإنسان القديم ـ البدائي ـ في نشأة الديانات وفي صور الآلهة، في مصر ويونان وسومر والهند والصين وفارس، في تعدد الآلهة وعبادة العناصر الطبيعية، لأن هذا التشابه أمر لازم تحتمه الشعور بين الناس في حياتهم الأولى ووحدة الحياة التي كانوا يحبونها، ففي مصر كانت آلهة الفراعنة تملأ الأرض، والشمس عندهم الأب الذي لقح الأرض بأشعة الحرارة والضوء فأخرجت في بطنها هذا الخير الكثير[٣].

---

(١) الله ذاتاً وموضوعاً عبد الكريم الخطيب الطبعة الثالثة ١٣٩٥ ـ ١٩٧٥. دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ص٨٠.

(٢) الحج: ١٨.

(٣) الله ذاتاً وموضوعاً ص٧٨ ـ ٧٩.

وكذلك أقدم آلهة بابل آنو السماء الثابتة، الشمس، والقمر.

٤ ـ أن عناصر الكون في القرآن الكريم ليست أزلية، بل هي مخلوقة من العدم، وعبر عن هذا الحدوث بألفاظ كثيرة نذكر منها:

أ ـ الخلق. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[١]،

ب ـ فطر. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٢]،

جـ ـ الإنبات. ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[٣]،

د ـ أنشأ. ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[٤]،

هـ ـ بديع. ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٥]، إلى غير ذلك.

من الألفاظ الدالة على أن للكون بداية وأن الله أنشأه من العدم وهو يديره ويقلبه كيف يشاء، ومن نظر بعين العقل لأدرك حدوث الكون كما أثبت العلم الحديث أنه كان يوماً لم يكن له وجود ثم وجد، وقد استدل إبراهيم عليه السلام على مخلوقية الكون بالبحث والاستدلال ليصل من خلال النظر إلى عناصره والتغييرات الحادثة فيه إلى الموجد الأول للكون.

يقول القرآن الكريم:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾

---

(١) الأنعام: ١.

(٢) فاطر: ١.

(٣) نوح: ١٧.

(٤) يس: ٧٩.

(٥) البقرة: ١١٧.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[1].

وقد نقل القرآن لنا هذه المناظرة لا لمجرد السرد القصصي بل لإشعار الإنسان وإفهامه بطريقة تدليلية على حدوث الكون وعدم أزليتها، وأن الأفول أدل دليل على حدوث الكون لمن يعتبر[2].

أما في منظور الحضارات القديمة فإن عناصر الكون أزلية وأنها هي آلهة ونشأت عن طريق التولد الذاتي.

٥ ـ أن الكون وما فيه من الأجرام والحياة في نظر القرآن ليس أبدياً بل إنه فان، وينتظر نهايته، يقول تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[3]، فالفناء والهلاك يشمل الكائنات كما نراها في حياة وفناء مستمرين، وليست الشمس والقمر والكواكب والجبال والبحار والنباتات بمعزل عن هذه المخلوقات بل إنها ليصيبها ما يصيب الكائنات من الفناء والهلاك والتبديل، يقول تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾[4] وكذلك

---

(١) الأنعام: ٧٥ ـ ٨١.

(٢) الطبيعة في القرآن الكريم ص٥٩.

(٣) القصص: ٨٨.

(٤) التكوير: ١ ـ ٦.

آيات أخرى تدل على فناء الكون في يومه الموعود[١].

أما في الحضارات القديمة فإن الكون وعناصره من نجوم وكواكب أبدية غير قابلة للفناء، وأن البابليين والمصريين واليونانيين يؤمنون بأن الشمس والكواكب آلهة سرمدية لا تقبل الفناء.

٦ ـ أن أجزاء الكون العلوي والسفلي في تناسب وتناسي تأمين وليس بينهما صراع أو شر وفساد، وكل ما في الأرض عامل خير لمصلحة الإنسان فلا تحكم الأرض قوى الشر والشياطين كما يعتقده الفرس والمصريون القدماء وغيرهما، فالحوادث على الأرض واختلاف الليل والنهار وإنزال المطر والبرد ذات علاقة فيما بينها ومتممة لديمومة الحياة، يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[٢]، وهذه التغيرات المتكررة والعلاقة بين الأرض والسماء تجعل الأرض صالحة للحياة بصورة مستمرة، ومردُّ هذه التغيرات إلى الله لا إلى حركة الكواكب أو النجوم، أما في الحضارات القديمة فإن عناصر الكون في صراع دائم بين قوى الخير والشر، إله الخير والشر، كما بين الإله موريس وسيت في الحضارة المصرية ويزدان واهرمن في الحضارة الفارسية والإله الحافظ والإله المدمر عند الهند، وهذا ما حدث عندهم ـ الهند ـ فقد انقسمت الحياة إلى قسمين قسم يقدس الحياة وإلهها (قشنو) وقسم آخر يقدس إله الفناء (شيفا)[٣]، وأن التغييرات والحوادث التي تحدث في الأرض

(١) كما في سورة الانفطار والزلزال والقارعة والواقعة والقيامة.
(٢) البقرة: ٢٢.
(٣) الله ذاتاً وموضوعاً ص٨٤.

مرده إلى الكواكب.

٧ ـ أن البشر كلهم على اختلاف شعوبهم وألوانهم وطبقاتهم عباد الله، فليس أحد منهم بإله سواء أكان فرداً أم جماعة، وكل تقديس أو استعلاء لفرد أو طبقة أو هيئة أو أسرة يناقض هذا الأساس يعتبر ضرباً من الشرك والتالية لغير الله(١).

أما في الحضارات القديمة أن الملوك والكهان هم نواب آلهة السماء ينفذون حكمه بين الناس في الأرض.

٨ ـ أن الإله في القرآن إله واحد وكل ما سواه مخلوق له وخاضع لقدرته يتصرف فيه كيف يشاء، وأنه إله العالمين كما صرح بذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾(٢) ويتصف بجميع صفات الكمال، ويتنزه عن كل نقائص، وهو عالم بالغيب والشهادة، يقول تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾(٣) ويقول: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾(٤).

أما في الحضارات القديمة فلكل مدينة أو قبيلة إله خاص يحميه، كما أن فلاسفة اليونان تصوروا الإله مادة هيولانية خلقت الحياة وليس للإله المعطل إلا التنظيم، أي عندهم المادة والإله المعطل.

٩ ـ أن الإله في العهد القديم يتخذ من عناصر الكون مكاناً لسكناه، فهو يسكن الجبال والكهوف والضباب والسحاب والهواء وغير ذلك من عناصر

---

(١) نظام الحكم في الإسلام تأليف د. محمد عبد الله العربي ص٨ دار الفكر بيروت.

(٢) الفاتحة: ١.

(٣) يونس: ٦١.

(٤) الأعراف: ٥٤.

الطبيعة، تقول التوراة: (جبل الله جبل باشان جبل اسمه جبل باشان لماذا أيتها الجبال المسنمة ترصدن الجبل الذي اشتهاه الله لسكنه، بل الرب يسكن فيه إلى الأبد مركبات الله ربوات ألوف مكررة الرب فيها)[١].

وتقول: (قال سليمان: قال الرب إنه يسكن في الضباب وأنا بنيت لك بيت سكنى مكاناً لسكناك إلى الأبد)[٢]. هذا مثال واضح في تحريف التوراة على أيدي الكهنة وفي الافتراء على الأنبياء وحاشاه أن يصدر منه مثل هذا الكلام.

أما في القرآن الكريم فالله تعالى لم يتلبس بعناصر الطبيعة، وأنه غير محتاج إلى سكن يستقر فيه، وكل ما في الكون من عناصر سماوية وأرضية مسخر للإنسان وتعد الرياح والسحاب رحمة للإنسان بتسخيرها له وتصريفها من أجل منفعته، وكذلك الجبل خلق من أجل استقرار الأرض وتكوين السحاب فوقها، وليكون منابع الأنهار[٣] كما بينا سابقاً.

وكذلك أنه تعالى مستغن عن الحوادث فهو يقول: «الله الصمد» فالصمد معناه استغناؤه عن جميع الحوادث، وكلها محتاجة إليه تعالى، وكذلك أنه غير مماثل للحوادث، فهو يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[٤]. وتدل هذه الآية على عدم مماثلته لغيره، ولم يكن له كفواً أحد «وهو متصف بصفات الكمال منزه عن النقص، فلو احتاج إلى مكان لكان ناقصاً وحادثاً، والله تعالى واجب

---

(١) المزامير: ٦٨ ـ ١٥ ـ ١٦ ـ ١٧.

(٢) أخبار الأيام الثاني: ٦: ١ ـ ٢، وكذلك سفر أيوب ٢٢: ١٢ ـ ١٣.

(٣) وقد سجل غوستاف لوبون هذه الملابسة في كتابه (اليهود في تاريخ الحضارات الأولى)، ص٦٨.

(٤) الشورى: ١١.

الوجود ومرجع لكل الحوادث وهو الأول والآخر، وجامع الكمالات، أما ما أشار إليه القرآن بقوله تعالى: «ثم استوى على العرش» فمعناه على رأي السلف الصالح استواء لا نعلم كيفيته، وبشكل يليق بكماله، وعلى رأي المؤولة أنه تعالى استوى بقدرته على العرش وجرى حكمه في ملكوته ومخلوقاته، ولكن الذين قالوا أن الله ينزل إلى السماء الدنيا كما ينزل الإنسان على المنبر، خرجوا عن التأويل وشبهوا الله بالمخلوقات كما ذهب إلى ذلك المجسمة وهذا لا يليق بكمال الله تعالى، ويخالف قوله تعالى «ليس كمثله شيء».

١٠ ـ أن خلق عناصر الكون السماوية والأرضية في العهد القديم أتعب الإله، حتى استراح في اليوم السابع، تقول التوراة: (فأكملت السموات والأرض وكل جندها وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل وبارك الله في اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً)[١].

غير أن القرآن الكريم ينكر هذا المفهوم أشد الإنكار، فالسموات بما فيها والأرض وما عليها ليست شيئاً إزاء عظمة الخالق وقدرته التي لا تقف عند حد معين، ولا يقف دونها شيء في التصور القرآني، ولذلك فإن إيجادها وتكوينها لا يمكن أن يمس الخالق القدير بما يمس به المخلوق الضعيف من إجهاد وتعب عند أداء عمل شاق أو صعب، فالقرآن يصغر الطبيعة مهما عظمت في الحس، ويجعلها شيئاً صغيراً هيناً إزاء عظمة الخالق الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء[٢] يقول تعالى رداً على مزاعمهم وبطلا قولهم بأن

(١) التكوين/الإصحاح الثاني: ١ ـ ٣.

(٢) الطبيعة في القرآن الكريم: ١٦٣.

الخلق أتعب الإله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾[1]، ويقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾[2].

وهكذا يتبين لنا أن القرآن الكريم جاء مصححاً للآراء الخاطئة ومرشداً نحو حقيقة الكون ومبطلاً جميع معتقدات الوثنية والتلابسات بين الطبيعة والخلق، وتتفق آيات القرآن مع الحقائق العلمية الصحيحة حول الكون.



(١) ق: ٣٨.

(٢) الأحقاف: ٣٣.

الباب الثاني

الكون في منظور الحضارة الحديثة

ويشتمل على ستة فصول:

١ ـ الفصل الأول: الكون والمصادفة.

٢ ـ الفصل الثاني: نظرة الماديين إلى الكون.

٣ ـ الفصل الثالث: نظرة المثاليين إلى الكون.

٤ ـ الفصل الرابع: خالق الكون في الحضارة الحديثة.

٥ ـ الفصل الخامس: الحضارة الناشئة من النظرة السادية.

٦ ـ الفصل السادس: المقارنة بين حضارة القرآن والحضارة الحديثة.



الفصل الأول

الكون والمصادفة

إن كل ما في الكون ابتداء من بناء الذرة حتى أعقد أشكال الحياة يشير إلى التصميم والقصد في بناء الكون والحياة، ولكن هناك شبهة تدور في ذهن البعض وهي رد كل شيء إلى (الصدفة)، غير أن هناك فرق بين شيئين الأول هو خلق الشيء، والثاني ترتيب الشيء أو تركيبه، ولا يمكن أن تدخل فكرة المصادفة في المبحث الأول، لأن الوجود لا تحكمه قانون المصادفة بحال من الأحوال، أما تركيب الأشياء فقد يبقى موضع بحث، كما أن حركة الشيء لا يمكن أن يرد إلى المصادفة، وهكذا نجد أن قانون المصادفة يبقى مشوهاً مبتوراً من الأساس، ولو تجاوزنا عالم المادة وتناولنا فكرة الحياة وحدوثه لوجدنا أن قانون المصادفة يبقى عاجزاً عن إعطاء أي تفسير عنها ذلك لأن ترتيب المواد بكيفية ما قد يوضع في مدار البحث، ولكن انبثاق الحياة من الموات أمر يبقى العلم عاجزاً عن تفسيره وشرح حقيقته وكيفيته(١).

ويتناول هذا الفصل مناقشة هذه النظرية ونظريات أخرى مشابهة في مباحث:

---

(١) ينظر: الطب محراب الإيمان خالص جلبي كنجو، أبحاث في العلم والإيمان طبع سنة ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م، مؤسسة الرسالة ١/ ١٣ ـ ١٤.

المبحث الأول

قانون المصادفة والكون

الصدفة لغة من صدف بمعنى عدل أي أعرض[١] وصِدفةٌ هيَ المصادفة والاتفاق وجمعه صدف[٢] وصادفه مصادفة أي وجده ولقيه على غير قصد، وتقول العامة صدفة إذا لقيه اتفاقاً[٣] واصطلاحاً:

عرفه محمود أبو الفيض المتوفي صاحب كتاب (الوجود) وقال: (الصدفة لفظ فارغ يدل على الجهل أو التجاهل لما وراء الصدفة أو الحوادث الوجودية من علل وأسباب ما يترتب على تلك العلل والأسباب والنظم من نتائج وغايات)[٤].

---

(١) لسان العرب المجلد التاسع ص١٨٧ مادة (صدف).

(٢) القاموس الجديد للطلاب تأليف علي بن هادية، الطبعة الرابعة ١٩٨٣ الشركة التونسية للتوزيع ص٥٥٤ مادة (صدف).

(٣) محيط المحيط تأليف بطرس البستاني طبع سنة ١٩٧٧ مكتبة لبنان ص٥٠٢ مادة (صدف). وفاكهة البستان تأليف الشيخ عبد الله البستاني اللبناني طبع سنة ١٩٣٠ المطبعة الأمريكانية بيروت ص٧٨٠.

(٤) كتاب الوجود مباحث في (الله ـ والطبيعة والإنسان) ص٥٢.

أو هي (ترتيب الحوادث والوجود اتفاقاً من غير قصد، دون تدخل إرادة خارجية في إيجاده).

ويمكن أن تقع المصادفة بين شيئين إذا كانت عدد الأشياء المتزاحمة قليلة، ويقل حظ المصادفة كلما كثر عددها، ويقول قانون المصادفة: (أن حظ المصادفة من الاعتبار يزداد وينقص بنسبة معكوسة مع عدد الإمكانيات المتكافئة المتزاحمة[١].

فإذا كان التزاحم بين شيئين متكافئين يكون خط المصادفة بنسبة (واحد ضد اثنين)، وإذا كان التزاحم بين عشرة يكون حظ المصادفة بنسبة (واحد ضد عشرة)، لأن كل واحد له فرصةٌ للنجاح مماثلة فرصةٍ أخرى[٢].

ولو افترضنا أن المادة وجدت بنفسها في الكون، وافترضنا أيضاً أن تجمعها وتفاعلها كان من تلقاء نفسها، فلا نجد أساساً لنقيم عليه هذه الافتراضات، ففي تلك الحالة لن تظفر بتفسير الكون، لأن صدفة أخرى تحول دون طريقنا، وكذلك الرياضيات التي تعطينا افتراض الصدفة هي التي تنفي أي إمكان رياضي في وجود الكون الحالي بفعل قانون الصدفة[٣].

وقد وقع كثير من العلماء الماديين في تناقض في حديثهم عن نشأة الكون عن طريق المصادفة، وهذا (جارلس دارون)[٤] صاحب نظرية التطور، يفسر حدوث الكون والحياة نتيجة الصدفة، ويقع في تناقض منطقي عجيب إذ

---

(١) قصة الإيمان ص٢٩٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الإسلام يتحدى ص٧٣.

(٤) عالم طبيعي ولد سنة ١٨٠٩ وهو من سكان لندن وتوفي سنة ١٨٨٢.

يقول:

(نستطيع القول أن مفصل الباب مصنوع من قبل الإنسان ولكننا لا نستطيع الادعاء بأن المفصل المدهش الموجود في صدفة المحار من صنع كائن عاقل)[١].

ولا يمكن أن يُرد ادعاء دارون بعبارة أبلغ وأوجز من عبارته هو، فعندما يذكر أن مفصل أي باب بسيط معمول من قبل الإنسان ولكن المفصل الحي الذي يصفه بأنه (مدهش) ليس إلا نتيجة للصدفة، يقع في تناقص صارخ يندر أن يشاهد في دنيا العلم. والسبب الذي دفع دارون إلى شرح كل شيء وتفسيره بالصدفة، بهذه الدرجة من البساطة فضلاً عن ضعف منطقه ضحالة علمه بالرياضيات إذ يقول:

(إن قابليتي محدودة في مجال الفكر المجرد والتأمل الطويل لذا لم أوفق أبداً في الرياضيات وفي العلوم الميتافيزيقية[٢].

ولكي يتضح أن الكون ليس محلاً للصدف نأخذ مسألة ترتيب الأعداد من (واحد إلى عشرة) ونكتب هذه الأرقام على عشرة دراهم ثم نضعها في كيس ونخلطها ثم نسحب درهماً واحداً، وأن احتمال ظهور رقم واحد هو بنسبة واحد في عشرة، واحتمال ظهور الرقمين (واحد واثنان) بالترتيب واحد في المائة واحتمال ظهور الأرقام (١، ٢، ٣، ٤) بالترتيب هو احتمال واحد في العشرة آلاف، واحتمال ظهور الأرقام من واحد إلى عشرة بالترتيب هو

(١) داروين ونظرية التطور، تأليف شمس الدين آق بلوت ترجمة أورخان محمد علي مطبعة الزهراء الحديثة موصل. ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م. ص١٤.

(٢) داروين ونظرية التطور ص١٥.

احتمال واحد في عشرة بلايين من المحاولات[١].

لقد ضرب هذا المثال العالم الأمريكي الشهير (كريسي موريسون) ثم استطرد قائلاً: «والغرض من هذا المثل البسيط هو أن نبين لك كيف تتكاثر الأعداد بشكل هائل ضد المصادفة، ولا بد للحياة فوق أرضنا هذه من شروط جوهرية عديدة، بحيث يصبح من المحال حسابياً أن تتوافر كلها بالروابط الواجبة بمجرد المصادفة على أي أرض في أي وقت. لذلك لا بد أن يكون في الطبيعة نوع من التوجيه السديد، وإذا كان هذا صحيحاً فلا بد أن يكون هناك هدف»[٢].

وفي الكون أكثر من مائة عنصر كيمياوي كلها منتشرة في أرجائه، فأية نسبة في تركيب هذه العناصر يمكن أن تكون في صالح فرضية الصدفة؟ أيمكن أن تتركب خمسة عناصر من هذا العدد الكبير لإيجاد (الجزيء البروتيني) بصدفة واتفاق محض؟. وأن إمكان حدوث الجزيء البروتيني (صدفة) يتطلب مادة يزيد مقدارها بليون مرة عن المادة الموجودة الآن في سائر الكون حتى يمكن تحريكها وضخها، أما المدة التي يمكن فيها ظهور نتيجة ناجحة لهذه العملية فهي أكثر من ١٠ سنة أي مائتان وثلاثة وأربعون صفراً أمام عشر سنين[٣]، ولنتأمل بعدما تبين لنا أن المادة العادية غير ذات الروح تحتاج إلى بلايين البلايين من السنين، حتى يمكن حدوث (جزيء بروتيني) فيها صدفة، فكيف جاءت في هذه المدة القصيرة في شكل مليون من أنواع الحيوانات،

---

(١) الإسلام يتحدى ص٧٣، والعلم يدعو للإيمان، ص٥١ والكون والمصادفة فرحان البغدادي ص٢٧ ـ ٢٨. والطب محراب الإيمان ص١٤.

(٢) العلم يدعو للإيمان ص٥١.

(٣) الإسلام يتحدى ص٧٤.

وأكثر من ٢٠٠,٠٠٠ نوع من النباتات وكيف انتشرت هذه الكمية الهائلة على سطح الأرض، ثم كيف جاء من ضمن هذه الأنواع الحيوانية ذلك المخلوق الأعلى الذي نسميه (الإنسان)؟ فإن احتمال التغيير من جنس إلى آخر كما حسبها العالم الرياضي (باتو) يستغرق مليوناً من الأجيال وقال العالم الأمريكي (مارلين ب كريدر):

(إن الإمكان الرياضي في توفر العلل اللازمة للخلق عن طريق الصدفة في نسبها الصحيحة هو ما يقرب من لا شيء)[١].

(١) المصدر نفسه ص٧٧.

المبحث الثاني

التولد الذاتي[(١)]

لقد اعتقد بعض العلماء الماديين أن الكون حدث نتيجة (التولد الذاتي) من غير تأثير خارجي من إله، ومن أشهر القائلين بذلك العالم البايولوجي الألماني (هيجل) ويقول: «أن الكون مؤلف من المادة، والمادة مؤلفة من الذرات، من هذه المادة ظهر كل ما في الكون من أحياء وغير أحياء، وحركة العالم هي حركة تطور دائم يبتدىء من أبسط الذرات وينتهي إلى أرقى الكائنات، فهذه الكائنات كلها، حيها وجمادها تتألف من عناصر واحدة، لا فرق في ذلك بين حي وغير حي، لأن عناصر المواد العضوية موجودة بذاتها في المواد غير العضوية، وأن بالإمكان تحضير بعض مركبات عضوية بطريقة صناعية»[(٢)].

ويرى هيجل أن أصل الحياة نشأ من توازن نسبي بين مقادير خاصة من العناصر المادية، ولكن هذا التوازن دقيق جداً إلى حد أنه قد يكون نقص جزء واحد، وزيادة جزء واحد من أحد العناصر سبباً في نشوء الحياة أو تعطل

---

(١) هو: أن ينشأ الحياة من خلية واحدة بالانتشطار ويصير خليتين، ثم أربعة وهكذا حتى تكون منه هذا الكون بمادتها وحياتها.

(٢) قصة الإيمان ص١٨٨.

نشوءها[١].

ولكنه يقف هو وغيره من الماديين عاجزاً عن معرفة سر هذه النشأة للحياة الأولى من الجماد، حتى أن (بخنر)[٢] الذي هو من أشد المؤيدين لمذهب التطور قد وقف أمام خلق الحياة من الجماد حائراً كذلك إذ قال:

«أن البت في أمر التولد الذاتي للكرية الأولى التي ينشأ منها الأصل أمر غير متيسر لأن الأحوال المناسبة لتوليد الكريات الأولى تولداً ذاتياً غير معروفة والكرية ذاتها على بساطتها ذات بناء وتركيب يمتنع معه صدورها من الجماد مباشرة، بل أن ظهورها من الجماد ليعدُّ في نظر العلم معجزة ليست أقل بعداً عن العقل من ظهور الأحياء العليا من الجماد رأساً»[٣].

غير أن نظرية التولد الذاتي بنيت على مشاهدة نشوء الديدان على جثث الحيوانات بعض الثمار وكومة الزبالة وكان أصحاب هذه النظرية يفتشون الزبالة ليجدوا دودة مخلوقة بها، ليبرهنوا على نجاح نظريتهم، (كما كان يعتقد بعض قدامى اليونانيين بأن الجرذان نشأت من أكوام الزبل، أي أنهم كانوا يعتقدون بإمكانية النشوء الذاتي)[٤]. وأن فكرة نشوء الديدان من اللحوم عند تركها كانت سائدة في القرون الوسطى، حتى جاء العالم الإيطالي (فرانسيسكو ربدي)[٥] أوضح خطأ هذه الفكرة وقال:

إن الديدان لا يمكن أن تنتج من اللحوم إذا منعت الأخيرة من وصول الذباب إليها، وقد أحضر (ربدي) قطعتين من اللحم ترك أولاهما معرضة

---

(١) قصة الإيمان ص١٨٩.

(٢) طبيب ألماني ومن أكبر دعاة الداروينية ولد سنة ١٨٢٤ وتوفي سنة ١٨٩٩.

(٣) الإنسان والدارونية ص١٧١، وقصة الإيمان ص١٨٩.

(٤) قضية الخلق بين الماديين والمثاليين ص٦٥.

(٥) ١٦٦٥م.

للهواء الجوي بينما غطى الثانية بقطعة من الشاش وتركها فترة من الزمن كافية لظهور الدود في القطعة الأولى التي تمكن الذباب من أن يضع بيوضه فيها، كي يفقس ويتحول إلى يرقات، بينما ظلت الثانية كما هي لم يصبها التغير)[١]، وكذلك ترك اللحم في مكان معرض للهواء بسبب تكاثر الجراثيم عليه، وهو يسبب تعفنه وظهور الديدان عليه، فلو منع اللحم من الجراثيم بقي طرياً كما يرى في وضع الحية في زجاجة من الكحول.

وقد استمر العلماء بأبحاثهم في دحض نظرية النشوء الذاتي فقام العالم (تندل)[٢] بتحوير وتطوير أبحاث وتجارب (لويس باستر) ليناقش الانتقادات الموجهة إليه من قبل المؤمنين بفكرة النشوء الذاتي والمدافعين على هذه الفكرة.

وهذا عالم آخر وهو (لويس باستير) يردد ما صرح به الإمام الرازي[٣] بعد مرور (٧٠٠) سنة ويقول: (أن الكائنات لا يمكن أن تتولد إلا من كائنات حية مثلها)[٤] وهكذا دحضت فكرة النشوء الذاتي بعد أن سادت وسيطرت على عقول كثير من الناس ردحاً من الزمن، وبقي سر الحياة وطريقة نشوئها خفياً غامضاً حير ألباب العقلاء، وتاهت في ظلماته تكهنات الحكماء، وغرقت في أعماق بحره نظريات العلماء، ولم يهتدوا إلى الحقيقة، لأن الحياة موكول أمره إلى الله، فلم يبق المجال أمام أصحاب هذا الرأي إلا الإذعان للحقيقة والركون إلى أن لهذا الكون خالقاً أوجده من العدم، ويتصرف في ملكه كيف يشاء.

---

(١) قضية الخلق بين الماديين والمثاليين ص٦٦.

(٢) أحد العلماء المعترضين على نظرية داروين، وفند آرائهم وأقام الأدلة العلمية.

(٣) المتوفى سنة ٦٠٦هـ.

(٤) قضية الخلق بين الماديين والمثاليين ص٦٦.

المبحث الثالث

هبوط الحياة على الكواكب الأخرى

لقد سادت نظرية أخرى ترى أن الحياة هبطت على كوكب الأرض من السماء محمولة على ظهر النيازك والشهب فوجدت لها مرتعاً خصباً على كوكب الأرض فنمت وتكاثرت دون مزاحم ولا منافس، غير أن هذه النظرية تواجه صعوبات وانتقادات علمية حتى حكم عليها بالفشل للاعتبارات التالية:

١ ـ أن أي جسم كوني يدخل الغلاف الغازي المحيط بالأرض يسخن لدرجة حرارية عالية كفيلة بالقضاء على أية حياة فيه إن وجدت، وقد يحترق فيه.

٢ ـ أن الإشعاعات الكونية المميتة الموجودة في الطبقات العليا كفيلة هي الأخرى بقتل أي بذرة للحياة تمر من خلالها.

٣ ـ أن المسافات بين الكواكب شاسعة جداً، وليس من المحتمل أن تعبر بذور احياة هذا الأمد الطويل تحت ظروف قاسية كالتي توجد في الفضاء الكوني قبل أن تصل إلى الأرض[١].

---

(١) قضية الخلق بين الماديين والمثاليين ص٦٨ نقلاً عن قصة الحياة ونشأتها على الأرض للدكتور أنور عبد العليم.

ويقول (أ. كريسي موريسون)[١]: أن افتراض نشأة الحياة على الأرض نتيجة جرثومة هبطت إليها من بعض الكواكب في ذلك الماضي السحيق غير مسلّم؛ لأنه كان من العسير على تلك الجرثومة أن تبقى حية في درجة حرارة الصفر المطلق في الفضاء، وإذا استطاعت البقاء رغم ذلك فإن الإشعاع الكثيف للموجة القصيرة كان كفيلاً بقتلها. هذا فضلاً عن أنه من المتفق عليه عموماً أنه لا البيئة وحدها ولا المادة مهما كانت موائمة للحياة ولا أي اتفاق في الظروف الكيميوية والطبيعية قد تلحقه المصادفة، يمكنها أن تأتي بالحياة إلى الوجود... ويسأل ويقول:

(فإن بإمكاننا أن نسأل كيف بدأت الحياة على أي كوكب من الكواكب، إذ أن مسألة أصل الحياة لغزٌ من الألغاز العلمية ولكن في الاستطاعة أن نشير إلى شيء حدث عند بدء الحياة على الأرض، ذلك أن خلية واحدة قد نمت عندها القدرة المدهشة على استخدام ضوء الشمس في حل مركب كيميوي واصطناع غذاء لها ولأخواتها من الخلايا، ولا بد أن لدات أخريات لخلية أصيلة أخرى قد عاشت على الغذاء الذي أنتجته الخلية، وأصبحت حيواناً، في حين صارت الخلية الأولى نباتاً، والنبات التي هي نسل هذه الخلية هي التي تغذى جميع الكائنات الحية الآن، فهل يمكن أن نعتقد أن كون خلية قد أصبحت حيواناً وأخرى قد أصبحت نباتاً إنما حدث بطريق المصادفة؟، غير أن التوازن العجيب بين الزرع وحياة الحيوان من تغذى النباتات على غاز ثاني أوكسيد الكربون، وتنفس الحيوانات على غاز الأوكسجين استقر بهذا التقسيم،. ويمضي الأستاذ مريسون في سوق الأدلة المبطلة لهذا الافتراض

---

(١) العالم الأمريكي الشهير والرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك صاحب كتاب (العلم يدعو للإيمان).

السالف حتى ينتهي إلى القول بأنه هو نفسه لا يعرف كيف جاءت الحياة إلى هذه الأرض ولكنه يؤمن بأنها جاءت تعبيراً عن القوة الإلهية، وبأنها ليست مادية[١].

ويقول الدكتور (توماس دافيز باركس)[٢] في مقال له تحت (الماء يروى لك قصة): (أنني أقرأ النظام والتصميم في كل ما يحيط بي من العالم غير العضوي، ولا أستطيع أن أسلم بأن يكون كل ذلك قد تم بمحض المصادفة العمياء التي جعلت ذرات هذا الكون تتألف بهذه الصورة العجيبة، وأن هذا التصميم يحتاج إلى مبدع ونحن نطلق على هذا المبدع اسم (الله)[٣].

وهكذا يتبين لنا بالأدلة العلمية والرياضية وبالتجارب أنه ليس للصدفة مكان أو وجود في تفسير الحياة أو الطبيعة أو الكون بجانب الطفرات العشوائية التي تعني خلو الحياة من القصد أو التدبير على حد زعم بعض الملحدين، وإنما هناك عقل وتدبير محكم في نظام الكون، وكذلك اتضح لنا أنه ليس للمذهب الآلي أو التولد الذاتي أو نزول الحياة على كوكب آخر أي أثر في الكون، وإنما كل شيء منظم بنظام محكم وبقدر معين مبعث للتفكير[٤].

---

(١) ينظر: العلم يدعو للإيمان ص٩٦ ـ ١٠٤.

(٢) أستاذ الكيمياء ورئيس قسم الكيمياء بمعهد بحوث ستانفورد سابقاً وأخصائي في النظريات الكهربية والأشعة السينية.

(٣) الله يتجلى في عصر العلم ص٤٥ ـ ٤٥.

(٤) الإنسان والداروينية ص١٦٤.

الفصل الثاني

نظرة الماديين إلى الكون

يبدو أن فكرة المادية لازمت الإنسان منذ القدم، ومن الصعب تحديد بداية وجود هذه الفكرة بزمان أو مكان معينين.

والقرآن الكريم يطلق القول في سر أقوال الماديين دون الإشارة إلى ذلك الزمان أو المكان فيقول تعالى في محكم كتابه الكريم: «وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر»[١].

فالماديون حددوا الموجودات بما يمكن مشاهدته والإحساس به، إلا أن المصادر المتوفرة لدينا تشير إلى أن فكرة المادية ظهرت على شكل أسمى علمية عند فلاسفة اليونان أمثال (طاليس)[٢]، و(أناكسيمان)[٣] وغيرهما من الفلاسفة فوضعوا أسساً عقلية لتفسير الكون، ليصلوا من خلالها إلى المادة الأساسية للوجود، ودرسوا العناصر المكونة والمشتركة بين أجزائه، فانتهت بهم الدراسة على اختيار عناصر أربعة (الماء ـ الهواء ـ النار ـ التراب) وجعلوها

---

(١) الجاثية: ٢٤.

(٢) مؤسس المدرسة الأيونية فينيقي الأصل المتوفى سنة (٥٥٠ق.م).

(٣) ولد في ملطية. ٥٨٨ ق.م وتوفي ٥٢٤ق.م تقريباً.

أصلاً للوجود كل حسب فكرته وطريقة بحثه، فحاول هؤلاء الفلاسفة منذ القدم أن يردوا الوجود إلى هذه العناصر المذكورة، غير أنهم وقفوا مكتوفي الأيدي حيال إثبات وإيضاح علاقة هذه العناصر بالفكر والإنسان، حتى جاء (هيرقليط)[١] فوضع المادة أساساً للصراع القائم بين هذه الأضداد ليأمن ضمان ديمومته وينسجم مع اتجاه عصره» ويقول: «إنك لا تمس جوهراً في حالة مرتين»[٢].

وأن المادة عنده في حركة دائمة، كما سار على هذا النهج فلاسفة كثيرون كديمقريطس إذ يقول بالذرة ويعتبرها عماد الوجود، فيها الحركة مستمرة يغذيها دفع وجذب دائمين وبسببها يكون التطور والخلق وباختلاف أشكالها تختلف طبائعها وتبدل لونها[٣].

وقد تلقى ماركس هذه الفكرة من هرقليط وسار بالمادية من المبدأ القائل: «إن العالم بطبيعته مادي وأن حوادث العالم المتعددة هي مظاهر مختلفة للمادة المتحركة وأن العلاقات المتبادلة بين الحوادث وتكييف بعضها بعضاً بصورة متبادلة كما تقررها الطريقة الديالكتيكية[٤] هي قوانين ضرورية لتطور المادة المتحركة، وأن العالم يتطور تبعاً لقوانين حركة المادة، وهو ليس بحاجة

---

(١) ولد في انس ٤٧٥ ـ ٣٥٥ق.م.

(٢) ماركس والخلق دراسة تحليلية للفكر الماركسي، تأليف طلال جرجيس دار الصراع الفكري في بيروت لبنان ١٩٥٧ ص٧٦.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) أن كلمة الديالكتيك، أخذت من الكلمة اليونانية (دياليغو) ومعناها المحادثة والمجادلة، وكان الديالكتيك يعني في عهد الأولين فن الوصول إلى الحقيقة باكتشاف التناقضات التي يتضمنها استدلال الخصم وبالتغلب عليها.

إلى عقل كلي»[١]. ويقول: انجلس[٢]: «أن الطبيعة بأجمعها من أضأل الأجزاء إلى أكبر الأجسام من حبة الرمل إلى الشمس ومن البروتست ـ وهي الخلية الحية الابتدائية ـ إلى الإنسان هي في حركة دائمة من النشوء والاضمحلال في مد لا ينقطع، وفي حركة وتغيير مستمرين أبديين»[٣]. فإنهما اكتفيا بهذه الظواهر الطبيعية، إلا أنهما نسيا أن محرك المادة هو الله تعالى.

ويقرر كارل ماركس أنه لم تكن أبداً حالة كانت فيها المادة بلا حركة، بل أن كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة ليست في واقعها العلمي إلا ثمرة الحركة، والحركة هي نمط وجود المادة، في أي زمان أو مكان»[٤].

وقد امتد جذور المادية من العصور القديمة حتى وصل إلى عصرنا الحاضر والتف حولها أناس كثيرون من المتعلمين وبدأوا يروجونها ويقدمون فكرتها في كل عصر بثوب جديد وبأسلوب يختلف عن أساليب السابقين، حتى أصبحت المادة أول الموجودات وأقدمها وكل الموجودات التي ظهرت فيما بعد نتيجة وثمرة للمادة، كالروح والفكر والإحساس ونحو ذلك.

---

(١) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ستالين ترجمة خالد بكداش الطبعة الثانية ١٩٥٩، منشورات دار البديع.

(٢) نقض الأوهام: ١٧.

(٣) المادية الديالكتيكية والمادية التأريخية ص١٤ نقلاً عن الديالكتيك الطبيعة ص٤٩١.

(٤) ينظر: نقض أوهام المادية الجدلية ص٣٩.

أزلية المادة

إن الماديين يعدون المادة قديمة أزلية[١] وهي منذ فجر وجودها الذي لا أول له تتحرك وتتطور، فالجديد من المادة إنما هو أشكالها وأطوارها وظواهرها، أما ذاتها فتغوص إلى أغوار سرمدية لا أول لها، وكذلك تكون أبدية الذات أيضاً. وستظل تستبدل ظاهرة بأخرى وطوراً بغيره، ولكن جوهر المادة باق يتحدى الزوال. وما الزمان والمكان إلا شكلان أساسيان لكل الوجود. وأنالأجرام السماوية ليست في حقيقتها إلا من جوهر هذه المادة التي نعرفها[٢]. ويرون أن العالم واحد هو هذا العالم المادي الخاضع لإحساس الإنسان وشعوره، فليس وراءه أو قبله أو بعده عالم آخر مما يسمى عالم الغيب، أو ما وراء المادة. ويعدون أن المادة هي الشيء الأولي، والإحساس والفكر والشعور هي الأشياء النابعة من المادة أي أنها أسبق من وجوده ووعيه وإدراكه، يقول لينين: (إن المادة تثير الإحساس بالدماغ والأعصاب والشبكية. . . ، إلخ ويعني بالمادة المنظمة تنظيماً معيناً ولا يرتبط وجود المادة بالإحساس، فالمادة هي الشيء الأولي والإحاس والفكر والشعور هي المنتجات الأرقى للمادة المنظمة بشكل معين»[٣].

ولهذا يرون أن المادة هي الخالقة لكل شيء، أزلية أبدية وإن فنيت منها مواد بأعيانها فهذه المواد الفانية باقية بأجناسها أو أصنافها، ولهذا يرون أن

---

(١) موقف الدين من العلم علي فؤاد باشكيل ترجمة أورخان محمد علي، الطبعة الثالثة مطبعة الخلود ١٩٨٨. ص٥٤.

(٢) ينظر: نقض أوهام ص٤٠.

(٣) المادية والمذهب التجريبي النقدي لينين ترجمة فؤاد أيوب ص٤٣.

المادة موجودة أزلاً وأبداً[١].

غير أن الماديين أنفسهم يعترفون في العصر الحاضر بأن المادة حادثة كما أثبتته العلوم، غير أنهم يقولون أنها حدثت صدفة، وليس لها دون الصدفة خالق، بل هي تتجدد وتبقى إلى الأبد كما أسلفنا، ولكن نسأله عن الصدفة هل هي المخالفة؟ فإن أجاب بالإيجاب فعليه تعيين ذات الصدفة وصفاتها بعد أن جعلها هي الخالقة وإن أجاب بالنفي لم يبق مغزى لأصل كلامه (وجدت بالصدفة). وإن قصد بأن المادة وجدت بذاتها صدفة وجوداً ذاتياً فقد ناقض اعتراف نفسه بحدوث المادة بادئاً، فإن الحدوث والوجود الذاتي متضادان[٢].



(١) ينظر مجمع الأشتات ص١٠٧.

(٢) المصدر نفسه ص١١١.

وجهة المادية الديالكتيكية

المادية الديالكتيكية تقول:

أ ـ أن المادة هي أساس الوجود وينبوع الحقائق. ويزعم ماركس أن كل ما في الكون مادة متطورة، وليس لله وللعقل والروح وجود مستقل في هذا العالم[1].

ذلك هو حجر الزاوية في الفلسفة المادية ويعتبرونها أول الموجودات وأقدمها.

ب ـ ملازمة المادة للحركة، أي أن كل الأشياء التي تبدو أمام أبصارنا ساكنة خامدة لها في أعماقها حركة لا تهدأ، وليست ظاهرات المادة إلا أثراً متطوراً من آثار حركتها.

جـ ـ سرمدية العالم ووحدته. ويعتبرون أن المكان لا نهاية له، وكذلك الزمان لا بداية ولا نهاية له أيضاً، وحكموا على العالم المادي المنبسط في جميع الجهات بلا نهاية وممتداً خلال سائر الأزمان بلا أول ولا آخر.

د ـ الوعي والفكر وظيفة لمادة عالية التنظيم هي الدماغ، وعدوا أن

---

(١) الشيوعية تناقض الدين، تأليف محمد الموسوي النوري الطبعة الأولى مطبعة النعمان نجف ١٣٧٩هـ ص٦١.

الوعي هو الأفكار والإحساسات والتصورات والإرادة، وهي جميعها من أعراض الإنسان، فإذا لم يوجد الإنسان فلا وعي. وهذا يعني أنه لا يوجد وعي بدون مادة.

هـ ـ تفاعل السبب والمسبب، أي بينهما تفاعل مستمر[١] ويتم هذا التفاعل تحت سلطان قوانين الطبيعة ومقتضياتهما الكامنة فيها.

ونناقش فيما يأتي من الكلام هذه الأقوال ونقول:

إن اعتبار المادة أساس الأشياء وأنها موجودة منذ الأزل أمر باطل، لأننا ندرك بإحساسنا أن الأشياء المدركة محتاجة إلى غيرها، وأنها لا تستطيع التصرف والانتقال من حال إلى أخرى إلا بغيرها، فالنار تحرق إذا كانت المادة فيها قابلية الاحتراق، وإذا لم تكن فيها قابلية الاحتراق لا تحرقها، فالمادة لا تستطيع أن تتصرف أو تتنقل من حالة إلى أخرى إلا ضمن وضع قاصر على حالات معينة، فهي إذن محتاجة. وكذلك الأشياء التي في الكون لا يحصل من اجتماعها شيء يحصل فيه الاستغناء، ولا يوجد شيء يتكون من مجموع ما في الكون حتى يوصف بأنه مستغن أو محتاج، ولو وصف بذلك لكان ذلك وصفاً لشيء متخيل الوجود لا لشيء موجود، والبرهان يقوم على حاجة شيء معين موجود لا مجموعة أشياء يتخيل لها الاجتماع[٢].

وكذلك أجزاء الكون لم تكن موجودة من قبل فوجد، فهذا الإيجاد ينفي استغناء الكون عن الخالق والتناسق والخضوع برهان طاعته له.

---

(١) ينظر نقض أوهام ص٣٨ ـ ٤٢.

(٢) ينظر نقض الاشتراكية تأليف غانم عبده طبع سنة ١٩٦٣ ص١٠ ـ ١١.

أما بالنسبة للكون والإنسان والحياة في المادية الديالكتيكية التي تنص على تطورها مادياً دون وجود خالق ولا مخلوق فنجد أن الكون عبارة عن مجموعة أجرام وكل جرم منها يسير بنظام مخصوص لا يملك أن يغير مساره المرسوم له، وهذا النظام إما أن يكون جزءاً منه، أو خاصة من خواصه، أو شيئاً آخر غيره.

أما كونه جزءاً منه فباطل، لأن سير الكواكب يكون في مدار معين لا يتعداه، كالطريق هو غير السائر، والنظام الذي يسير به ليس مجرد سيره فقط بل تقييده بالسير في هذا المدار، ولذلك لا يمكن أن يكون النظام جزءاً منه.

أما كونه خاصية من خواصه فباطل، لأن النظام ليس هو سير الكوكب فحسب بل سيره في وضع معين، وإلا لكان من خواصه أن ينظم سير نفسه، وحينئذ يستطيع أن ينظم نظاماً آخر ما دام من خواصه التنظيم، ولا يقال أن كون الكوكب مسير في مدار معين هو خاصية ناتجة عن اجتماع الكواكب مع بعضها في جسم واحد هو جزء لا يتجزأ من هذا الجسم فينتج عن اجتماعها خاصية كون السير في مدار معين، كالأيدروجين وحده له خاصية والأوكسجين وحده له خاصية فإذا اجتمعا معاً صارت لهما خاصية أخرى بخلاف الكواكب، لأن الأوكسجين والأيدروجين حين اجتمعا كوناً جسماً آخر فصارت له خاصية أخرى، فهي خاصية جسم لا خاصية جسميهما السابقين في الكون. أما الكواكب أوالكوكبين لم تكن لكل منهما خاصية تختلف عن الأخرى، ثم صارت له خاصية أخرى بالاجتماع في جسم واحد، بل ظلت منفردة بهذه الخاصية[1].

---

(١) نقض الاشتراكية ص١٣ ـ ١٤.

أما الحياة فإن احتياجها إلى الماء والهواء ومحدوديتها ملموسة ومحسوسة وأن مظهرها فردي، فلا فرق بين الحياة في الإنسان والحيوان وهي تنتهي فيه، فما دامت تنتهي هذه الحياة في الفرد فمعناه أن جنس الحياة تنتهي.

وكذلك الإنسان محتاج إلى الطعام والمكان وغير ذلك فهو محدود أيضاً، وعليه فإن الكون والحياة والإنسان كلها محتاجة قطعاً، ومدلول كلمة (محتاج) يعني أنه مخلوق وعاجز عن إيجاد شيء ما من العدم[١] مما يفند مزاعم الماديين الذين يذهبون إلى عدم مخلوقية المادة، كما يقول بعض كتاب السوفيت في كتاب المادية الديالكتيكية: (وكل تطور علم الطبيعة يبرهن على أن الطبيعة ليست مخلوقة ويدل على أزلية المادة وحركتها)[٢]. وكما ذهب الكاتبان السوفيتيان (سيبركين وياخوت)[٣] إلى القول بأن المادة وجدت دائماً ومنذ الأزل، ثم يستشهدان بقول العالم الروسي م.ف توموتوسوف على ذلك إذ يقول: (في الطبيعة لا ينشأ شيء من لا شيء ولا يختفي أبداً بلا أثر، ولكن إذا كان الأمر كذلك فإن المادة وجدت دائماً، لأننا إذا سلمنا بأنه في وقت من الأوقات لم يكن هناك شيء من العالم فمن أين لها أن تنشأ، ولكن أينما توجد المادة فهذا يعني أنها لم تنشأ في أي وقت من الأوقات بل وجدت دائماً وستوجد دائماً»[٤].

فلو تأملنا في النصين والنصوص الأخرى المشابهة لهما لوجدنا أنهما لا يستندان إلى دليل أو برهان، ويتشكك الكاتب في أزلية المادة كما يسأل نفسه:

---

(١) نقض الاشتراكية ص١٥.

(٢) المادية الديالكتيكية ص٨.

(٣) كاتبان من الماديين السوفييت.

(٤) أسس المادية ص٣٠.

إذا لم أقل بأزلية المادة، فعلي أن أتحرى لأعرف كيف ومن أين نشأت؟

ويلجأ هذا الافتراض في:

إن المادة الأولى غير معلولة الوجود من أجل أن يحسم النقاش دون اللجوء إلى عالم الغيبيات، ولكنهم نسوا أن الكلام على أنه في مبدأ الكون (كانت المادة، ولا شيء غير المادة، وأن المادة سابقة في الظهور إطلاقاً) هو اللجوء إلى عالم الغيبيات التي نشأ فيها الكون دون أن يعرف كيفية إيجاده، ويقول الدكتور فرانك إلى أستاذ الطبيعة الجوية بكندا بهذا الصدد:

«إن الذي يذهب إلى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية إنما يشترك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون، وذلك في عنصر واحد هو الأزلية، وإذاً فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت وإما أن ننسبها إلى إله حي يخلق»[١].

وقد عضد (دالتون لاوازية) العالم الكيميائي المعروف فكرة أولية المادة وأبديته[٢] بأن المادة لا تفنى ولا تستحدث من العدم، فترة من الزمن، ثم اعترف بوجود الخالق وقال: «إن المادة لا تخلق من تلقاء نفسها»[٣]، وكما نقل السيد رمضان هدارة فكرة (عدم فناء الطاقة)، من أنه لا يمكن خلق الطاقة من العدم، وأصبح هذا المبدأ من أهم المبادىء التي يسير عليها الكون، وذكر أن الفيزيائيين يرفضون الآن أي تفسير لظاهرة من الظواهر يبدو مخالفاً لهذا

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص٨.

(٢) الكون الغامض سير جيمس جينز ترجمة عبد الحميد حمدي مرسي ط٢ القاهرة ص٥٦.

(٣) التكامل في الإسلام أحمد أمين الطبعة الثالثة دار النعمان للطبع والنشر ١٣٨٣هـ ٢/ ٦٢.

المبدأ[١] .

غير أن فكرة أزلية المادة وأبديتها قد فندت بعد اكتشاف الألكترونات وحقائق الذرة وأضداد المادة[٢]، لأن المادة لا تقتصر على الأشكال والأنواع التي نراها حوالينا، بل يوجد شكل آخر له خواص معاكسة تماماً لخواص أشكال المادة التي نعرفها، وتسمى (المادة المضادة أو المادة النقيضة) ومع أن الجسيمات النقيضة لها خصائص مناقضة للجسيمات الاعتيادية لا يمكن تميز إحداها عن الأخرى ذلك لأن الجسيم الاعتيادي والجسيم النقيض لهما نفس الكتلة، ويقومان بنفس الوظائف كلاً في عالمه الخاص[٣] .

فالخواص المتضادة تتجلى في الشحنة الكهربائية وأحياناً في اتجاه الدوران، فمثلاً إن نقيض جسيم يحمل شحنة موجبة، هو جسيم يحمل شحنة سالبة، أي لا يوجد فرق في الكتلة بين الجسيم وبين نقيضه، (فالبروتون النقيض) تساوي كتلته تماماً كتلة (البروتون) ولكنه يحمل شحنة كهربائية سالبة مثل الإلكترون، وكذلك نقيض الإلكترون ويدعى (البوزترون) فإنه يملك نفس كتلة الإلكترون ولكنه يحمل شحنة موجبة[٤] .

وإذا قمنا بجمع البوزترون والإلكترون معاً في مكان واحد نرى أنهما يدوران أحدهما حول الآخر مشكلين ذرة (البوزترونيوم) لمدة قصيرة جداً تقدر

---

(١) الكون ذرة وحركة سيد رمضان هدارة ص٢١، وينظر الكون الغامض ص٥٤.

(٢) التكامل في الإسلام ص٦٢.

(٣) أسرار الذرة أميد شمشن ترجمة أورخان محمد علي الطبعة الأولى مطبعة الحوادث بغداد ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م ص٤١.

(٤) أسرار الذرة ص٤٢.

بجزء من عشرة ملايين جزء من الثانية، يخرجان بعد ذلك من عالم المادة، أي عندما يتقابل الإلكترون (-E) مع البوزترون (+E) يفنى الإثنان[١]، وهذه القاعدة شاملة وسارية بالنسبة لكافة المواد مع نقائضها، ويدل ذلك بوضوح على فناء المادة ونهاية أجزاء الكون عندما يريد الخالق نهايته، وما دام المادة تؤول إلى الفناء فهي إذن مخلوقة من العدم، فكأن الطبيعة حاملة بذرة إفنائها معها منذ أن خلق من العدم، وفي تغير مستمر، ويجمل أن نذكر هنا قانون النسبية وهو:

الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء

الناتج: هو أن المادة والطاقة هما متغيرتان ليستا بازليتين البتة بل هما حادثتان وقابلتان لطريان التغير[٢].

وأثبتت البحوث النظرية أن كتلة كل جسم متحرك تتغير تبعاً لسرعة حركته، لأن كتلة الجسم المتحرك يمكن أن تكون مكونة من قسمين:

١ ـ ثابت يحتفظ به الجسم في حالة سكونه.

٢ ـ متغير وهو يتبع سرعة حركة الجسم، وهذا يتناسب مع طاقة حركته، فكتلتا كهربين أو جسمين آخرين تختلفان بمقدار ما يكون بين طاقتيهما من فروق[٣].

---

(١) المصدر نفسه ص٤٣. وينظر مجمع الأشتات، ص٧٠.

(٢) مجمع الأشتات ص٧١.

(٣) وينظر الكون الغامض سير جيمس جيننز، ترجمة عبد الحميد حمدي مرسي الطبعة الثانية مطبعة الأميرية ببولاق القاهرة ١٩٤٣ ص٦١.

ويبدو من هذا أن المادة المتغيرة حادثة من العدم المسبوق بعلم الله الذي ألبسها ثوب الوجود، وتعود إلى العدم ثانية وخلق الكون بقصد وإرادة، والحياة تابع له.

يعد الماديون أن الروح والفكر والإحساس ثمرة من ثمار المادة، داخلة في ماهيتها كما أسلفنا في موضوع المستلزمات.

غير أن هذا القول لا يستند إلى برهان علمي، إلا أنهم يقولون أن الحياة عن الحرارة، والحرارة تنشأ عن الحركة[١] أي:

الحركة + حرارة = حياة

من الذي جمع بين هاتين الظاهرتين فاستخرج منهما حقيقة الحياة؟ ولا بد أن نذكر خبر المؤتمر الذي تم عقده بين ستة من أجلة علماء الحياة في نيويورك عام ١٩٥٩، آملاً في الوصول إلى فهم شيء عن أصل الحياة ونشأتها على ظهر الأرض أو إلى معرفة مدى إمكان إيجاد الحياة عن طريق التفاعل الكيميائي وكان من بين المؤتمرين العالم الروسي (الكسندر ايفانوفيتش اوبارين) أستاذ الكيمياء الحيوية في أكاديمية العلوم السوفيتية، حيث قرروا في نهاية بحوثهم بالإجماع (أن أمر الحياة لا يزال مجهولاً، ولا مطمع في أن يصل إليه العلم يوماً ما، وإن هذا السر أبعد من أن يكون مجرد بناء مواد عضوية معينة وظواهر طبيعية كيميائية خاصة)[٢].

فأين النشاط العلمي والدليل التطبيقي على صدق هذا التصور الذي

---

(١) المادية والمذهب التجريبي النقدي ص٢٤.

(٢) كبرى اليقينيات الكونية محمد سعيد رمضان البوطي ص١٠٤ دار الفكر ١٣٩٥ ط٥.

يقضي بكل بساطة أن الحركة + الحرارة = الحياة؟.

ولا نشك في أن الحرارة والحركة من أبرز خصائص المادة ولكن خواص شيء ما ليست تعبيراً عن الجوهر الذاتي الذي يقوم به، ومن الواضح أن الحياة لا تنشأ إلا حيث يتوافر كل من الحركة والحرارة، وهما من خصائصها الدالة عليها، ولكن جوهر الحياة ذاتها شيء آخر نبهت إلى وجودها كل من هاتين الخصيصتين، فالحرارة والحركة والعناصر الأخرى الأساسية للحياة كالإيدروجين والكربون والأوكسجين والآزوت والفسفور والكهريت ـ هذه كلها لا يمكن أن نقول إنها منشىء الحياة، بل الحياة تتخذ من هذه العناصر مظهراً لها كالضياء الساطع على صفحة جدار، فلا يمكن أن يكون الضياء هو صفحة الجدار ذاتها ولكنها مظهر له أو شرط لتجليه(١) ولو أن المادة هي ينبوع الروح لقضى العقل بحكم البديهة أن يكون الإنسان أسبق إلى فهم الروح وأسرارها منه إلى فهم المادة وذراتها وكهاربها، لأن العقل إذا أدرك أصل الشيء وحقيقته فهو أحرى أن يدرك ثمراته وفروعه بأقل جهد، ولكن أحداً من العقلاء لا يستطيع أن يتصور أن رجلاً أتيح له أن يفهم أصل الحياة، فلم يفهم منه ظاهراً ولا باطناً، وبقي سراً غامضاً لم يهتد منه إلى شيء..

ويقرر الماديون أن الحركة هي وسيلة وجود المادة ولم توجد مادة بلا حركة، وأن كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة ليست في واقعها العلمي إلا ثمرة الحركة، فالتيار الكهربائي ليس إلا أثراً لحركة الإلكترونات(٢).

أن الحركة إن كانت وسيلة وجود المادة فمعناه أن الحركة أسبق من

---

(١) ينظر نقض أوهام ص٩٩.

(٢) ينظر نقض أوهام ص٣٩ نقلاً عن المادية والمذهب التجريبي للبنين ص١٧٠.

المادة في الزمان، لأن ما كان وسيلة لوجود شيء متقدم على ذلك الشيء زمنياً في الوجود، وبذلك تصبح الحركة هي الموجود الأول ـ حسب فكرتهم ـ والمادة متأخرة في الوجود والظهور[١]، فيكون ذلك تناقضاً مع فكرتهم بأزلية المادة.

ومن الملاحظ أن الماديين يهتمون باكتشافهم للحركة على أساس أنها اللبنة الأولى في صرح الصورة التي تبنتها الفلسفة المادية للكون والعالم، ويعتبرونها المنطلق الذي يسير منهجهم الفكري على ضوئه نحو غايته الموسومة.

ولكن المتأمل في المادة يجد أنه ليس كل شيء في المادة يتحرك ثم يتغير، هذا إلى جانب دليل آخر وهو انفصال جواهر الأشياء وماهياتها عن بعضها البعض، فبين الحجر والشجر والإنسان والحديد تغاير باق مستمر على مر الأزمنة والدهور وهذا التغاير ليس إلا أثراً لما هو ساكن في بنية هذه الأشياء وذراتها، وهو الذي أكسب كل شيء جوهره الخاص به، فكان ثابت هذا الجوهر غير منفك لسكون ما هو ثابت لا يتغير في بنية تلك الأشياء[٢].

ولو افترضنا أن كل شيء في المادة يتغير لاضطررنا إلى القول بأن الماهيات الكثيرة المختلفة في هذا الكون يجب أن تتماذج وتتحد بحيث تنعدم الحدود الفاصلة بينها، فلا يستبين حجر من شجر أو حديد من عظام ولحم وهكذا، وإلا فكيف يجيبنا دعاة كل شيء يتغير ويتحرك عن: ما الذي يمسك ماهيات الأشياء أن يبقى كل منها ضمن غلافه الخاص به دون تغير أو تبديل؟.

---

(١) المادة بين الأزلية والحدوث ص٣٦.

(٢) نقض أوهام ص١١٠.

وما الذي جعل هذه الأغلفة تتمازج ولا تتبدل[١]؟

وإذن فإن المادة واقع موضوعي موجود بصورة مستقلة عن ذهن الإنسان، وأنها موجودة في مظهر الأرض والنجوم والكواكب وكثير من المظاهر الأخرى المشاهدة من قبل الإنسان، وأنها تحتوي على الجوهر أو الماهية، من شأنه أن يمسك خواص المادة وظواهرها ضمن حواجز من الأجناس والأنواع، وهذه الحواجز لا تمتد إليها أيدي الجدلية المادية، وستظل قائمة شاخصة تستعصي على أي نقص أو إنكار، وستكون مع الرأي القائل: (بأن في كل شيء من أشياء المادة حركة تبعث على تغيير ظاهراته ولا نقبل قول من يقول بأن المادة كلها في حركة دائبة وتغير مستمر[٢].

واعترف بهذه الحقيقة أحد كتاب بحث (المادية الديالكتيكية ويقول: (لا يمكن للمادة أن توجد إلا في الحركة، ولكن هذا لا ينفي إمكان حدوث فترات من السكون والتوازن أثناء السير العام المتواصل باستمرار للتبدلات المادية[٣]) ويقول آخر: (لا بد من ملاحظة أن الحركة من حيث جوهرها عبارة عن تبدل ولكنه يحتوي في ذاته على لحظات استقرار وثبات)[٤] وغير ذلك من الاعتراف بالسكون.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) نقض أوهام ص١١٥.

(٣) المادية الديالكتيكية: جماعة من كتاب السوفييت ص٩٣.

(٤) المصدر نفسه: ص١٠٣.

تفاعل السبب والنتيجة

تقرر المادية الماركسية القول بأنه: لا تنبثق حركة الأسباب والمسببات ولا يتم تفاعل ما بينهما إلا تحت سلطان قوانين الطبيعة ومقتضياتها الكامنة فيها، ومن شأن خضوعها لهذه القوانين أن تكون الوقائع كلها ضرورية، وأن لا يبقى معها أي معنى للمصادفة إذا أريد بها عدم الضرورة.

وكذلك القول بأنه لا وجود لما يسمى بظاهرة (العلة الغائية) في تفاعل الأسباب والمسببات ولا مسوغ لتخيلها بالنسبة لعالم الطبيعة المادية بكل ما فيها من قابليات وإمكانات[١].

إن القول الأول يعني حتمية العلاقة بين السبب والمسبب فحيثما وجد السبب وجدت النتيجة، وأن ما يتوهم أنه جاء مصادفة لم يكن في واقع الأمر إلا مسبب عن سبب سواءاً كان داخلياً أي التي توجد في داخل الأشياء المتطورة ويرصده الفكر ويتحقق من ضرورة آثارها أم خارجياً أي العوامل الخارجية التي يعز من الفكر ظهورها اختفاءها، مع اليقين بأنها ضرورة لا بد منها لحصول نتائجها، وتقبل الماركسية ما يقع تحت تأثير الأسباب الخارجية مصادفة، كهلاك بستان بسبب إعصار علماً بأن بين الضرورة والمصادفة قدراً مشتركاً يتمثل في أنه لا يوجد شيء ما بدون سبب، ولا يأتي سبب ما إلا ويستنتج نتيجة، غير أننا إذا لم نؤمن بالمسبب الأول الذي تتبع القدرة والفاعلية من ذاته سنقف أمام سلسلة من العلاقات المتلاحقة أو المتصادمة (على حد تصور الميكانيكيين والديالكتيكيين) يستحيل أن تعتمد على منطق سليم، ثم تطلق على هذه العلاقات بين الأشياء التي لا يوجد فيها سلطان ذاتي صفة

---

(١) ينظر: نقض أوهام ص١٥٥، و(الدفاتر الفلسفية: ١/ ٥٩).

الحتمية والضرورة، فمن أين يأتي قرار الحتمية والضرورة إذا كنت لا تريد أن تشاهد إلا سلسلة من الظواهر المتدافعة، من غير أن تنتبه إلى من سلط هذه الظواهر ـ بقوة ذاتية من عنده ـ على بعضها، وإذا عبرت عن هذه الحتمية بكلمة (قانون) أو بالغاية والقصد فأنت مضطرب متهافت بعيد عن منهج العلم والمنطق[١].

فالسبب الأول لوجود الكون هو الإله الخالق القادر الذي يؤثر في كل شيء، فالموجودات كلها من ثمرة قدرته وإرادته تسير وفق نواميس وقوانين أحكم عليها الحاكم دون أن تحيد عنه منذ خلقها الله أو يصطدم بعضها ببعض.

أما رفضهم للعلة الغائبة[٢]، فهم يرون أنه لا مكان لوجود رابطة الغاية بين شيء من موجودات المادة وظاهراتها.

إن المتأمل في أرجاء الكون الفسيح العجيب يدرك في كل جزء من أجزائه آيات القصد والتنظيم أكثر من أي علم آخر، فابدأ بأصغر أجزاء الكون ابتداء من جزيئات الذرة أوالخلية وانتهاء من أضخم جرم من الأجرام الكونية، فتجد ظاهرة التناسق الذي لا ينبثق إلا عن إرادة وحكمة، وعلى سبيل المثال:

١ ـ خلايا أجسامنا دائمة الانقسام للعمل على نمو الجسم أو لتعويض ما يفقد بين هذه الخلايا، إلا أن الخلايا العصبية لا تنقسم؛ لأنها لو انقسمت لحدثت كارثة مروعة حيث تتلاشى جميع معالم الذاكرة في الخلايا العصبية للمخ[٣].

---

(١) نقض أوهام ص١٦٧ ـ ١٦٨.

(٢) هي القصد الذي يظهر أول الأمر في أعماق الإرادة، بحيث يكون ظهور ذلك القصد ثمرة ونتيجة لها.

(٣) الكون والإعجاز العلمي للقرآن ص٣٤.

٢ ـ أجهزة جسم الإنسان ابتداء من بويضة الجنين وتلاقحها ثم انصرافها إلى مأمنها في الرحم والانتقال في مراحل خلقها وانتشار الحياة فيها وتأمين الغذاء لها، وتكون الجو الدقيق الذي ينسق مع طبيعة حياته من ظلمات الرحم والمشيمة حتى تحين ساعة الملائمة لانتقال الجنين من دنيا الرحم إلى دنيا العمل فلا يكاد ينتقل حتى تتحول كل ذرة فيه إلى الاستعداد التام للاتساق مع الجو الجديد وما فيه من ضياء وهواء وغذاء وحركة، وتهيئة الثديين في الوقت المناسب لاستقباله بالغذاء الذي يتصف بأدق معاني الملائمة لحال الوليد الجديد وطبيعته. .، وتفاصيل أخرى عن الفم وتناسق الأسنان والأضراس، والغدد اللعابية التي تمد الأسنان بطاقة النطق إذا تكلم والمضغ إذا أكل. .[١] ثم المعدة تقوم تلقائياً بتحليل ما نتناول من أطعمة على اختلاف أنواعها وتصنيفها وتصدرها باستمرار إلى كل خلية من بلايين الخلايا حسب احتياج هذه الخلايا وتخصصاتها لتكوين العظام أو الأظافر أو اللحم أو العينين. . . الخ، وكذلك تكافح الجراثيم المعادية عليها. .)[٢].

٣ ـ كذلك التوازن الموجود بين الأرض ومن عليها وما حولها، وقوة الجاذبية بين الأرض والقمر والكواكب الأخرى، وكذلك الحركات الفلكية المعقدة المتآلفة، مما هيأت الأرض للحياة، والتناسق بين حجم الأرض وكمية الهواء عليها ومنعها من الاضطراب كل ذلك ثمرة خالق مدبر نسق بين هذا وذاك، وهذه الحقيقة ينكرها الماديون ويبذلون على إنكارها جهداً شاقاً من الاضطراب والمكابرة[٣].

---

(١) ينظر نقض أوهام ص١٧١ ـ ١٧٢.

(٢) ينظر الكون والإعجاز العلمي للقرآن ص٣٥.

(٣) نقض أوهام ص١٧٣ ـ ١٧٤.

ولا يتسع المجال لذكر ملايين التنظيمات والتوافقات الرائعة في جسم الإنسان والتي تعجز عن الإلمام بها عقول العلماء، وكذلك التنظيمات الموجودة في كل كائن حي من الحيوانات والنباتات، وفي خلق الكون، مما يدل هذا التصميم على القصد والتدبير لمدبر هذا الكون الذي ألف بين تلك الأشتات وجرى فيه حكمه وقانونه بتنظيم يعجز المادي عن تصور كنهه والإحاطة بماهيته، ويفشل أمامه نظرياتهم القائلة بالصدفة والتولد الذاتي والانتخاب الطبيعي ولا بد أن توجد الكون كله بما فيه الأسباب والمسببات من وجود مسبب تنبع القدرة من ذاته.

وليست تفيض عليه من غيره، ولا ضرورة للوجود خارج نطاق ما يقضي به مسبب الأسباب، ولا مصادفة بعد ثبوت قانون الحكمة وظاهرة العلة الغائية في الأشياء.

وهكذا انهار الرأي المادي وخاصة بعدما بدد إشعاع الراديوم واليورانيوم وغيرهما أوهام العلماء[١] في بقاء المادة وثبات كتلتها، وسيعلمون فيما بعد أن كل ما في الوجود من قوة وإبداع وتنظيم وتنسيق إن هو إلا مجرد آثار لفاعلية الخالق الأعظم الذي خلق الأسباب والمسببات بما يجعل وحدات الوجود كلها كائنات احتمالية لا تملك من ذواتها لذواتها تصريفاً أو تقنيناً أو توقيتاً[٢].

ونختتم القول بحديث الدكتور (ايرفنج وليام) أستاذ العلوم الطبيعية في جامعة (ميشيجان) حيث يقول: (فعلم الفلك مثلاً يشير إلى أن لهذا الكون بداية قديمة، وأن الكون يسير إلى نهاية محتومة، وليس مما يتفق مع العلم أن نعتقد

---

(١) الماديين القائلين بالمصادفة.

(٢) كتاب الوجود ص٢٣٧ ـ ٢٣٨.

بأن هذا الكون أزلي ليس له بداية أو أبدي ليس له نهاية، فهو قائم على أساس التغيير. . والعلوم بطبيعتها المادية أعجز من أن تبحث عن الله بطرقها المادية، أو أن تدرك ذاته تعالى. . وأن عجائب الكون دعت كثيراً من علماء الفلك الأمناء إلى الاعتقاد بأنه لا بد أن يكون لهذا الكون ونظامه مدبراً لا نراه)[١] وقد قال تشاد والسن أحد علماء الطبيعة: (إن ما يطلب من أي إنسان مؤمناً كان أم ملحداً، أن يبين لنا كيف تستطيع المصادفة أن تخلق هذا الكون)[٢].

شهادة العلماء بزيف النظرية المادية

لقد أعلن كوكبة من العلماء بطلان النظرية المادية نذكر من بينهم:

أ ـ فولتير[٣] ويقول: ما المتناقضات في الإنسان إلا العناصر الضرورية المركبة له من خير وشر ولذة وألم وعقل، ويقول: إذا وجد شيء منذ الأزل وأنا موجود ولستَ موجود بذاتي فهناك موجود بالذات هو الله.

ب ـ كانط[٤] يقول: (إنه ليس في الطبيعة صدفة أو علة عمياء، وأن كل شيء فيها يتوقف على شروط ويقع بموجب ضرورة معقولة. .) ويقول: الدليل الطبيعي الإلهي يستنتج وجود الله من نظام العالم، بحجة أن النظام لا يمكن أن يكون وليد الاتفاق أو العلية المادية.

جـ ـ أتماسير[٥] ويقول: (إن كل نوع من الأنواع خلق بواسطة فعل

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص٥٥.

(٢) المصدر نفسه ص٥٥.

(٣) ١٦٩٤ ـ ١٧٧٨، وهو الكاتب الفرنسي.

(٤) ١٧٢٤ ـ ١٨٠٤، عالم ألماني وفيلسوف.

(٥) عالم سويسري ومن أشهر علماء الطبيعة في أوربا.



خاص من أفعال القوة الخالقة...).

د ـ بطلر: عالم إيطالي يقول: (إننا نؤمن دائماً بأن كل شيء راجع إلى فعل الطبيعة محتاج إلى ذات مدبرة مدركة تؤثر فيه تأثيراً متداركاً[١].

هـ ـ الفرد روسيل وولاس: عالم طبيعي إنكليزي ويعد من عباقرة العلوم الطبيعية، ومن الباحثين في علم الأحياء ويقول:

(إن الماديين والطبيعيين يتجاهلون القوة المدبرة التي بفضلها تستطيع الخلية الحية من الدوران بسلسلة من التحولات التي لا تستطيع إيضاحها بأية طريقة كيمياوية أو آية).

و ـ باستور عالم فرنسي وهو مكتشف الجراثيم المرضية وقد وضع القاعدة الآتية: (إن الحي لا يتولد إلا من حي مثله وقد أثبت ذلك بالبراهين والأدلة والتجارب العلمية)[٢].

وكذلك علماء آخرون كثيرون من مختلف الاختصاصات يبطلون زيف النظرية المادية ودعواهم المضللة حول الكون وقوانينه ويؤمنون بوجود إله خالق قدير أوجد هذا الكون من العدم ويسير به إلى نهاية محتومة فيما بعد.

---

(١) الإنسان والداروينية ص١٨٥ ـ ١٨٧.

(٢) الإنسان والداروينية ص١٨٧ ـ ١٨٨.

الفصل الثالث

نظرة المثاليين إلى الكون

يبدو للباحثين أن معرفة العنصر الأول للكون من الأمور المستشكلة على الماديين والمثاليين مما اكتسب أهمية في المتمع الأوروبي منذ زمن طويل، والخلاف نتج نتيجة البحث عن علاقة الفكر بالكينونة والروح بالجسد حيث ظهرت التفرقة بينهما نتيجة تجربة الموت، مما يحتفظ الجسد بشكله الخارجي ولكن يصبح بلا حركة كمادة جامدة يفقد فكره.

ويعود تاريخ التمييز بينالمادة والروح إلى (أناكساغوراس)[1] وهو أول من تحدث عن هذه التفرقة بوضوح وقال: (إن هناك فرقاً جوهرياً بين المادة والقوة التي تنظمها، وأن الروح هي النفس.. الروح.. العقل، وليست النفس مبدأ النظام الذي نشاهده فحسب، بل هي مبدأ كل معرفة كذلك، والمادة لكونها غير متحركة بذاتها وحركتها تأتي من الروح فهي لا وجود، أما الروح فهي الوجود والروح هي الصورة وهي لا جسمانية)[2]، وقد انقسم الماديون

---

(١) أناكساغوراس (٤٨٨ ـ ٤٢٨) ق.م وذكر متى كريم أنه ولد سنة ٥٠٠ق.م: الفلسفة اليونانية.

(٢) القانون الحيوي للكون تأليف رائق علي النقري، سلسلة مسائل تطبيقية للإيديولوجية الحيوية. طبع سنة ١٩٧٥ دار الأنوار للطباعة ص١٥.

والمثاليون إلى مدرستين كبيرتين لدراسة مبدأ الوجود والمحرك الأول للكون.

فالماديون اعتبروا الطبيعة والمادة بمثابة العنصر الأول للكون ويقررون تقدم الطبيعة على العقل وينتمون إلى مختلف مدارس المادية.. وأن العالم المادي الذي تدركه حواسنا هو الواقع الوحيد، وأن المادة ليست من نتاج العقل، بل إن العقل نفسه نتاج المادة الأعلى[١].

أما المثاليون فيؤكدون تقدم العقل على الطبيعة ويجعلون ما هو روحاني هو أساس الكون، وهو مصدر الإشكال للمادية الجسمانية كافة.

ود تفرعت هذه المدرسة إلى ثلاثة فروع:

أ ـ التصوريون.

ب ـ المثاليون.

جـ ـ الروحيون.

فالتصوريون يعتقدون بأن المثل مجرد صور ذهنية لا حقيقة لها خارج الذهن[٢]. ولا يؤمنون بوجود روحية وراء الطبيعة كما يعتقده أصحاب المثل الأفلاطونية، وهم بذلك ما زادوا عن آراء الواقعين القائلين بأن واقعية الأشياء نفسها هي الحقيقة الموجودة وأن لا مثل وراء الطبيعة ولا في الذهن وإنما هي أحاسيس الأشياء فقط.

أما المثاليون، فهم العقليون القدماء في صورة أخرى، فيقولون: ليس

---

(١) ينظر: المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية تأليف ستالين ترجمة خالد بكداش طبع دار البديع مطبعة العاني بغداد ص١٨. وينظر الشيوعية تناقض الدين ص٦٢.

(٢) كتاب الوجود ص٨٦.

في الوجود إلا الفكر، وهو علة الوجود، وأن الأشياء في كتلتها وواقعيتها وصورها وسائر كيفياتها هي مجرد صور للفكر، فإذا وجدتا وجدت الأشياء، وإذا عدمتا عدمت الأشياء باعتبار الإنسان محطة الفكر، كما يقولون أن ليس في الأشياء إلا تصورات الذهن[١]. ويتضح من هذا أن المثالية المادية تهدم إحداهما الأخرى، وتمثل هذه المدرسة كانت[٢] وأتباعه مثل هيجل[٣] وشلنج[٤] وهرثمان[٥] ونيتشه[٦].

أما الروحيون فهم قسمان: قسم يؤمنون بالله والروح وآخر لا يؤمنون إلا بوجود الحياة، وهم أصحاب مذهب التطور الخالق الذي يمثله (برجسون)[٧] وستيورت مل[٨] وسبنسر[٩]. وإن هذه المدرسة لا تقول بعلة للوجود وراء الحياة في الوقت الذي لا يعلم عن أصلها شيء ولا عن مصدرها، وتجعل من المادة شبحاً للحياة ومقاوماً لها.

وإذا كانت هناك معرفة حقيقية على الإطلاق وجب أن تكون لها وجود حقيقي، وهذه الموجودات هي المثل، ذلك لأن كل نوع من الأشياء التي نراها

---

(١) ينظر كتاب الوجود ص٨٧.

(٢) كانت ١٧٢٤ ـ ١٨٠٤م.

(٣) فيلسوف ألماني ١٧٧٠ ـ ١٨٣١م. ولد في استنجار.

(٤) فيلسوف ألماني ولد في وادتمبرج ١٧٧٥ ـ ١٨٥٤م.

(٥) هرتمان فيلسوف ألماني ١٨٤٢ ـ ١٨٠٦.

(٦) هنري برجسون فيلسوف فرنسي ولد في باريس ١٨٠٩م.

(٧) هنري برجسون فيلسوف فرنسي ولد في باريس ١٨٠٩م.

(٨) فيلسوف إنجليزي ١٨٠٦ ـ ١٨٧٣م.

(٩) فيلسوف إنجليزي ولد في مدينة دربي ١٨٢٠ ـ ١٩٠٣.

بأعيننا يقابله مثال هو مصدره وعلته، وأنه النموذج الأصيل للصور الممكنة المولودة منها وغير المولودة على السواء ولا يتعرض ـ عالم المثل ـ للفناء كالعالم المحسوس بل هو فوق ما نسميه بالعمر أو الأجل المحدود[١].

أصل الكون عند المثاليين

يرى المثاليون أن الفكر هو الواقعة الأولى، وهو أولى المعطيات، لأن كل قضية تفترض وجود الفكر[٢] واتخذ ديكارت[٣] هذه الفكرة مذهباً له ويقول:

(رأيت أن وجود هذا الفكر هو المبدأ الأول واستنبطت منها المبادىء التالية:

أن هناك إلهاً هو خالق كل ما في العالم، وأنه لم يخلق أذهاننا بحيث تكون عرضة للخطأ فيما تقرر من أحكام على الأشياء التي نتصورها.

وكذلك، استنبطت مبادىء الأشياء الجسمانية)[٤] أي أن لها أشكالاً طولاً وعرضاً وارتفاعاً وأن لها أشكالاً تتحرك على صور مختلفة، ويقول في عرض نظريته حول أصل الكون:

(أن هناك فكرة ممتازة أوسع من فكرتك هي فكرة الكائن اللانهائي، وأن في ذهنك صورة عن كائن لا نهاية لها.. ويستحيل أن يكون قد نبعت في

---

(١) ينظر فلاسفة أوروبيون من ديكارت إلى برجسون تأليف الدكتور موسى الموسوي.

(٢) رواد المثالية في الفلسفة الغربية تأليف عثمان أمين ١٩٦٧ دار المعارف ص٩.

(٣) ١٥٩٦ ـ ١٦٥٠ ـ أو ١٦٥٩ فيلسوف فرنسي.

(٤) الفلسفة الحديثة تأليف د. محمد علي أبو ريان، الطبعة الأولى ١٩٦٩ دار الكتب الجامعية.

نفسك، لأنها أوسع منك وأنت كائن محدود على نقيضه، فلا يمكن أن ينشأ كائن لا نهائي مطلق من كائن نهائي محدود، ولا بد لها من أصل يوازيها كمالاً وعظمة لضرورة التكافؤ بين العلة والمعلول ومن هنا كان حتماً علينا أن نسلم بوجود إله جامع لكل صفات الكمال، وهو الذي خلق في الإنسان هذه الفكرة والهمة، فالله تعالى موجود وليس في وجوده شك)[١].

واستخرج بذلك اليقين من الشك وجعله سبيلاً لإثبات وجود الله، وقال كلمته المشهورة (أنا أفكر، إذن أنا موجود) وبنى على هذه الكلمة قواعد برهانه على صحة الحواس وصدق العقل، وتوصل إلى إثبات وجود الله وعرف جميع صفات كماله المتوجبة عقلاً[٢].

ومن علماء المثالية هيجل[٣] الذي ينادي بأن العقل أساس الكون كله، وأن العالم من خلقه، وأول عمل يقوم به هو تأليف تلك القوانين العليا التي تخضع لها حقيقة الطبيعة المادية كما تخضع لها الحقيقة العلمية، وكما نادى كانت[٤] بأن الحقيقة الواقعية هي من تصميم العقل، وأن كل معطيات الحس لا بد أن تدخل في إطارات من صنع العقل، وكذلك الزمان والمكان والعلة من إطارات قائمة في صميم العقل[٥].

ويرى دعاة المثالية، أن المادة والصورة كلاهما ناشئان عن العقل، لأن

---

(١) فلاسفة أوروبيون من ديكارت إلى برجسون ص ١٣ ـ ١٤.

(٢) ينظر قصة الإيمان ص١٢٧.

(٣) هيجل ولد في استتجار بألمانيا ١٧٧٠ ـ ١٨٣١م.

(٤) كانط فيلسوف ألماني ولد في كنجسبرج ببروسيا ١٧٢٤ ـ ١٨٠٤م.

(٥) ينظر المثالية الألمانية عبد الرحمن بدوي دار النهضة العربية ١٩٦٥م ص٩٠ ـ ٩١.

المادة عندهم ليست بشيء ذلك لأن المادة إما أن تنشأ عن العقل أو العقل من المادة، ولما كان حدوث العقل عن المادة غير ممكن، فإن من الضروري أن نقرر (إن المادة تولد من العقل)، وهذا ما يقضي به الإدراك الفلسفي الذي يعرف الصلة بين الذاتي والموضوعي وبين التصور والعيان وبين الامتثال والشيء، وبالجملة إن العالم اللامتناهي ليس شيئاً آخر غير عقلنا الخالق في نتاجاته وانتساخاته ولا يبقى العقل مجرد مبدأ للذاتية فحسب بل يصبح طبيعة تنظم نفسها والمركز الأصيل لنظام العالم[١].

وايد شلنج[٢] مبدأ كون العقل أصل الوجود، ويقصد بالعقل العقل المطلق وهو الله تعالى[٣].

وجملة القول أن المثاليين يعتبرون الفكر والعقل المبدأ الأول للكون والمادة في نتاجه، وأنشأوا مبدأ الإثنينية[٤] كعلة للوجود أو الواحدية فقط كالفكر فقط كما فعل كانت وهيجل أو المادية فقط كما فعل لوك[٥] وأعقابه كـ (مولشوت)[٦] و(هولباج)[٧] وغيرهما، وحدث منه الكون نتيجة المتضادات في عناصره.

---

(١) المثالية الألمانية ص٢١٢، وينظر المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص٩.

(٢) فيلسوف ألماني ولد في ١٧٧٥ في مدينة ورتمبرج وتوفي سنة ١٨٥٤م.

(٣) المثالية الألمانية ص٢١٥.

(٤) الحركة والمادة أو الفكر والمادة، ومع ذلك إن شكت في وجود الجوهر المادي اعتنقت المذهب المثالي، وإن شكت في المذهب المثالي فقد ارتدت إلى المذهب المادي ودانت له.

(٥) فيلسوف إنجليزي ولد في مدينة رنجتون ١٦٣٢ ـ ١٧٠٤م.

(٦) ١٨٢٢ ـ ١٨٩٣م.

(٧) فيلسوف فرنسي ملحد ١٧٢٣ ـ ١٧٨٩م.

إلا أن الأساس الذي بني عليه مبدأ الإثنينة والواحدية ضعيف للغاية، لأن شرائط العلة الأولى لم تتوفر فيهما، ولأجل ذلك القصور اضطر ديكارت أن يدخل الله في أول حركة للفكر ليحدث الإلفة بين ما هو عقلي وما هو مادي، لشعوره بأن العلة التي فرضها في مذهبه تقصر عن أن تبلغ العلية المطلقة للوجود، ولأن الجوهر المادي والجوهر العقلي ضدان يقصران عن تعليل الإلفة بين الروحية والجسمية في الإنسان وفي الوجود.

بين المادية والمثالية

ليس في الخبرة المطلقة الناشئة عن التجربتين الذاتية والموضوعية إذا اقترفنا معاً ما يبرر كون الفكر علة للمادة ولا كون المادة علة الفكر، لأن واقعية الشيء تمنع علية الفكر إذا ادعى ذلك، ثم إن عدم ثبات المادة كحقيقة علية، وترتب جملة ظواهر لوجودها كتحولها لطاقة متحركة تنزل المادة عن عرش العلية أيضاً.

وكذلك إن تضايق العقل للشيء ومحدودية كل منهما وقصوره وتضايقه وحاجة كل منهما للآخر ينبئنا بالبرهان القاطع على أن هناك علة عليا غيرهما فوق الفكر والمادة تعلل الإلفة والانسجام بينهما، وذلك يفسر لنا سر العلاقة بين الجسم والعقل، والفكر والشيء، والروح والمادة كما لو كانت جميعها حالات ومظاهر لنشاط حقيقة أخرى تعللها وتؤلف بينهما[١].

وأن القائلين بالجوهر المادي يجهلون أن المادة مقومة بحقيقة لا يعرفونها، وكذلك القائلين بجوهرية العقل يجهلون أن العقل يحتاج إلى المادة

---

(١) ينظر: كتاب الوجود ص ٧٥ ـ ٧٦.

دائماً ليظهر فيها ويتجاوب معها، ودليل ذلك أن الماديين يطعنون في جوهرية العقل وكونه مقوماً للأشياء، مدعين أنه مجرد ظاهرة من ظواهر الأجسام.

وكذلك المثاليون يقولون أن الماديين لا يدركون من الأشياء إلا ظواهرها، وهم ينكرون وجود العقل، وتكون نتيجة ذلك أن كل واحد منهما ينفي ما يتصوره الآخر، ويدل ذلك على ما يبدو أن المثاليين لا يفرقون بين معنوية العقل وواقعية الشيء، ومن جهة الماديين أنهم لا يعلمون إلا ظواهر الأشياء.

ويشابه هذا الصراع بين الماديين والمثاليين موقف رفض اليهود دين النصارى وبالعكس أيام نزول القرآن الكريم مع تيقنهم بأن نبيهم مرسل من عند الله وقص القرآن هذه الحقيقة بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾[١].

حيث بين تعالى في هذه الآية تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم[٢] كما يفعله أصحاب النظرية المادية والمثالية في العصر الحاضر.

وتداخلت المادية في المثالية فأخذت قادة الماديين نواة المثالية وألبسوه ثوباً جديداً، ونقلوا طريقة (هيجل) الديالكتيكية إلى مادية واسعة النطاق، وأعطوه طابعاً آخر، كما صرح ماركس في قوله (إن طريقتي الديالكتيكية لا تختلف عن الطريقة الهيجلية من حيث الأساس فحسب، بل هي ضدها تماماً، فحركة الفكر الذي يشحنه هيجل ويطلق اسم (الفكرة) هي في نظرة خالق الواقع

---

(١) سورة البقرة: ١١٣.

(٢) تفسير ابن كثير ج١ ص١٥٥.

وصانعه، أما في نظري فعلى العكس ليست حركة الفكر سوى انعكاس الحركة الواقعية منقولة إلى دماغ الإنسان مستقرة فيه)[١] كما أن المذهب المثالي قد امتلأ بمحتوى وأفكار مادية ساعياً بواسطة مفهوم عن وحدة الوجود إلى إيجاد حل للتناقض بين العقل والمادة حتى أصبح منهج هيجل من حيث طريقته ومحتواه مادية واقفة على رأسها بشكل مثالي[٢] وتلقى ماركس الفكرة الهيجلية فأقامها على رأسها بعد أن كان منتكساً على رأسها على حد تعبيره، ولكن تتميز المادية الهيجلية مع مادية الماديين من حيث الخطوط الأساسية التالية:

١ ـ أن المثالية تعتبر العالم تجسداً لـ(الفكرة المطلقة) أو (العقل الكلي).

أما المادية فتعد أن العالم بطبيعته مادي، وأن حوادث العالم المتعددة هي مظاهر مختلفة للمادة المتحركة، وأن العلاقات المتبادلة بين الحوادث هي قوانين ضرورية لتطور المادة المتحركة وأن العالم يتطور تبعاً لقوانين حركة المادة، وليس بحاجة لأي عقل كلي[٣].

٢ ـ أن المثالية تؤكد أن الشعور وحده هو الموجود واقعياً، وأن العالم المادي والكائن والطبيعة لا توجد إلا في إدراكنا وإحساساتنا.

أما المادية الماركسية فتقوم على أساس أن المادة والطبيعة والكائن هي حقيقة موضوعية موجودة خارج الإدراك بصورة مستقلة عنه وأن المادة هي العنصر الأول وأن الفكر هو نتاج المادة، لما بلغت في تطورها درجة عالية من

---

(١) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص١٣ ـ ١٤ نقلاً عن رأس المال ج١ ص٢٩. ولودفيج فيورباخ ص٢٣.

(٢) المادية والمثالية مهدي الحافظ طبع سنة ١٩٧٤ بغداد، ص٥٧.

(٣) المادية الديالكتيكية ص٢٦.

الكمال، أي أن الفكر هو نتاج الدماغ، والدماغ هو عضو التفكير، فلا يمكن فصل الفكر عن المادة المفكرة لأن هذه المادة هي جوهر كل التغيرات التي تحدث[١].

٣ ـ أن المثالية تبعد إمكانية معرفة العالم وقوانينه، ولا تؤمن بقيمة المعرفة البشرية، وتعتبر أن العالم مملوء بأشياء قائمة بذاتها ولن يتوصل العلم أبداً إلى معرفتها.

أما المادية فتجعل معرفة العالم وقوانينه ممكناً، والتي تجري اختبارها بالعمل والتجربة، هي معرفة ذات قيمة ولها معنى موضوعية، وليس في العالم أشياء لا تمكن معرفتها وإنما فيه أشياء لا تزال مجهولة بعد وهي ستكتشف وتصبح معروفة بوسائل العلم والعمل[٢] وقد اقتصرت معرفة الماديين على الشكل الخارجي للمادة وما يشاهد بالعين أو ما يمكن إجراء التجارب عليها في المختبرات، ونفوا ما وراء ذلك من فلسفة المثاليين الذين نفوا بدورهم آراء الماديين وقد اكتشف العلم الحديث خطأ آرائهم ونظرياتهم حول الكون والمبدأ الأول الذي انبثق منه الوجود.

٤ ـ أن جدل الأطروحة[٣] وطباقها[٤] وتركيبها[٥] يتم بين الفكرة والمادة

---

(١) المصدر نفسه ص٢٧.

(٢) المصدر نفسه ص٣٠.

(٣) الأطروحة: هي انبثاق عوامل الإنبات داخل المادة، كانبثاق حبة الحنطة في الأرض عن عوامل داخلية متجهة نحو الإنبات. نقض أوهام ص٣٢.

(٤) الطباق، ظهور عوامل الحياة بعد الأطروحة، نقض أوهام ص٣٢.

(٥) إعادة الشيء إلى ما كان عليه قبل الأطروحة، كإعادة النبات سنبلاً متراكباً من الحنطة نقض أوهام ص٣٢.

عند المثاليين، ويتم عند الماديين ضمن المادة ذاتها دون أي عامل خارجي من فكر وغيره، وأن الجدل سر تطور الكون والموجودات المختلفة التي لا تعدو أن تكون من جنس المادة أو من ثمراتها وهو تطور مستمر يسير باتجاه دائري لولبي يكرر الدائرة ذاتها كل مرة[١].

ومما يبدو أن الحركة تنبعث عند هيجل من منطلق واحد إلى دائرتين مختلفتين دائرة ما بين الشعور والروح حيث تحيي فيها حقائق الدين والقيم الإنسانية، ودائرة ما بين الفكر والطبيعة، حيث تنمو فيها الوقائع والمشاهدات المادية بتطوراتها وأن نظرية هيجل لا تستبطن إلحاداً، بل تؤكد على وجود الخالق وأنه خالق جميع المخلوقات ومدبرها، وإن كانت فكرته عن الله تعالى تسير وفق نظريته الشاملة.

وأما عند الماديين فهي رصد لصراع الأضداد ضمن المادة فقط ولا شأن لها بما بين الشعور والروح إطلاقاً، وأما دور الفكر والشعور فثانوي لاحق. وكذلك تجعل من المادة وحدها إلهاً وتنكر وجود الخالق لتكف عن نفسها ـ المادية ـ مشكلة أعظم برهان على وجوده ألا وهو الروح والفكر، عندما تقرر أن كلاً من الروح والعقل أثر من آثار المادة.

٥ ـ أن المثالية برد الكون إلى سبب أعمق وهو الله تعالى، ومن ثم يؤمن بنوع من الوجود المجرد خارج المجال التجريبي، أما المادي فيقف عند المادة ولا يتعداها، ولا يؤمن بها وراء التجربة الحسية[٢] وقد أنكر الماديون الحقيقة المجردة التي اعتبرها المثاليون سبباً نهائياً للوجود.

---

(١) نقض أوهام ص٣١.

(٢) مطارحات الفكر المادي ص١٩٨.



الفصل الرابع

خالق الكون في الحضارة الحديثة

ليس هناك تناقض بين العلوم وبين فكرة وجود الله الذي قدر كل شيء فأحسن تقديره، والذي ظهرت آياته للناس في ثنايا ما تكشف عنه العلوم، كما يقول (فيليبس) أحد علماء الطبيعة: (لقد ظهر الحق، فمنذ أن خلق الله هذا الكون تتجلى آياته وقوته الخالدة في كل ما يقع عليه الحس أو يحيط به العقل)[١].

وقد لا يستطيع الإنسان أن يسلم بوجود الخالق على أساس الأدلة العلمية المادية وحدها، ولكننا نصل إلى الإيمان بالله عندما نمزج بين الأدلة العلمية والأدلة الروحية، أي عندما ندمج معلوماتنا عن الكون مع إحساسنا الداخلي والاستجابة لنداء العاطفة والروح الذي ينبعث في نفوسنا. ويمكننا أن نصل إلى أن الله يتصف بالقدرة والحكمة والإرادة، وأن له وجوداً ذاتياً، وقدرته تتجلى في كل شيء كما بينا سابقاً، إلا أننا نعجز عن إدراكه إدراكاً مادياً أو وصفه وصفاً مادياً مع كثرة الأدلة المادية على وجوده، حيث تدل أياديه في خلقه على أنه العليم الذي لا نهاية لعلمه، الحكيم الذي لا حدود لحكمته،

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص٦٩.

القوي الذي لا حدود لقوته وهو القاهر فوق عباده[١].

فإن الإنسان المفكر لا بد أن يذعن ويسلم بوجود إله منظم لهذا الكون، وعندئذ تصير فكرة الألوهية إحدى بديهيات الحياة، بل الحقيقة التي تظهر في هذا الكون، والمطابقة بين الفرص والنتيجة تعد برهاناً على صحة هذا الفرض، إلا أن الملحدين يفرون من الأدلة العلمية والمنطق الصحيح وينكرون وجود الخالق ويعتبرون المادة والطبيعة هي الخالق، ويردون على الأدلة الكونية بقولهم: أن المادة والطاقة يتحول كل منهما إلى الآخر بحيث يمكن أن يكون الكون بذلك أبدياً، وكذلك ينكرون النظام في الكون ويعتبرونه مجرد وهم، ولكن لا يستطيعون أن يقيموا دليلاً على عدم وجوده تعالى، لأن أساس الإلحاد قائم على العمى[٢].

ويرى صاحب مذهب الذرات الروحية (لبينتز)[٣] أن الخالق وجد مع الكون في ذرات روحية متعددة تسمى وحدات (المونواد)[٤] فيقول (إن الوجود بما فيه من مادة وفكر أو روح وجسد كله مركب من ذرات روحية.. بعضها أرقى من بعض ومن هذه الذرات نفسها يتكون الكون والفكر والإله)[٥] وأن هذا القول حلولية ظاهرة في مذهبه، وبالتالي نكران صريح لوجود المادة.

ويرى الوجوديون[٦] أن وجود الله افتراض غير نافع كما ذهب

---

(١) ينظر المصدر نفسه ص ٣٨ ـ ٣٩.

(٢) ينظر: الله يتجلى في عصر العلم ص٨٣ ـ ٨٤.

(٣) فيلسوف ألماني ولد في ليبزج ١٦٤٦ ـ ١٧١٦م.

(٤) أي الوحدات أو الذرات التي يتركب منها كل شيء.

(٥) كتاب الوجود ص٨١.

(٦) الوجودية: دعوة انحلالية أسسها ودعا إليها رجل دانماركي اسمه (كونراد).

(سارتر)[١] إلى هذا القول، وينكر وجوده وبسبب هذا الإنكار من الوجودية لله نراها تحارب الأديان وتتعاون مع الأفكار الإلحادية، لأنها قائمة على غير الفطرة، ويذهب سارتر إلى أن الوجود أصله اللاوجود (والإنسان يحاول أن يوجد نفسه أي يخرج بذاته من العدم إلى الوجود)[٢].

وأن الوجودية تفند رأيه بنفسه في كل دعوة يدعون بها ضد الفطرة لأن واقع الكون والتغييرات التي تطرأ عليه كل ذلك يبرهن عجز الإنسان عن معرفة أسرار الخلق ودفع المضار عن نفسه، وكذلك يوضح أن هناك خالقاً وراء هذه التغييرات ويتصرف فيها كيف يشاء.

أن الماديين يرون أن الطبيعة هي الخالق، وأن المادة هي أصل الأشياء، وينكرون وجود علة للوجود فوق العلل، ولا يؤمنون بوجود شيء خارج مداركهم، وما لا يقع عليه بصرهم وأن العالم مادي، وما الحوادث التي تجري فيه إلا مظهر من مظاهر المادة المتحركة ضمن قوانين ضرورية لتطورها وقال لينين[٣] بصدد المفهوم المادي (العالم واحد لم يخلقه إله ولا إنسان، وقد كان ولا يزال وسيكون شعلة حية إلى الأبد وتشتعل وتنطفىء تبعاً لقوانين معينة..»[٤]، وهو يرفض بذلك الاعتراف بوجود الخالق ويعترف بوجود قانون ثابت في نظامه ولكن يعيده إلى المادة تخلصاً من التساؤلات.

وهذا (فيورباخ) يختصر الوجود على الطبيعة وينفي وجود شيء خارجها

---

(١) أحد أقطاب الشيوعية.

(٢) ينظر: الإسلام يقيناً لا تلقيناً، ص٢٤٣ ـ ٢٤٧.

(٣) أحد قادة الشيوعية، ١٨٧٠ ـ ١٩٢٤.

(٤) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص٢٧.

ويقول: «فالطبيعة توجد وجوداً مستقلاً عن كل فلسفة، وهي الأساس الذي نشأنا عليه نحن البشر.. وليس ثمة شيء خارج الطبيعة والبشر»[(١)]، ويرى الدين وهماً وخيالاً والكائنات العليا انعكاساً وهمياً لكينونتنا الخاصة، ويقول: «وما الكائنات العليا خلقتها خيالاتنا وأوهامنا الدينية سوى الانعكاس الوهمي لكينونتنا الخاصة[(٢)].

وكذلك يرون أن المادة هي الحقيقة الوحيدة التي انبثقت منها الحياة حيث ينسبون الخلق إلى المادة الجامدة غير المدركة ويجعلون الخالق من نتاج وجدان الإنسان الديني ويقول: خيورباخ: «إن الله نتاج وجدان الإنسانية الديني وخيالها الأسطوري أما العكس، أي أن الوجدان الديني والأسطورة نتاج الوحي الإلهي فغير صحيح البتة»[(٣)]، وكذلك يقول: «أن المادية في نظري هي أساس الكينونة غير أني لا أنظر إليها كما ينظر العالم الفيزيولوجي والعالم الطبيعي بالمعنى الضيق»[(٤)].

وحاول فيورباخ نقد الدين والوحي واعتبره فكرة تعمل على تخدير الشعب، وأنه انعكاس وهمي للواقع ويقول: «الدين هو العلاقة بين إنسان وآخر، تلك العلاقة التي تفتش عن حقيقتها حتى اليوم، في انعكاس وهمي للواقع في تدخل إله واحد أو آلهة متعددة التي هي انعكاسات وهمية لصفات الإنسانية»[(٥)].

---

(١) فردريك إنجلز ص٤٧.

(٢) المصدر نفسه ص٤٧.

(٣) فردريك انجلز ص١٨.

(٤) المصدر نفسه ص٥٧.

(٥) المصدر نفسه ص٦٨.

وإذا تأملنا في أقوال هذا المادي فهو يحاول فهم خالق الكون عن طريق المادة الجامدة فقط دون النظر والتأمل إلى أن خالق الكون أوجده ليعتبر به العاقل.

إلا أن العقل السليم يستطيع أن يرى (الله) تعالى إذا وقف أمام هذا الوجود وقفة المتأمل الذي يفرق بين العلل والمعلول والأسباب والمسببات، ويستدل بالحاضر على الغائب وعلى الخالق بالخلق الذي خلقه وهذا هو الطريق المأمون الذي يسلكه العقل في التعرف على الله، وبهذا العقل المتزن الرشيد عرف العارفون ربهم وآمنوا به.

أما أولئك الذين جادلوا في الله وألحدوا فيه، فهم الذين انحرفت عقولهم عن هذا الطريق وهامت بهم في أودية الضلال والتيه، وقطعت بهم العمر جرياً وراء الخيالات والأوهام يحسبون أنهم على شيء، فركبت رؤوسهم الغرور، وبدت لهم الأشياء المقلوبة مستقيمة مع وضعهم المقلوب، فحسبوا أن العقل قادر على أن يذهب بهم كل مذهب ويشرفهم كل غاية، ويكشف لهم الحجاب عن ذات الله، فيشهدوا منه ما لم يشهد غيرهم من الناس، حتى وقعوا في شبكة الوثنية والتجسيد وتاهوا في حلك الظلام فضلوا وأضلوا وسنرى موقف أصحاب الحضارة الحديثة عن الله تعالى بصورة موجزة[١].

يرى المثاليون أن خالق الكون قد حل في أجزاء الكون، وحاولوا أن يوحدوا الوجود، واعتبروا أن الله هو الكون، وهو في نفس الوقت منشئه ومكونه، وهذا ما دفع (سبينوزا) تلميذ ديكارت أن يحصر العلية المطلقة في مزيج موحد من الفكر والامتداد، فأنتج هذا خليطاً من المعلولية والعلية في

---

(١) ينظر: (الله ذاتاً وموضوعاً) ص٣٠٠.

نظام فلسفي غير محكم (بأن أحل الله في الطبيعة)، وتابعه زملاؤه في المدرسة الديكارتية، وهذا (جورد اتو برونو)[١] الذي يخلط بين الطبيعة وخالقه ويقول: (إن مجموع ما في الكون بكل ما فيه هو الله)، (والله هو الكون وهو في نفس الوقت منشئه ومكونه فكل ذرة في الكون مهما بلغت من الدقة والصغرة تمثل الله وتعلن عن وجوده بظهوره فيها)[٢].

فوقعوا بمثل تلك الأقوال في حلولية خاطئة كحلولية سبينوزا في فلسفته القائلة (أن الله فكر وامتداد) الباطلة، لأن الامتداد من صفات المادة، والفكر من خصائص الإنسان، وأن خصائصهما ليست ذاتية فيهما، ولا هما جوهرين عليتين، وإنما هي خصائص كونية ثانوية مفعولة مستعارة من كائن أسمى منهما[٣].



---

(١) فيلسوف إيطالي ولد في إيطاليا ١٥٤٨ ـ ١٦٠٠.

(٢) ينظر: كتاب الوجود ص٧٩.

(٣) ينظر المصدر نفسه ص٧٩.

الفصل الخامس

الحضارة التي بنيت على تلك الأفكار

ترتبط الحضارة في العصر الحديث ببعض المعتقدات السائدة في الشرق والغرب على ما يبدو، وارتكزت تفسيرات الوجود والحياة على أصول هذه المعتقدات، وتفرعت عنها فروع من التطبيقات الاقتصادية والاجتماعية لتأتي بثمرة يانعة حسب مخططاتهم لوسوسة من قبل، ولم تكن الحضارة الحديثة حديث النشأة، بل تعود جذورها إلى العصور القديمة التي حدثت فيها الصراع بين رجال الكنيسة وعلماء الفلك وغيرهم، مما أدى إلى قتل كثير منهم، فقرروا في الآونة الأخيرة فصل الدين عن الدولة، وحصر الدين في الكنائس والمعابد فقط، دون أن يميزوا بين دين وآخر.

وتفرعت من هذه الفكرة مذاهب مادية متباينة من حيث الأسلوب المتحدة في جوهره وهو المذهب المادي الماركسي والمذهب الرأسمالي، فقررت الماركسية المادية رفض الدين تماماً واعتباره عامل التأخر والاضطهاد للفقراء، وأما الرأسمالية فرفضت تدخل الدين في شؤون الدولة فقط، إلا أنهما لم يرفضا التعامل مع المثالية والدين من أجل تحقيق مصالحهما وأهدافهما، وكذلك المذهب المثالي الذي يرى عدم وجود عالم خارج إدراكنا وتصوراتنا فكل الأشياء التي يتكون منها العالم ما هي إلا ألوان من تفكيرنا وتصوراتنا، وما

لا ندركه فهو غير موجود.

ولذلك نجد أن علماء الطبيعة والفلسفة ينظرون إلى الكون على أنه لا خالق له ولا مدبر، وليس هناك قوة وراء الطبيعة والمادة تتصرف فيها وتدبر شؤونها، وصاروا يفسرون هذا العالم المادي ويعللون ظواهره وآثاره بطريق ميكانيكي بحت وسموه نظراً عليا مجرداً، وبدأوا يسخرون بالدين، وعدوا كل بحث وفكر يعتقد بوجود إله طريقاً تقليدياً لا يقوم على أساس العدل والحكمة، وأبو الإيمان بكل ما لا يأتي تحت الحس والاختبار ولا يدخل تحت الوزن والعد والمساحة، وأصبح الإيمان بالله وبما وراء الطبيعة من قبيل المفروضات التي لا يؤيدها العقل ولا يشهد بها العلم[١].

وبدأ الكتاب والاجتماعيون والسياسيون في كل نواحي أوربا ينفخون صور المادية وينشرون سمومها في عقول الناس ويفسرون الأخلاق تفسيراً مادياً، ودعوا من قبل إلى فصل الدين عن السياسة، وتقسيم الأخلاق إلى شخصية واجتماعية وقرروا أن الدين قضية شخصية لا ينبغي أن تتدخل في أمور السياسة والدولة، ويرون أن المتدينين لا يفيد وجودهم الدولة لأنهم يتقيدون بأحكام الدين، ولأنهم لا يستطيعون أن يحيدوا عن أحكامه[٢] ومبادىء الأخلاق إذا اقتضت المصلحة غير ذلك[٣].

ويعتقدون أن القضايا الدينية وجدت لأسباب تاريخية أحاطت بالإنسان،

---

(١) ينظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين تأليف أبو الحسن علي الحسني السوي الطبعة الثالثة ١٩٥٩ مطبعة المدني القاهرة ص١٦٨.

(٢) أي أن عليهم ـ السياسيون ـ أن يمارسوا سياستين كأن ينبذوا العهد إذا اقتضى ذلك.

(٣) المصدر نفسه ص١٦٩.

فلم يكن في استطاعته أن يفلت من السهول والطوفانات، فأوجد (قوى فرضية) لتنقذه من البلايا النازلة، وظهرت الحاجة إلى شيء يجتمع الناس حوله ولا يتفرقون، فاستغل اسم الإله الذي تفوق قوته قوة الإنسان ويهرع الجميع إلى رضاه[١].

ولقد حاول دعاة الحضارة الحديثة ـ المادية ـ أن يبنوا حضارتهم على المادة الملموسة، ويرون أن الحقائق المادية عائمة على السطح لا تحتاج إلى امتحان ولا تردد ولا تقبل كلمة أخرى غير الكلمة التي يرسلها ماركس، ويعتبرون أن عوامل الإنتاج هي التي تتحكم تأريخ الإنسان.

يقول ماركس: (أن الأحوال الاقتصادية هي العامل الذي يقرر أخيراً أطوار التأريخ)[٢] ورفضوا الدين وعدوه أفيون الشعوب، وقسم آخر فصلوا بين الدين والدولة، وسنوضح دعائم الحضارة الحديثة التي بنيت عليها فكرتهم.

أن المذهب المادي ينكر الأديان ويكفر بجميع الأنبياء والرسل ويقولون عن الدين (أفيون الشعوب) لأنه يخدر أتباعه بالأمل في الآخرة، فلا يطلبون النعيم في هذه الدنيا، وهم يسوون بين هذه الأديان جميعاً في هذه الصفة، وقد حاربوا الإسلام والمسيحية واليهودية حرباً عنيفة إلى قيام الحرب العالمية الثانية[٣].

إلا أنه قد يطيق الصبر على المسيحية، ولا يطيق الصبر على الإسلام إلا ريثما تتحفز له وتغل أيدي أتباعه عن المقاومة، لأن المسيحية دين العدد الأكبر

---

(١) الإسلام يتحدى ص٢٩.

(٢) الشيوعية والإنسانية تأليف عباس محمود العقاد ص١٠٥.

(٣) أفيون الشعوب المذاهب الهدامة تأليف عباس محمود العقاد دار الكتاب المصري ص٨٠.

من الروس والشعوب التي تدخل حوزة الدولة الروسية، ولأن المسيحية تدع شؤون الدولة للدولة ولا تتعرض للنظم الاجتماعية أو لإقامة المجتمع على أساس جديد.. وأوصت ما لقيصر لقيصر وما لله لله[١].

ويرون أن الدين نتاج عقل الإنسان ومن خلقه، في حالة جهل الإنسان وعجزه عن مواجهة القوى الخارجية، ويقول جوليان هكسلي[٢]: الدين نتيجة لتعامل خاص بين الإنسان وبيئته.. وأن هذه البيئة هي المسؤولة عن هذا التعامل، فأما بعد فنائها وانتهاء التعامل معها فلا داعي للدين.. ويضيف قائلاً: لقد انتهت العقيدة الإلهية إلى آخر نقطة تفيدنا، وهي لا تستطيع أن تقبل الآن أية تطورات، لقد اخترع الإنسان قوة ما وراء الطبيعة لتحمل عبء الدين جاء بالسحر، ثم بالعمليات الروحية، ثم بالعقيدة الإلهية حتى اخترع فكرة (الإله الواحد) وقد وصل الدين بهذه التطورات إلى آخر مراحل حياته، ولا شك أن هذه العقائد كانت في وقت ما جزءاً مفيداً من حضارتنا بيد أن هذه الأجزاء قد فقدت اليوم ضرورتها، ومدى إفادتها للمجتمع الحاضر المتطور)[٣].

وكذلك ترى الفلسفة الشيوعية أن الدين (خدمة تاريخية) وهي تركز الأسباب في عوامل اقتصادية، وأن العوامل التاريخية التي خلقت الدين هي النظام البرجوازي القديم، وهذا النظام القديم لقي حتفه ولندع الدين يذهب معه، يقول انجلز:

(إن كل القيم الأخلاقية هي في تحليلها الأخير من خلق الظروف

---

(١) المصدر نفسه ص٨١.

(٢) عالم أمريكي صاحب كتاب (الإنسان يقوم وحده).

(٣) الإسلام يتحدى ص٢٩.

الاقتصادية)[١] وينكرون وجود الإله والخالق لهذا الكون ويقولون إن الموجود منحصر في المادة، فالعقل الإنساني والشعور الاجتماعي كلاهما مادة أيضاً، والذي لا يتصف بالمادية والموضوعية ليس له وجود، وعلى هذه القاعدة يقولون أن الله ليس بموجود لأنه ليس بمادة، ومن جهة أخرى: أن العقل هو مادي لا يبقى بعد الجسم، وعلى هذا ينكرون حقيقة البعث بعد الموت لأن البعث يقتضي بقاء العقل أو الروح بعد الجسم، وهم يفترضون فناء ذلك بفناء المادة[٢] ويقول لينين في خطاب ألقاه في المؤتمر الثالث لمنظمة الشباب الشيوعي في أكتوبر ١٩٢٠:

(أننا لا نؤمن بالإله، ونحن نعرف كل المعرفة أن أرباب الكنيسة والإقطاعيين والبرجوازيين لا يخاطبوننا باسم الإله إلا استغلالاً ومحافظة على مصالحهم، أننا نكر بشدة جميع هذه الأسس الأخلاقية التي صدرت عن طاقات وراء الطبيعة غير الإنسان والتي لا تتفق مع أفكارنا الطبيعية، ونؤكد أن كل هذا مكر وخداع، وهو ستار على عقول الفلاحين والعمال لصالح الاستعمار والإقطاع، ونعلن أن نظامنا لا يتبع إلا ثمرة النضال البروليتاري، فمبدأ جميع نظمنا الأخلاقية هو الحفاظ على الجهود الطبقية البروليتارية)[٣].

فالقيم الدينية والقيم الأخلاقية لا وجود لها ولا ثبات عند الماديين وإذا وجد من يقول: أن هناك قيماً أخلاقية ينبغي المحافظة عليها لمصلحة الوقت الراهن يكون مخطئاً أشد الخطأ وخارجاً عن مبدأ الفلسفة الماركسية التي تؤمن

---

(١) المصدر نفسه ص٣٠.

(٢) الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه تأليف د. محمود عثمان الطبعة الأولى مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٧٧ ص٢٧٤ ـ ٢٧٥.

(٣) الإسلام يتحدى ص٣٠.

بالتغيير في كل شيء، والقيم الأخلاقية ليست قابلة للتغيير فحسب بل واجهة التغيير إن كان لها وجود في نظر الماركسية[١].

وكذلك يعدون الدين نقيس العلم، ونوعاً من أنواع العبودية التي تبتلى بها جماعات فقيرة في كل زمان ومكان كما يقول ستالين:

(لا يمكن أن يقف الحزب موقفاً محايداً من الدين لأن الدين نقيض العلم[٢].

ومما يبدو من هذه النصوص أن الحضارة المادية ترفض الدين والاعتراف بخالق لهذا الكون ويعتبرون المادة أساس كل شيء، ولا يميزون بين دين وآخر، فكل الأديان متساوية عندهم، ولا يتعاملون مع الدين إلا من أجل النضال ضد الاستعمار، كما يصرحون بذلك في بياناتهم، وأن الدين اليوم في أوروبا هو روح المادية لا النصرانية وقد بين ذلك في وضوح وصراحة الأستاذ الألماني المسلم (محمد أسد) في كتابه (الإسلام على مفترق الطرق):

(أن الحضارة الغربية لا تجحد الله في شدة وصراحة، ولكن ليس في نظامها الفكري موقع لله في الحقيقة، ولا تعرف له فائدة ولا تشعر بحاجة إليه)[٣].

وأن الدين هو الغذاء الخادع للضعفاء لأنه يدعوهم إلى احتمال المظالم ولا يزيلها، ويقول هيجل: (أنه الأفيون الذي يخدر الشعب لتسهل سرقته)

---

(١) الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه ص ٢٧٥.

(٢) الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه ص٢٧٧.

(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص١٧٢.

ويضيف: (أنه نفثة المخلوق المضطهد وشعوره بالدنيا التي لا قلب لها إنه أفيون الشعوب)[١].

وكذلك أنهم يدعون إلى الإلحاد ورفض الدين كلياً وأن السعي وراء لقمة العيش والتحرر من الإقطاع أساس الحياة وأن العقيدة الوطنية أو الدينية تنشيء لها تركيبة عليا من الشعائر والمراسم تعمل في الظاهر مستقلة عن وسائل الإنتاج ولكنها مشتقة منها ومتوقفة عليها[٢]. وسنناقش هذه الآراء فيما بعد إنشاء الله تعالى.

تطبيق العلمانية[٣]

إن مفهوم العلمانية ظهر نتيجة للصراع على السلطة بين الكنيسة ورجال الدين من جهة وبين الحكام الزمنيين والملوك من جهة ثانية ويمكن تلخيصه على الوجه الآتي:

أ ـ إبعاد الدين عن الدولة وشؤونها، ويسعى القوي ـ الأجنبي ـ عن طريق أصحاب النفوذ في نظام الحكم في المجتمع الإسلامي إلى ازدواج التعليم ما بين دين ومدني وازدواج القضاء ما بين شرعي ومدني في أولى مراحل تطبيق العلمانية[٤].

---

(١) الشيوعية والإنسانية ص٢٣٢.

(٢) الشيوعية والإنسانية ص٢٣٣.

(٣) العلمانية هي: فصل الدين عن الدولة.

(٤) الإسلام ومواجهة المذاهب الهدامة تأليف د. محمد البهي الطبعة الأولى دار التضامن للطباعة القاهرة ١٤٠١ ـ ١٩٨١م ص١٦.

ب ـ منع رجال الدين من التدخل في شؤون الدولة والمجتمع، لفرض آرائهم ووجهات نظرهم بحجة أنها تمثل الدين والتعاليم الإلهية المقدسة[١].

جـ ـ أن تكون الدولة محايدة تجاه جميع الأديان والمذاهب.

د ـ أن تضمن الدولة كذلك لكل مواطن حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر الدينية بدون تمييز بسبب الأصل أو الجنس أو الدين أو العقيدة، بشرط أن لا يمس حرية الآخرين وآداب المجتمع، ولا مع النظام العام[٢].

والدولة عندما تكون علمانية محايدة فإن نظامها يفصل بين الدين والدولة ليكون لكل منهما دوره، دون أن تكون الدولة معادية للدين أو منحازة لأي مذهب يسمح لقادته بأن يفرضوا سلطتهم بحجة أنهم يمثلون إرادة الله.

وكتب أصحاب العلمانية بهذا المعنى مقالاتهم وقال بعضهم (على الدولة أن لا تخص أي دين باعتراف خاص به) فعلى كل ديانة أن تبرز إلى المجتمع بقواها الذاتية بدون عون الدولة، التي إذا ساعدت إحداها تكون قد أفسدت مبدأ المساواة بينهما) وقالوا أيضاً (إن العلمانية لا تلغي الدين أو الممارسة الدينية، بل تخرج السياسة والتنظيم الاجتماعي من حيز الممارسة الدينية، كما تخرج الممارسة الدينية من الحيز الاجتماعي والسياسي كي تعيدها إلى إطارها الوحيد في الحيز الشخصي، فالتعصب الديني عندما يقتصر على الإيمان وعلى العلاقة بين الفرد وربه فإنه حق للفرد، أما عندما يتحول إلى قاعدة للتنظيم الاجتماعي والممارسة السياسية فإنه يصبح وسيلة قمع استبدادية غير عقلانية، ويكون بالضرورة أساساً لانقسام المجتمع حسب حدود يرسمها

---

(١) العلمانية والدولة الدينية تأليف شبل العيسمي ص٥٣ ـ ٥٤.

(٢) المصدر نفسه ص٥٤.

الإيمان وتتخذ شكلاً طائفياً) ورفعوا شعارهم المعروف (لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة)[١].

وبما أن الإسلام دين لم يسلم مما وجهه الآخرون إلى المسيحية من شظايا الحرب بين الكنيسة والدولة في أوروبا من أجل السلطة، ويحلو لرجال السياسة في المجتمعات الإسلامية أن يكرروا الاتهام لإبعاد المسؤوليات عن كاهل الحكام التي يلقيها وينيط بها الحكم الإسلامي[٢].

وقد تبنى هاتين الفكرتين ـ الإلحادية والعلمانية ـ حضارتي الغرب والشرق اللتين يمثلهما الرأسمالية والاشتراكية الروسية، ويلتقيان من حيث المبدأ في المادية وجعلها أساس الوجود، ورفض الدين، لأن الفرق بينهما كالآتي:

١ ـ أن النظام الرأسمالي ذات مظهر خادع رواغ تغر الناظر السطحي إليها فيحسب أنها مذهب في الحياة وللدين فيه مكان مكين ومن تعمق فيه يكتشف أن الخلاف بينهما في أسلوب الدعوة وأنهما يشتركان في المادية، وتتعامل مع الكون والحياة والإنسان من منطلق مادي لا يترك مجالاً لمسألة وجود الله وما يتفرع عنها من وحي ونبوة وأديان وشرائع[٣]، أما الماركسية الاشتراكية فترفض الدين تماماً.

٢ ـ أن الماركسية نظام فلسفي يدعي لنفسه الشمول، وينفي كل نظام فكري آخر مغاير له ويدعي بطلانه، ولما كان عقيدة وجود الخالق لهذا الكون

---

(١) العلمانية والدولة الدينية ص٥٤.

(٢) الإسلام ومواجهة المذاهب الهدامة ص٨.

(٣) مطارحات الفكر المادي ص١٤.

خارج عنه بحكم تفسيره المادي فلا بد له أن ينفي العقيدة الدينية وما يتفرع عنها من عقيدة، وأن يبحث عن ثوابت في ثقافة الإنسان وحضارته على مدى التاريخ في تفسير مادي يتفق مع أصوله وقواعده المادية(١).

أما الرأسمالية فليست نظاماً فلسفياً، ولكنها قائمة على معطيات فكرية لخليط من الفلسفات أدت جميعها إلى تكوين نظرة مادية إلى الكون والحياة. إلا أن هذا النظام مع ماديته أبقى على الكنيسة بعد أن جردها من سلطانها الزمني تجرداً كاملاً أو شبه كامل باعتبار الكنيسة مؤسسة تستهوي عقائدها وطقوسها فئة من الناس لا تزال مؤمنة بها، وأن مفكري الرأسمالية، رأوا أن المؤسسة الدينية ليست عديمة الفائدة في شأن تنفيذ الخطط التي وضعتها الدوائر الرأسمالية لاحتلال العالم القديم والجديد في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية(٢).

وإذن فالتفاوت في الموقف من الدين بين الماركسية والرأسمالية ليس ناشئاً من خلاف مبدئي حول الدين فكلاهما من هذه الناحية في موقع واحد من الدين، فهما لا يعترفان به، ولا يأخذان بتوجيهه في سياساتهما الداخلية والخارجية ومناهجهما الاجتماعية والتعليمية والاقتصادية، فالتفاوت بينهما بالنسبة إلى الدين هو في الموقف منه من الناحية العملية، فالماركسية تنفيه وتحاربه وتبطل ما عداه من أنظمة ونظريات، أما الرأسمالية فتنفي الدين وتحارب تدخله في شؤون الحياة والسياسة.

---

(١) المصدر نفسه ص١٥.

(٢) المصدر نفسه ص١٥.



مناقشة المعارضين

فيما يلي نناقش قضية الماديين الذين لا يؤمنون بغير المادة، والمعارضين لحقيقة الدين:

١ ـ قولهم: أن الحوادث تحدث طبقاً لـ(قانون الطبيعة فلا حاجة لأن نفرض لهذه الحوادث إلهاً مجهولاً، قول باطل لا وزن له، لأن الطبيعة حقيقة من حقائق الكون، وليست تفسيراً له، لأن ما قيل ليس بياناً لأسباب وجود الدين، فالدين يبين لنا الأسباب والدوافع الحقيقية التي تدور وراء الكون، وأن ما قيل هو الهيكل الظاهر للكون، والعلم الحديث تفصيل لما يحدث، وليس بتفسير لهذا الأمر الواقع.

ويقول العالم الأمريكي (سبسيل بابس هامان) البروفسور في البايولوجيا (إن الطبيعة لا تفسير شيئاً من الكون، وإنما هي نفسها بحاجة إلى التفسير)[١] ويضيف قائلاً:

«كانت العملية المدهشة في صيرورة الغذاء جزءاً من البدن، تنسب من قبل إلى الإله، فأصبحت اليوم بالمشاهدة الجديدة تفاعلاً كيمياوياً، هل أبطل هذا وجود الإله، فما القوة التي أخضعت العناصر الكيمياوية لتصبح تفاعلاً مفيداً؟... إن الغذاء بعد دخوله في الجسم الإنساني يمر بمراحل كثيرة خلال

---

(١) الإسلام يتحدى ص٣١ ـ ٣٢.

نظام ذاتي، ومن المستحيل أن يتحقق وجود هذا النظام المدهش باتفاق محض، فقد صار حتماً علينا بعد هذه المشاهدات أن نؤمن بأن الله يعمل بقوانينه العظمى التي خلق بها الحياة»[١].

ولا شك أن العلم الحديث قد أبان لنا كثيراً من الأشياء التي لم نكن على معرفة بها، ولكن الدين جواب لسؤال آخر لا يتعلق بهذه الكشوف العلمية الحديثة، ولا يحل محل الدين، فما الكون على حاله إلا كمثل ماكنة تدور تحت غطائها، لا نعلم عنها إلا أنها تدور، ولو فتحنا غطائها فسوف نشاهد كيف ترتبط بدوائر وتروس كثيرة يدور بعضها ببعض، فهل يعني هذا أننا قد علمنا خالق هذه الماكنة بمجرد مشاهداتنا لما يدور داخلها؟ وهل يفهم أن مشاهدتنا هذه أثبت أن الماكنة جاءت من تلقاء نفسها، وتقوم بدورها ذاتياً؟ ولو لم يكن هذا الاستدلال منطقياً فكيف إذن نثبت بعد مشاهدة بعض عمليات الكون أنه جاء تلقائياً ويتحرك ذاتياً[٢].

٢ ـ أنهم نظروا إلى حقائق ناقصة وجزئية لا يتصل بعضها بالموضوع واعتقدوا أن الدراسة العلمية الحديثة قد أبطلت الدين، على حين أننا لو نظرنا إلى الواقع جملة وتفصيلاً فسوف نصل إلى نتيجة تختلف عن الأولى كل الاختلاف.

وتتجلى حقيقة الدين وسفسطة قضية المعارضين حين نطالع صورة الحياة الإنسانية في ضوء الدين، أنها توافق وأفكار الإنسان السامية كما يتوافق الكون المادي مع القوانين الرياضية بعكس تلك الصورة التي يرسمها

---

(١) الإسلام يتحدى ص٣٢.

(٢) المصدر نفسه ص٣٣.

المعارضون ويقول (برتراند رسل)[1]: «الإنسان وليد عوامل ليست بذات أهداف، وأن بدئه ونشوئه وأمانيه كلها جاءت نتيجة ترتيب رياضي اتفاقي في نظام الذرة، والقبر ينهي حياة الإنسان. . وأن المجهودات الطويلة. . . سوف تدفن إلى الأبد مع فناء النظام الشمسي، وأن الكفاح الإنساني سوف يدفن حتماً مع الأرض تحت أنقاض الكون»[2] ويكاد أن يكون هذا الاقتباس خلاصة الفكر المادي، فالكون في ضوءه يكاد يفقد أهدافه، ولا يبقى غير الظم الحالك الذي تتلاشى فيه معايير الخير والشر حتى أن إبادة الناس عندهم لا تعد ظلماً لأنه سوف يلقون حتفهم، أما الفكر الديني فهو فكر الضوء والأمل، فلكل القيم والأفكار الإنسانية السامية مكان فيه، وأن بعض العلماء بمجرد تصديق القوانين الرياضية لأفكاره يطمئن إلى أنه قد توصل إلى الحقيقة، فإن تصديق العقل الإنساني للفكر الديني دليل قطعي على أنه الحقيقة التي طالما بحثت عنها الفطرة الإنسانية، وعندئذ لا تجد أساساً واقعياً لإنكار قيمة الفكر الديني.

٣ ـ أن الماديين يصفون الدين بالرجعية، غير أن اتهامهم هذا لا يستقيم أمام مناقشة المنصفين، ذلك لأن الإسلام نظام اجتماعي له منهجه في علاج المسائل التي تتصدى للمادية، وهو ـ الإسلام ـ يواجه مشكلة الفقر بحلوله المتعددة ولا يقصر مواجهتها على فرض الزكاة للمستحقين كما يسبق إلى الظن لأول وهلة، وهو ينكر الإسراف والاحتكار والترف ويأبى أن يكون المال (دولة بين الأغنياء) ويأمر المسلم أن لا ينسى الذلة والاستعباد فلا يتسنى للحاكم الأجنبي أن يخضعه لغير معتقده، أو يسومه الهوان في أمور الدنيا والدين[3] ولهذا يصفونه بالرجعية ليشككوا في نظامه وتشريعاته ويبعدوا الناس عنه.

---

(١) أحد علماء المادية.

(٢) الإنسان يتحدى ص٤١.

(٣) الفكر المادي وموقف الإسلام منه ص٢٧٩.

الفصل السادس

المقارنة بين الحضارة الحديثة والقرآن الكريم

بعد أن عُرض جانب من الحضارة المادية التي تكونت في الشرق والغرب في الفصل الخامس ونود أن نقارن بين المذاهب الوضعية المادية والمثالية التي أعطت تفسيراً عن الكون والحياة والإنسان ونشأ عن هذه المذاهب فروع من الاقتصاد والسياسة. وبين معطيات القرآن الكريم الذي أرشد الناس وألهمهم على أسرار الكون ليقوموا بالكشف عنه بالتجربة والنهج العلمي في البحث، وكون في عقولهم المذهب التجريبي عن طريق الأمر بالبحث والتأمل والنظر في ظواهر الطبيعة وأسرار الإنسان كما ورد في كثير من الآيات الكونية في القرآن الكريم.

أن المذهب المادي في الغرب كان نتيجة للصراع الدائر بين الكنيسة ورجال العلم في أوربا منذ فترة بعيدة مما أودى بحياة كثير من العلماء، ولذلك يدعي هذا المذهب لنفسه أن له فلسفة كونية شاملة تقدم التفسير الصحيح لجميع الظواهر في الطبيعة والمجتمع، ويدعي ثانياً أن نضاله السياسي لم ينشأ من طموحات فردية أو جماعية لا صلة به بالواقع الموضوعي للمجتمع، وإنما هو مبني على المادية التاريخية والمادية الديالكتيكية.

إلا أن القرآن الكريم يرسم للعلماء قدسية طريق البحث العلمي والتجربة

الفكرية الرائدة ولم يحدث في التاريخ الإسلامي أن يضطهد عالم لعلمه أو لاكتشاف من اكتشافاته بل كانت الدولة والمجتمع يتلقيان نتائجهما بالتقدير والإعجاب وينفقون أموالهم من أجل تيسير وسائل البحث العلمي لهم وفيما يلي المقارنة بين المذهب المادي الوضعي والقرآن الكريم.

١ ـ أن الماديين يرون أن الكون حدث نتيجة المصادفة أو التولد الذاتي أو حركة الأضداد في المادة، وليس من صنع إله كما قال لينين بصدد المفهوم المادي: (أن العالم هو واحد لم يخلقه إله ولا إنسان..)[١] ويرى بعضهم أن الحياة هبطت من كوكب آخر عن طريق النيازك، ولا يوجد لعقيدة التوحيد موضع في المذهب المادي.

أما القرآن الكريم يرى أن الكون حدث بإرادة الخالق الواحد الأحد حين أراد إيجاده ولا مكان للمصادفة أو التولد الذاتي بين نظامه المدهش الذي لم يكشف عن محتوياته إلى وقتنا الحاضر، وأن الإنسان القاصر لا يمكنه الإحاطة بكمال الله وعظمته، لأن ذلك يفوق مقدرته وقوة إدراكه.

٢ ـ أن الماديين يقضون بأن العالم موجود خارج إدراكنا وتصوراتنا، والحقيقة النهائية في الكون هي المادة التجريبية وهي السبب الأعمق للظواهر الكونية، ولا يوجد وراءها شيء آخر يمكن اعتباره سبباً لوجود الكون واستمراره. وأما المثاليون فيرون أن الكون موجود في إدراكنا وتصوراتنا وكل الأشياء في الكون لون من ألوان تفكيرنا وتصوراتنا وما لا ندركه فهو غير موجود[٢].

---

(١) الشيوعية تناقض الدين ص٢٢.

(٢) مطارحات الفكر المادي ص١٩٦.

أما القرآن الكريم فيتفق معه المادي في وجود الكون خارج إدراكنا غير أنه ليس ذاتي الوجود، بل هو معلول الوجود لمبدأ غير مادي فوق الروح والطبيعة معاً، وأن لكل شيء سبباً على الإنسان أن يبحث عنه، وكذلك أن جميع الأسباب تتناهى في نهاية الأمر إلى سبب أعلى منها جميعاً وهو الله تعالى ولا يقبل وقوف الموجودات عند حد المادة بأي شكل من الأشكال، ويقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾[١].

٣ ـ يرى الماديون أن العالم الذي تُدركه حواسنا والذي ننتمي إليه هو الواقع الوحيد، وأما إدراكنا وفكرنا فهو نتاج عضو مادي جسدي هو الدماغ، فليست المادة من نتاج العقل بل العقل من نتاج المادة الأعلى[٢].

أما القرآن الكريم فيصرح بأن العالم المادي ليس الواقع الوحيد ولا عالم العقل واقع وحيد بل كلاهما يشكلان الوجود، وأنهما من صنع الله الذي أتقن كل شيء وما المادة والعقل إلا آيتانِ من آياته فليست المادة قادرة على التفكر والتدبر كما يظنه الماديون، ولا العقل وحده قادر على تفسير ظواهر الكون لولا خلق الله فيهما القوة وإعداد المستلزمات من سمع وبصر وقوة مخيلة وحافلة وقابلية التعلم، فالمادة مسخرة للحياة وهي قاصرة وعاجزة عن أن تكون الواقع الوحيد للوجود، وكذلك في أولى مراحله لم يكن قادراً على فهم الأشياء ويعود في أخريات العمر إلى الضعف الذي لا يعلم أشياء بعد أن كان يعرفه من قبل، يقول تعالى:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[٣].

---

(١) الكهف: ٨٤.

(٢) المادية الديالكتيكية ص٢٨.

(٣) النحل: ٧٨.

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾[١].

٤ ـ يرى الماديون أن الدين (أفيون الشعوب)[٢] ولا فرق بين دين وآخر سواء أكان سماوياً أم وضعياً.

لكن القرآن الكريم يجعل دين الإسلام خاتمة الأديان السماوية السابقة مصححة ما حرفه رجاله من قبل، وجعله دين الفطرة والقيم الإنسانية السامية، يتلائم مع جميع الظروف في كل زمان ومكان دون تمييز بين إنسان وآخر، فكلهم مساوون أمام القانون الإلهي، وميزان المفاضلة التقوى، يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٣].

٥ ـ يرى المذهب المادي أن المادة أزلية وهي أساس الوجود وأن الطبيعة كلها واحدة متماسكة ترتبط فيها الأشياء والحوادث فيما بينها ارتباطاً عضوياً ويتعلق أحدهما بالآخر[٤].

أما القرآن الكريم فيحكم بأن المادة حادثة مسبوقة بالعدم وأنها من صنع الإله، ذلك لأن المادة لو كانت أزلية لما تغيرت، ونحن نجد بالمشاهدة أن المادة تتحول إلى طاقة والطاقة تتحول إلى مادة، وتحتوي على المادة والمادة المضادة، وأنها قابلة للفناء والتحول، وكذلك لو كانت المادة أزلية لاتصفت بصفة الخالق، فمن العبث أن توصف المادة العمياء بصفة الخالق وتنسب إليها

---

(١) الحج: ٥.

(٢) الشيوعية تناقض الدين ص٢٠.

(٣) الحجرات: ١٣.

(٤) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص١٦.

صفة الخلق والإيجاد، ثم إن العلماء قرروا بأن الطاقة تتلاشى وأنها تظل في أثناء تطورها، في هبوط وانحدار لا في صعود إلى البقاء والقوة، وها هي (الشمس) أم الطاقات كلها قد فقدت آلاف المليارات من الأطنان من وزنها، وهي ماضية في هذا الفقد والنقصان، وإذا تنبه العلم إلى أن المادة ليست أكثر من وعاء للطاقة، وأن مآل المادة إلى التفكك والانعدام فأين دعوى سرمدية المادة؟ والفعل قاض بأن ما هو محدود وينتهي فلا بد له من بداية يرجع إليه، وإذن فالكون مسبوق بعلم الله أوجده من العدم ويؤول أمره إلى علمه ويفنى.

٦ ـ يرى الماديون أن المادة هي الإله وأن الروح والعقل من نتاجه.

أما القرآن الكريم فيقضي بأن المادة والروح والعقل آية من آيات الله الدالة على عظمته وقدرته، وجعلها مسخرة لخدمة الحياة والبشر ليعبد الله ولا يشرك به شيئاً.

٧ ـ أن الماديين يرون أن الدين لا يصلح أن يدير شؤون الدولة والحكومة، ولهذا قرروا رفض الدين كما هو الأمر عند الماركسية، وفصله عن الدولة كما هو الأمر في النظام الرأسمالي وتسمى العلمانية.

أما القرآن فيرى أن الدين ضروري للمجتمع الإنساني مهما تقدم به ركب الحضارة من ثقافة وسياسة واجتماع فكلما تقدم العلم ازدادت حاجته إلى الدين لأنه يفسر له قانون الكون وكيفية التعامل مع الفرد والمجتمع، فهو يرفض تكديس الأموال أو التعامل بالربا، ويحرم الغش والخيانة ويسعى إلى توزيع الأموال على المستحقين ويدعو إلى العمل والعبادة والإخلاص في السر والعلانية ورد المظالم وحماية المستضعفين والأطفال والنساء، ويجعل الملك لله والنظام نظامه وعلى الناس تنفيذه وتطبيقه.

٨ ـ أن الحضارة المادية والمثالية يفند أحدهما رأي الآخر حول المادة الأولى للحياة كما بينا في المقارنة بين المادية والمثالية، أما القرآن الكريم فيرى أن المادة والروح كلاهما يكونان شيئاً واحداً ليكون آية من آيات الله البينات فليست المادة بدون روح، ولا الروح بدون مادة في عالم المشاهدة.



الخاتمة

فيما يأتي أهم النتائج التي توصلت إليها خلال هذه الدراسة يمكن أجملها كالآتي:

١ ـ أن عناصر الكون كانت آلهة لدى أهل الحضارات الأولى، وأن الإنسان فيها يعبد هذه العناصر خوفاً منها، وطمعاً في خيراتها واعتقدوا أن لها تأثيراً عن المخلوقات الأرضية.

٢ ـ أن الآلهة عندهم خلق الإنسان ليخدمهم ويخفف عنهم التعب ويكون مسكنهم الأرض ومسكن الآلهة السماء.

٣ ـ أن الترابط والتماسك بين عناصر السماء والأرض مبنيان على أساس الصراع بين هذه العناصر، وأنها أزلية أبدية.

٤ ـ أن خلق الكون أتعب الإله كما ترى التوراة، عندما خلقه في ستة أيام واستراح في اليوم السابع.

٥ ـ أن الإله يتخذ من الجبال والضباب والرياح مسكناً له، ويتصف بصفات الإنسان الضعيف كما وصفه التوراة.

٦ ـ أن القرآن الكريم صحح هذه المفاهيم الخاطئة وبين أن عناصر الطبيعة آيات دالة على عظمة الخالق جل وعلا، وتربط بين هذه العناصر حبل المودة والمنفعة والانسجام والإلفة، وبين أن القوة المؤثرة والمتصرفة في الكون

قدرة الله تعالى الذي لا يؤثر في عظمته شيء، ولا يتعبه شيء من خلقه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾[1].

٧ ـ أن مادة السماء والأرض كانتا شيئاً واحداً في بدء التكوين ففصل بينهما بانفجارها بقدرة الله تعالى ويقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾[2] وآثار قدرته واضحة في رفع السماء وقرار الأرض.

٨ ـ لا يعرف كيفية خلق السموات والأرض ولا كنه الروح لأن الله تعالى وكل ذلك إلى أمره، ويقول: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾[3] ويقول: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[4].

٩ ـ أن خلق السموات والأرض تم في ستة مراحل زمنية طويلة أو فترات زمنية طويلة، وأن الأرض لم تنفصل عن الشمس بل الأرض انفصلت عن السماء، ولها تكوين خاص وللسماء وما فيها من أجرام تكوين خاص.

١٠ ـ أن السموات سبع سموات بعضها فوق بعض يسبح تحت سماء الدنيا المجرات والكواكب كل في مداها. والأرض سبع طبقات متلاصقة بعضها ببعض كالبصل.

١١ ـ أن السموات مصممة على شكل فلك مستدير مقفل على نفسها لا

---

(١) سورة ق: ٣٨.

(٢) الأنبياء: ٣٠.

(٣) الكهف: ٥١.

(٤) الإسراء: ٨٥.

يمكن للإنس والجن النفوذ من أقطارها إلا بقدرة الله تعالى لا بسلطان العلم.

١٢ ـ ذكر الله تعالى بعض أجزاء الكون في القرآن الكريم من أجل أن يربط الإنسان بالكون وأن يهتدي إلى غايته في أسفاره وليتعلم عدد السنين والحساب وأوقات العبادات، وليعلم وحده النظام الكوني والتناسق التام بين أجزائه، وأنه خير دليل على وحدانية الله وقدرته في إبداع خلقه.

١٣ ـ أن هذا الكون مسبوق بالعدم وسينتهي أمره في يوم موعود إلى نهاية محتومة تتفكك أجزاؤه المترابطة، وأن المادة مخلوقة من العدم وتفنى عندما يصطدم أجزاء المادة مع ضد المادة.

١٤ ـ يرى العلم إلى الآن بعدم وجود حياة كحياة الإنسان على سطح كواكب مجرتنا، وذلك لكثرة الشهب المتطايرة بين الكواكب وانعدام الطبقة الهوائية الكافية للحياة عليها، والواقية من الأجسام الخارجية، ومن الممكن وجودها في المجرات الأخرى البعيدة إلا أنه لم تكشف لنا بعد.

١٥ ـ خالق الكون في القرآن الكريم واحد حكيم قدير غير مماثل للحوادث يتصف بكل صفات الكمال مُنزه عن كل نقص.

١٦ ـ أن القانون الذي نزل به القرآن دائم بدوام الكون صالح لكل زمان ومكان.

١٧ ـ أن علم الله تعالى محيط بالمستقبل والحاضر والماضي، ويعلم الأشياء ونتائجها مهما دق، وما في الأرحام قبل اختلاط النطفة في الرحم، وما في المحيطات مهما كانت مظلمة، لا يمنعه من معرفته مانع.

١٨ ـ أن الكون في منظور الحضارة الحديثة نشأ نتيجة الصدفة أو التولد الذاتي، ونشأت الحياة على الأرض نتيجة هبوطها على كواكب أخرى، أو

الانتخاب الطبيعي.

١٩ ـ أن الماديين يقولون أن الكون لم يخلقه إله، وإنما كان على هذا الشكل منذ الأزل ويبقى إلى الأبد.

٢٠ ـ أن الماديين جعلوا المادة أساس كل شيء، وأن الحركة والروح تابع لها، أما المثاليون فقد جعلوا الحركة والفكر أساس المادة، وتداخل الرأيان فيما بعد ونقل الماديون آراء المثاليين بثوب جديد وصياغة جديدة.

٢١ ـ أن الماديين لا يؤمنون إلا بما يقع تحت إدراكنا وتصوراتنا ولا يؤمنون بعالم ما وراء الطبيعة.

٢٢ ـ ذكر الماديون الماركسيون أن الدين أفيون الشعوب وأنه لعائق من تقدم المجتمع دون أن يميزوا بين الأديان الوضعية والأديان السماوية، وبين الدين الإسلامي وفي نهاية المطاف رفضوا الدين تماماً.

٢٣ ـ أن الماديين يستغلون الدين ورجاله لتحقيق مآربهم ثم لا يعترفون به.

٢٤ ـ يقتصر مجال عمل الدين على المعابد فقط، ولا يجوز لرجال المعابد ورجال الدين أن يتدخلوا في إدارة الدولة.

٢٥ ـ أن القرآن الكريم نسب قضية الخلق والحياة إلى الله تعالى وهو خالق كل شيء ولم يستقم قانون المصادفة والتولد الذاتي أمام البراهين العلمية، وأن العلم الحديث يؤيد ما جاء في القرآن الكريم، ويفند الآراء والنظريات المخالفة له وسيعلن فيما بعد أن القرآن هو الدستور الوحيد الذي يتطابق مع الحقيقة ولا يتغير بتغير الزمان والمكان، وستنجلي الحقيقة لمن يريد الوصول إليها عن طريق الأدلة العلمية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المراجع

أولاً ـ الكتب

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ إبليس تأليف عباس محمود العقاد، دار الهلال، القاهرة ـ ١٩٥٨م.

٣ ـ الأدب والدين عند قدماء المصريين: تأليف أنطون ذكرى، الطبعة الأولى، مطبعة المعارف، مصر ١٩٢٣م.

٤ ـ أساس البلاغة: تأليف جار الله أبي القاسم محمد بن عمر الزمخشري، الطبعة الثانية مطبعة دار الكتب مصر ١٩٧٢م.

٥ ـ الأساطير السومرية: تأليف صموئيل كريمر، ترجمة يوسف داود عبد القهار مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٧١م.

٦ ـ أسرار الذرة: تأليف أوميد شمشك، ترجمة أورخان محمد علي، الطبعة الأولى مطبعة الحوادث بغداد ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٧ ـ الإسلام دين الفطرة: تأليف محمد أحمد الغمراوي، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة ـ مصر ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

٨ ـ الإسلام في عصر العلم: تأليف محمد أحمد الغمراوي، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة ـ مصر ١٣٨٣هـ ـ ١٩٧٢م.

٩ ـ الإسلام والعلم الحديث: تأليف عبد الرزاق نوفل، الطبعة الأولى دار المعارف ـ مصر ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م.

١٠ ـ الإسلام ومواجهة المذاهب الهدامة: تأليف د. محمد البهي، الطبعة الأولى دار التضامن للطباعة ـ القاهرة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

١١ ـ الإسلام يتحدى: تأليف وحيد الدين خان، الطبعة الثانية، دار البحوث العلمية إيران ـ الناشر دار الجليل ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

١٢ ـ الإسلام يقيناً لا تلقيناً: تأليف صابر طعيمة الطبعة الأولى دار الجليل ـ بيروت ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

١٣ ـ أضواء البيان في تفسير القرآن: تأليف محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقطي، يطلب من عالم الكتب ـ بيروت.

١٤ ـ الإعجاز العلمي في الإسلام ـ القرآن الكريم ـ تأليف د. محمد كامل عبد الصمد الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

١٥ ـ الإعجاز القرآني: بحوث المؤتمر الأول للإعجاز القرآني المعقود في بغداد سنة ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م مطبعة الأمة ـ بغداد.

١٦ ـ الإعلام ـ تأليف خير الدين الزركلي، الطبعة الخامسة ـ دار العلم للملايين بيروت ـ لبنان ١٩٨٠م.

١٧ ـ أفيون الشعوب المذاهب الهدامة: تأليف عباس محمود العقاد، دار الكتاب المصري.

١٨ ـ الله ـ تأليف سعيد حوى: الطبعة الثالثة، دار الكتب العلمية بيروت

ـ لبنان ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

١٩ ـ الله ـ كتاب في نشأة العقيدة الإلهية، تأليف عباس محمود العقاد، دار المعارف مصر ١٩٤٧م.

٢٠ ـ الله ذاتاً وموضوعاً: تأليف عبد الكريم الخطيب، الطبعة الثالثة، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

٢١ ـ الله والكون: تأليف محمد جمال الدين الفندي طبع في الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م.

٢٢ ـ الله يتجلى في عصر العلم، تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان راجعه الدكتور محمد جمال الدين الفندي دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه.

٢٣ ـ الألوهية وفكر العصر تأليف حامد عوض الله المركز الثقافي الجامعي القاهرة سلسلة الدراسات العلمية.

٢٤ ـ الإنسان والدارونية، تأليف محمد صالح كريم، مطبعة الجمهور ـ موصل ١٣٧٦هـ ـ ١٩٧٦م.

٢٥ ـ الإنسان والكون في الإسلام، تأليف أبو الرفا الغنيمي التفتازاني دار الثقافة للطباعة والنشر بغداد ١٩٧٥م.

٢٦ ـ الإنجيل ـ الكتاب المقدس.

٢٧ ـ الانفجار الكبير، تأليف أوميد شمشك، ترجمة أورخان محمد علي الطبعة الأولى مطبعة الشعب بغداد ١٩٨٦م.

٢٨ ـ الآية الكبرى، تأليف سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم

الصالحي الطبعة الأولى مطبعة العاني بغداد ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٢٩ ـ بدائع السماء، رحلة مع العلم في رحاب الكون، تأليف جيرالد هوكنز ترجمة د. عبد الرحيم بدر مراجعة د. فؤاد صروف مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٧م.

٣٠ ـ بداية الكون من الأفلاك إلى البشر، تأليف جون فليفر ترجمة د. محمد الشحات الناشر مؤسسة سجل العرب ـ القاهرة.

٣١ ـ بذل المجهود في حل أبي داود تأليف العلامة الشيخ خليل أحمد السهار نفوري (ت ١٣٤٦هـ).

٣٢ ـ برهات تاريخية تأليف عدنان ذريل دمشق ١٩٧٣م.

٣٣ ـ بصائر جغرافية تأليف رشيد رشدي العامري بغداد ١٩٥١م.

٣٤ ـ تاج العروس تأليف محمد مرتضى الزبيدي دار ليبيا للنشر والتوزيع ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.



